يَوميّات مستفزّة
وقصص أخرى



ميساء بلال

يوميات مستفِزّة



طبع في لبنان

يومياتُ مستفِزّة

ميساء بلال

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

الطبعة الأولى

1435 هـ - 2014 م

ردمك 978-614-02-1132-2

منشورات ضفاف
DIFAF PUBLISHING

هاتف الرياض: 966509337722+

هاتف بيروت: 9613223227+

editions.difaf@gmail.com

الإهداء

إلى منقذ

ملهمي كلّ يوم

المحتويات

امرأتان من سوريا

في وصف عبير

تعتبر عبير من أكثر سيدات المنازل تمسكًا بالعادات الصحية السليمة، وهي تتبع دائمًا قواعد صارمة؛ سواء في نواحي النظافة أو الأكل أو اللباس، ويشمل ذلك اتباع شعائر الدين الحنيف بحذافيرها المملة، فلا أحد يعرف العبرة النهائية من هذه التعاليم، وهناك الكثير الكثير من التفاصيل الصغيرة في شعائرنا لم يحل لغزها إلا مؤخرًا، وبأيدي أكبر علماء العالم، من مسلمين وغير مسلمين (معظمهم أعلنوا إسلامهم ولو سرًّا) بعد اكتشافهم عظمة هذا الدين.

وهكذا فإن عبير عندما تأوي إلى فراشها ليلاً، وقد أنجزت ما عليها من أعباء منزلها الصغير، تضع رأسها على مخدتها وتغمض عينيها وهي تشعر بالرضا العميق عن نفسها، وسرعان ما يتسلل النوم إلى رأسها وهي تحاول إنهاء قراءة أذكارها الليلية. ويعتبر التعب الذي تشعر به طبيعيًا جدًّا؛ فهي ما توقفت عن العمل منذ الصباح الباكر.

وقد عاشت عبير حياة سعيدة للغاية، تميّزت كما ذكرنا بالقناعة والرضا، ولم ينغص عيشها الكريم سوى بضع حوادث

متفرقة سنذكرها بالتفصيل، فكل حادث منها استدعى الآخر. هذا مع العلم أن القواعد الصارمة التي تتبعها عبير في حياتها لم تخرق، لا من قبلها ولا من قبل أحد من أفراد أسرتها، وهذا ما كان يؤرق ضميرها الديني، ويجعلها في حالة قلق ما كان يجب منطقيًا أن تتعرض لها مؤمنة في مثاليتها.

الخطبة

ركضت الأخت الكبرى سوسن من الشرفة إلى داخل البيت وهي تصيح: لقد وصلوا.. رفرف قلب عبير فأخذت نفسًا عميقًا جعل الثوب يضيق حول صدرها، ثم أخرجت الهواء من فمها محاولة تهدئة أنفاسها المتسارعة.

التفتت لتواجه المرآة للمرة المائة. أعجبتها صورتها، شعرت أنها ملكة جمال متوّجة. لقد أمضت معظم النهار عند مصففة الشعر، وشعرها الآن مرفوع فوق رأسها على شكل تاج نفرتيتي. نظرت إلى جانب وجهها: لا.. المواجهة أفضل، تظهر لون عينيها الخضراوين. ما أجمل عينيها! كان الكحل الأسود الذي استعملته المزينة يزيد من اتساعهما، ويظهر اخضرار الحدقتين. لطالما كان لون عينيها امتيازًا تمتعت به منذ وعت على الدنيا. لقد لفت إليها الأنظار في الشارع وفي المدرسة، وكان مثار الإعجاب في البيت وبين الأقرباء وبين الصديقات، وأخيرًا أمام الخاطبات.

أخذت أحداث الأسبوعين السابقين تتلاحق في مخيلتها بسرعة. صورة أم فايز في إطار باب بيتهم وهي تلهث وقد أخطأت بالعنوان. كانت قادمة لتخطب بنات عائلة أخرى في البناء المواجه لبنائهم.. شعورها وهي تنقل الكتاب من يد لأخرى شارحة لأم فايز العنوان الصحيح.. الخجل الذي اعتراها عندما أحست أن أم فايز تتأملها.. وتواريها وراء الباب مبدية رأسها فقط حين تذكرت أنها ما زالت في ثوب نومها.

ثم استعادت صورة سوسن وهي تدخل حاملة فناجين القهوة إلى غرفة الضيوف؛ لأنهم يستقبلون سيدات بقصد الخطبة.. صورة أمها تخرج من غرفة الضيوف وهي تقول: "البسي بسرعة وادخلي، السيدات يطلبنك أنت".. دخولها لتجد أم فايز وقد اتسعت ابتسامتها وهي تنظر بطرف عينها إلى سيدتين آتيتين معها.. وصورة فايز وهو جالس ينظر إليها خلسة وهي مختبئة بين أمها وأبيها حائرة أين تضع يديها.. ويرفرف قلبها من جديد فتأخذ نفسًا عميقًا.. لقد حدث ذلك بسرعة.

العرس

تزوجت عبير في سن مبكرة نسبيًا، ونقول نسبيًا لأن الجيل الذي سبقها بعشر سنين فقط، كان يتزوَّج قبل أن يتم دراسته الإعدادية. أما هي، فقد خطبت وهي تتهيأ لتقديم

شهادتها الثانوية، ومع ظروف الخطبة والارتباط تمكنت من النجاح، وبقيت هذه الحادثة مدعاة فخر واعتزاز لها ولعائلتها فترات طويلة من الزمن، حتى إنها أصبحت مضرب مثل للنجاح ضمن دائرة أكبر من المعارف، تشمل الأقرباء الأبعد والجيران وأقرباءهم وبعض أصدقاء الزوج الذي لم يكن في تلك الفترة يخفي إعجابه بالخطيبة النبيهة التي أسعده النصيب بالزواج منها. وبالإجمال كانت الأمور في ذلك الزمن واضحة وبسيطة لا تحتمل النقاش.

بعد الزواج أثبتت عبير أنها الزوجة المثالية حتمًا، فمن أول فنون المطبخ الشامي العريق، مرورًا بالترتيب وإتقان نظافة المنزل، وصولاً إلى خياطة الملابس المنزلية ولوازم الأطفال عمومًا، وإنجاب عدد من الأولاد الذكور والإناث وفي وقت قياسي، لم يتمكن خلاله أحد من عجائز العائلتين من استباق كلام أو توجيه نقد.

كان البكر ولدًا، وجاء مولده بعد تسعة أشهر من ليلة الزواج، ثم أتبعته ببنت بعد سنة ونصف بالضبط، ثم أتبعتها بولد بعد سنتين بالضبط، ثم أنجبت توأمًا بنتًا وولدًا بعد ثلاث سنين صارا قرة عين والدهما والعائلة بأسرها. وبعدها توقفت فجأة عن الإنجاب بدون أن يكون لها يد في ذلك. وبعد أن صار عمر التوأم الشهير خمس سنوات بدأ الزوج يرمقها بنظرات مريبة، وبدأت هي تشعر بالخزي تارة وبالحقد تارة أخرى.

وكانت هذه إحدى الحوادث المهمة التي سنرويها بالتفصيل لأنها مؤرقة، وما كان يجب أن تتعرض لها واحدة في مثل أخلاق عبير.

الأولاد رزق مكتوب

في يوم من أيام الربيع الجميلة، خرجت العائلة في سيران إلى الغوطة. كان أحد معارف الزوج، وبينهما بعض الأعمال التجارية، يملك بستانًا مزروعًا أشجارًا مثمرة، وقد اتفق الزوج معه على استئجاره ليوم السيران، وقد أخذ الشريك على خاطره من هذا العرض وحلف أن يقدم البستان مجانًا، ولكن الزوج كان حاسمًا مثل عادته في هذه الأمور؛ فالدين واضح في هذه المسائل، ويجب أن يأخذ كل ذي حق حقه. والحقيقة أن مواقف الزوج في كل حياته كانت واضحة وصريحة في الأمور المالية.

دعا الزوج كل عائلته وعائلة الزوجة إلى الخروج، وقد استدعى ذلك أن يقوم لحام العائلة بذبح خروف على شرف المناسبة، وقطعه وجعله قسمًا للكباب وآخر للأوصال، وأحضر الزوج كل مستلزمات الشيّ، وأحضرت الزوجة كل مستلزمات المقبلات، مع الفواكه وصدرين من الكنافة لفترة المساء.

وعندما أصبحت مائدة الطعام جاهزة، نظر الزوج إليها بعين راضية، وصار يدعو كل واحد باسمه للطعام، وكان فخورًا

جدًّا يومها، حتى إنه دعا عبيرَ بكنيتها وبصوت مسموع (أم وائل) للجلوس بجانبه على رأس المائدة. وقد تكون هذه الحركة هي التي ألبت عليها قلب حماتها، من يدري؟ وهكذا بدأت الوليمة بجو مرح، وأخذ الجميع يساعدون بعضهم للوصول إلى الأصناف المختلفة، وعندما شارفوا على الشبع بدأت عبير تحلف بالأيمان المغلظة عليهم للاستزادة من الطعام. ولم يقصر الزوج من جهته، بل أخذ يقبض على اللحم المشوي المتبقي في الطناجر ويرميه قسرًا في الصحون واشتد الهرج، وكان بعضهم يحاول الهروب والبعض الآخر يحاول تفادي وضع كميات كبيرة من صحنه، عله يستطيع إنهاءه، وفي هذه اللحظة الشديدة المحددة، قالت أم الزوج وهي توجه الحديث إلى ابنها:

- مائدتك إن شاء الله عامرة بالطعام، وولائمك دائمة بإذن الله، ربي يرزقك بالذرية الصالحة ويزيدك من نعيمه.

فأجاب الزوج:

- ادع لي يا أمي، فدعاء الأم مستجاب.
- يا رب، بعظمة يوم الجمعة، لا تحرم ابني من رزق الحلال ومن الذرية الصالحة.

كانت عبير تتابع الحديث وهي مطرقة، فمن جهة لم تتعود على انتقادات من هذا النوع، ومن جهة فإن الاتهام لم يوجه إليها لترد عليه. بدأ الشعور بعدم الارتياح يملأ نفسها

وأخذت تنظر إلى أبنائها الخمسة، وكأنها تعهدهم، ثم وجدت نفسها تقول:

- ويا رب تحمي أبناءنا وتجعلهم قرة أعيننا.

رأي الدين

بدأت متاعب عبير من يوم السيران تظهر بشكل أوضح؛ فقد استاء الزوج من ردها غير المباشر عليه وعلى أمه، وها هو يعاتبها بقسوة عندما عادا إلى البيت، بل إنه حملها مسؤولية الحديث الذي جرى على الملأ، باعتبارها لفتت النظر أمام الناس إلى مسألة عائلية كان من المفروض أن تكون بينه وبينها وبين أمه فقط.

لكن عبير المثالية الأبدية لن تستسلم من أول مشكلة، وقد وضعت خطة دفاع على محورين: الأول وهو الأهم أن تأخذ رأي الفقهاء المعتمدين في مشكلتها، أما الثاني فهو أن تعرض نفسها على أحسن طبيبة نسائية في كل الشام.

عندما حان موعد يوم الدرس، كان قلب عبير يدق بطريقة مختلفة؛ فمنذ أن استيقظت في الصباح وهي تفكر كيف ستطرح مشكلتها أمام آنستها، وأثناء الطبخ كانت الأفكار تجعلها تقطب حينًا، وتعبس حينًا، وتبتسم أحيانًا كثيرة. كانت تجل شيختها وتحبها في الله محبة ليس لها مثيل، وكانت تتصرف بمنتهى المثالية أمامها وأمام أخواتها، وهي تعتبر من أفضل

السيدات حفظًا للقرآن ومواظبة على الدروس، مع أن ظروفها للحق ليست مثالية كتصرفاتها؛ فهي في يوم الدرس الأسبوعي تبذل جهدًا جبارًا لإنهاء ما عليها من أعباء منزلية، ثم تضطر إلى الخروج من بيتها قبل ساعتين من الموعد لتضع أولادها الخمسة عند أهلها، لقرب بيتها من بيتهم، ثم تستقل سيارة مع جارتها وصديقتها إلى البيت الذي يُعطى فيه الدرس، وهناك تتخذ ركنًا هادئًا لتستذكر ما حفظته خلال الأسبوع الماضي من القرآن الكريم قبل أن تسمّعه، ثم تحل اللحظات المباركة عندما تحضر الشيخة بهيبتها والنور الذي يشع من وجهها وفراستها وحضور ذهنها.. وكم تحبها!

على كل حال، تمكنت عبير من الحصول على خلوة مع الشيخة بعد الدرس، صحيح أنها فقدت فصاحتها عندما وجدت نفسها وجهًا لوجه معها وحدهما، وكادت لفرط الإجلال تتلعثم بكل الكلمات التي حفظتها عن ظهر قلب طوال النهار، ولكن الشيخة أنقذتها بسرعة استيعابها وما فتحه الله عليها من البصيرة، وخرجت من الخلوة وهي منتشية من الحماس والسعادة.

المهم أن رأي الشيخة وافق رأيها، وما قالته بالضبط هو ما كان يجول في ذهنها، ولكنها لم تكن تستطيع أن تعبر عنه، وطوال طريق العودة إلى بيتها كانت تسترجع كلماتها حتى لا تفوتها إحداها.

"المال والبنون زينة الحياة الدنيا والباقيات الصالحات خير عند ربك.. يا ابنتي ركزي على السنن والأذكار، ولا تلتفتي إلى الدنيا ومباهجها، ادع الله في الأسحار، وهو تبارك وتعالى سوف يحقق لك رغباتك وأنت جالسة في بيتك. هل أتممت حفظك للقرآن الذي عاهدت ربك ونفسك عليه؟

- أنا أعمل ما بوسعي.
- لا يكلف الله نفسًا إلّا وسعها، انظري فيما قصّرت في الفترة الماضية من السنن، وأنا متأكدة أن الله سيهديك إلى ما عليك فعله. ولكن إياك أن تتجرئي على زوجك، عامليه بالرضا يقابلك بالتسامح. وقولي له إن الذرية رزق مقسوم من الله تعالى، مثلها مثل المال، يسعى الإنسان لتحصيله، لكنه لا ينال إلا ما كتبه الله له منه. ما عمر آخر أولادك؟
- التوأم صار خمس سنوات منذ شهرين.
- سوف أرسلك إلى طبيبة تخاف الله، اكتبي اسمها عندك، واذهبي إليها عسى الله أن يفتح عليها بشفائك.
- شكرًا لك. أنا لا أعرف كيف أعبر عن امتناني، لقد أزحت عن صدري همًّا كبيرًا.

تلمست عبيرُ مكان الورقة في جيب معطفها وكأنها تتبارك بها. لقد أصرت الآنسة أن تكتب لها الاسم بنفسها، كي تتلطف معها.

تلك كانت إحدى الليالي المشهودة في حياة عبير؛ فمن جهة أحست أن مشكلتها في طريقها إلى الحل، ومن جهة أخرى أحست بالقوة لدعم آنستها لها. صغرت الدنيا بعينيها، واستخفت بعقل زوجها وحماتها، وأخذت على عاتقها إصلاح الأمر برمته.

لا شيء يصعب على المؤمن

كانت مراجعة الطبيبة من المهمات التي أدتها عبير بأريحية ليس لها مثيل؛ وذلك لارتباطها بالحديث الذي جرى مع آنستها، والذي مازال استرجاعه في ذاكرتها يولد فيها مشاعر دافئة.

كانت أم عبير ترافقها، وحاولت أن تفتح معها حديثًا أثناء المشوار الطويل نحو العيادة خارج دمشق، ولكن عبيرَ لم ترغب في تشتيت أفكارها. والحقيقة فإن عبيرَ لم تغفر لأمها انحيازها إلى جانب أختها الكبرى، وسكوتها عن التدخل عندما تبدأ توزيع نصائحها عن تحديد النسل من جهة ثانية، وعن تدخل حماتها في حياتها من جهة، وعن شخصيتها الضعيفة من جهة ثالثة. وكان كل ما تفكر فيه عندما تبدأ أختها بالصراخ وتوزيع الاتهامات أن تدعو لها بالهداية كما نصحتها الأخوات. بعد كل شيء ماذا تنتظر من واحدة بلغت الأربعين ولم تتحجب؟ وها هي تجاهر بأنها لا تصلي كل الأوقات، وأن وقت صلاة الصبح مبكر جدًّا.

استقبلتها الطبيبة استقبال الفاتحين، مما خفف من الضغط النفسي الذي كان مسيطرًا عليها نتيجة بعد العيادة ووقوعها في حي شعبيّ جدًّا، وكان وجه الأم يعكس الامتعاض الذي أحست به هي الأخرى، ولم تنجح مزاحات الطبيبة ولا تبسطها في الحديث في فك العبوس الذي لازم الأم حتى انتهت من الزيارة.

كانت الطبيبة تحمل وزنًا زائدًا يقدر بعشرات الكيلوغرامات، وكانت كتلة جسدها مختفية تمامًا تحت طبقة علوية من الملابس الفضفاضة، وهي قميص مُورّد باللونين الكحلي والبُني، وطبقة سفلية هي تنورة في الأصل كحلية اللون، يصل طولها حتى معصم القدم ولا يغطيه. أما المعطف الأبيض فقد لبسته غصبًا، لكنه على الأرجح غير قابل للإغلاق، وينتمي على ما يبدو إلى عصر سابق على هذه السمنة. لكن وجهها كان يشع نورًا وحيوية، وعمره لا يتجاوز الثلاثين.

- اصعدي إلى الأسكي. (سرير الفحص كما تدلعه الطبيبة، وهي كما أسلفنا خفيفة الظل وصاحبة نكتة حاضرة).
- شكرًا (ترد عبير وظل ابتسامة على وجهها).

بعد فحص سريع لكنه حاسم:

- أنت جاهزة لتخلفي نصف دستة أخرى من الأولاد.

- الله يطمن قلبك.
- توكلي عليه ولن تنالي مرادك إلا بقدرته.

توجهت الطبيبة إلى مكتبها، تناولت قلمًا كان مرميًا قرب حزمة من الأوراق، وبحثت عن دفتر الوصفات تحت مجلة نسائية قديمة استخدم غلافها في تجريب الأقلام، ثم بحثت في درج المكتب طويلاً وهي تخرج منه أغراضًا متنوعة، من بينها نصف ساندويتش في كيس، وعلبة دبابيس شعر، وكاتالوج جديد لجهاز كهربائي، لكن البحث في الدرج لم ينفع؛ فقامت بعصبية لم تكن متوقعة منها لتبحث في ركن من الغرفة على رف معلق جانب الحائط بدون سبب واضح، ووجدتها كأن الرف علق هناك من أجل الاحتفاظ بدفتر الوصفات الطبية. عادت الطبيبة وجلست وراء مكتبها.

- تعلمين، هذا الدواء لا يعطى إلا بوصفة رسمية، فهو هرمون. لا تخافي إنه فقط سيساعدك على تفعيل عملية التبويض. غير ذلك أنا أعتقد أنك قد تجدين نفسك حاملاً فجأة ودون الحاجة للدواء.
- يا الله يسمع منك!
- ومن القائلة، الله يطعمهم لكل مشته. أنا عندي أربع بنات، وقد توقفت عن الإنجاب لأنني تعبت. لا أحد يساعدني في المنزل، وقد وافق زوجي على هذا القرار مع أنه كان يتمنى لو أن الله أعطانا صبيًا.

وكأن العبارة الأخيرة ردت للأم بعض آمالها الضائعة، فتكلَّمت لأول مرة منذ دخولها:

- انصحيها يا ابنتي، هي الأخرى ليس لديها من يساعدها، وقد رزقت بنين وبنات. وصحتها كما ترين، دائمًا مرهقة متعبة، والله حالها لا يعجب أحدًا.
- لا، أنت مخطئة يا خالة، أنا أجدها تفيض صحة وحيوية، وإذا كانت هذه رغبة زوجها فلا تتدخلي بينهما.
- أنا لا أتدخل ولكنها لا تحاول حتى أن تقنعه، هل هذا يجوز من الله؟

ضحكت الطبيبة ضحكة مطولة:

- يا خالة، رب كلمة تقال دون انتباه، تجعلك تهوين سبعين خريفًا في النار.
- سلام قولاً من رب رحيم!

خرجت المرأتان من العيادة، الصغرى تشمت بأمها، والكبرى تشعر بالخوف والخزي والغضب.

المفاجأة

مرت أيام ثقيلة على عبير في موسم الشتاء؛ فقد مرض الأولاد أمراضًا متنوعة، وكان أولهم ابنها الثالث الذي يعاني من

ضعف البنية منذ ولادته، وهو يلتقط الأمراض بحساسية شديدة. عاد من المدرسة في يوم شتائي قاسٍ وهو يرتجف، وكانت حرارته أكثر من أربعين ولم تنفع معه كل الأدوية المتوفرة في المنزل، وبعد يومين من التردد، اضطرت عبير لنقله ليلاً إلى المستشفى؛ لأنه كان قد بدأ يهذي.

ثم بدأ الأولاد يمرضون بالدور، كل في وقت وكل حسب نقاط ضعفه، ثم يتعافون ثم ينتكسون، كل حسب حظه أو تعرضه للبرد في المدرسة. أما التوأم فقد جاء دوره مرتين، في الأول عندما مرض الابن الأوسط وتغيب عن المدرسة أسبوعين، أمضاهما في اللعب معهما، وفي الآخر عندما جاء دور عبير وأعادت لهما العدوى، وقد تراوحت أعراض الأمراض بين ارتفاع الحرارة الشديد والبرد، وبين المغص والإسهال، وبين آلام الرقبة والركب ووجع الحلق. والحقيقة أن وصف هذه الحقبة صعب جدًّا حتى على من عاصرها، ولكنها فترة امتدت أكثر من شهرين بين مد وجزر، وكانت عبير تحاول طوال الوقت أن تقوم بواجباتها على أكمل وجه، ولكن مرضها حينًا ومرض الأولاد أحيانًا كان يعيقها.

ولكن الغرض من ذكر هذه الظروف ليس التعرض إلى ما عانته عبير في تربية الأولاد والسهر عليهم في مرضهم، فهذا واجبها، لم تفكر يومًا في الاعتراض عليه، ولكن توصيف للمرحلة التي رافقت الحدث التالي.

عندما راقت الأحوال واكتشفت عبير أن الأولاد قد تعافوا والحمد لله، كان وضعها النفسي في الحضيض فعلاً، ولكن الحال أن الاعتراض على حكم الله حرام، وهذه الفكرة كانت دائمًا تعيد إلى عبير صفاء ذهنها حتى في أحلك الأوقات.

لقد خطر ببالها أن تفاجئ زوجها في مكان عمله بهدية يحبها، ومع أنها كانت تعرف أن مكان عمله مقدَّس، وأن الاتصال به أثناء الدوام محرّم لأسباب مختلفة، لكن تأنيب الضمير الذي رافقها خلال فترة شهرين عاشت فيهما معه وكأنهما أخوان كان يسيطر على تفكيرها، وكانت تشعر أنها يجب أن تقوم ببادرة تجعل الأمور تعود إلى نصابها، وهكذا فقد أوصت إحدى أخواتها في الإيمان كان زوجها يعمل في مشغل للبراويز الفنية أن تشتري لها لوحة تهديها له، ليعلقها في مكتبه وتذكره بها أثناء النهار.

كانت اللوحة صغيرة جدًّا، وشرحت لها أختها أن المال الذي رصدته لم يكن كافيًا، لكنها أكدت لها أن اللوحة أثمن من السعر الذي دفعته. وبالنتيجة ولطول ما تأملت باللوحة أحست أنها بدأت تعتاد عليها وتحبها. كان قاعها أسود ويبدو أنه فُرِشَ بالمخمل، وقد طرز عليه باللون الذهبي الآية: إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا. وكان الإطار وهو المميز عبارة عن أشعة ذهبية مثل أشعة الشمس تنبعث حول الكلمات التي كتبت

بخط ملتو أقرب إلى المستدير، ولكن المخمل الأسود كان يوحي لها بمخدة، والخط يعطي انطباعًا بالانتفاخ. لقد ترددت أسبوعًا كاملاً قبل أن تتشجع وتقرر أنها يجب أن تقوم بهذه الحركة الرقيقة، وخصوصًا أنها أثناء ذلك كانت تراقب زوجها، وتشعر أنها يجب أن تستعيد اهتمامه. لقد بدا سارحًا في البيت، ولم يعد يهتم كثيرًا بانتقاد مائدة العشاء، ولم تعد مداعبة التوأم هوايته المفضلة، بل إنه صار ينتقد تربيتهما، ولم يعجبه أن البنت نعتت أخاها بالكذب أمامه، ووصفها بقلة الأدب بعد أن كان يعتبر جرأتها ذكاء متقدًا. ولكنها تراجعت وقالت في نفسها (معه حق، لقد كبرت وآن لها أن تراقب كلامها).

وهكذا وجدت نفسها في ذلك اليوم المشمس من الربيع متجهة إلى الحريقة في سيارة أجرة تنبعث منها رائحة البنزين القوية، لدرجة أنها شعرت بالغثيان وكادت تتقيأ، وقد أحس بها السائق فسألها:

- هل تريدين أن أتوقف يا أختي؟
- لا.. شكرًا، فقط إنها رائحة البنزين.
- وماذا أفعل أنا؟ طوال النهار وأنا أدور في الشام والرائحة تتغلغل في صدري..

عادت حالتها تسوء عندما قال السائق تتغلغل، شعرت بالغثيان ثانية؛ ففتحت النافذة وأخذت نفسًا عميقًا من أنفها جعلها تشعر بالتحسّن. أما السائق فقد كان يتابع الحديث عن

مالكة السيارة المتسلطة، والتي لا ترضى أن تصلحها حتى لا تنفق بعض المال.

وانتهى الحوار بشكل تراجيديّ؛ لأن السائق بدأ يدعو الله أن ينتقم من مالكة السيارة بالشكل الذي يراه مناسبًا. وكانت عبير تدعو الله أن تصل بالسلامة؛ لأن هذه البداية لا تبشر بالخير.

توقف السائق عند الساحة وأعطته خمس وعشرين ليرة كانت تحتفظ بها في يدها طوال الطريق، وتقلبها ضاغطة على نقشها كلما ارتفعت وتيرة شعورها بالغثيان. نزلت من السيارة وهي تستنشق الهواء من أنفها ثم تنفثه من فمها بانتظام، لتعيد إلى جوفها الاستقرار، ووجدت نفسها بعد قليل أحسن حالاً، وأخذت تتسلّى بالتفرّج على الواجهات، واكتشفت أنها لم تتسوّق منذ فترة طويلة، وأثار اهتمامها قميص نوم لونه أخضر فستقي قبته تهوي إلى الأسفل بشكل وقح، وقد كُسِيَت بريش خفيف بنفس اللون، أفتح قليلاً. دخلت إلى الدكان وسألت عن السعر، وحاولت مفاوضة البائع قليلاً، قبل أن تفقد اهتمامها فجأة، وتقنع نفسها بالعودة إليه لاحقًا بعد الانتهاء من مهمتها.

كان مكتب زوجها في الحارة التالية، وكانت تعرف أنه لا يحب أن تزوره هنا أبدًا، وهو يسمح بذلك في المواسم، في العيد، حيث تأتي بالأولاد على دفعتين، وتذهب بهم إلى

المحلات التجارية التي يدلها عليها؛ فتنتقي لهم ما يحتاجونه، ثم تعود بهم إليه لاطلاعه على المشتريات وشكره عليها، وغالبًا ما يرافقهم أحد العاملين عنده لحمايتهم في السوق والاتفاق مع التجار.

كان التنقل وحيدة يثقل عليها ويشعرها بالقلق والغربة، وأحست أن الطريق طويلة جدًّا حتى مدخل العمارة المهترئة، حيث يقبع مكتبه في الطابق الثاني. دخلت في عتمة المدخل وشعرت كأنها تقترف إثمًا ما. كانت الجدران قديمة ومدهونة حديثًا بدهان زيتي يلمع تحت ضوء أبيضَ حقير ثبت على سقف الشاحط الأول في غير موقعه دون سبب ظاهر. وللحظات شعرت أنها سوف تتراجع عن كل هذا المشروع، لكنها عادت وتماسكت وملأتها روح التصميم التي طالما أسعفتها في المواقف الصعبة. وعندما وصلت إلى الطابق الأول لاحت لها لوحة اسمه على الباب المدهون حديثًا بنفس لون الجدران.

هل ترن الجرس أو تدخل مباشرة؟ تحمست فجأة وابتسمت وهي تتخيل وجهه وراء مكتبه المقابل للباب ينظر إليها وهو يرخي نظارته ويتساءل ما سر هذه الزيارة المفاجئة. تأبطت هديتها ودفعت الباب داخلة إلى غرفة أصغر بكثير من عهدها بها، ومكتب صغير في الزاوية وليس مقابلاً للباب، ورائحة عطر نسائي قوي تعبق في الأنحاء بشكل أثار مرة أخرى فيها رغبة في التقيُّؤ. أجالت نظرها في المكان وتراجعت نحو

الباب متيقنة بأنها أخطأت العنوان، وسرعان ما تذكرت اللوحة على باب المدخل. ترددت وهي تقف ساندة الباب بذراعها، ثم اندفعت إلى الداخل وجلست على كرسي من الجلد البُني وضع موازيًا لكرسي المكتب، وفكرت بالوضع قليلاً. كانت رائحة العطر قوية ومقززة وتشل المنطق حقًّا، وسرعان ما أحست بأنها يجب أن تصل إلى الحمام، رمت الهدية على الأرض وأسرعت تفتح الباب الموصد الذي كان سابقًا يؤدي إلى موزع يفضي إلى غرفة حمام وغرفة البواب ومخزن، ولكنها فوجئت بكنبة جلدية ومكتب كبير يجلس زوجها وراءه، وأسعفها الحظ بسلة مهملات وراء الباب أفرغت فيها جوفها وهي تصدر أصواتًا رهيبة ناهيك عن الروائح والاختلاجات، ويمكن القول إنها ارتاحت كثيرًا بعد ذلك وألقت بنفسها على الكنبة الجلدية، متنفسة بسهولة لأول مرة منذ أن ركبت التاكسي اللعين، وعندها فقط ميزت المرأة التي كانت تقف وراء المكتب بجانب زوجها.

كان الموقف مؤثرًا، والحقيقة أن المفاجأة التي أضمرتها لزوجها جاءت صاعقة حقًّا، أكثر مما خططت له طوال الفترة الماضية. أما المرأة فكانت سكرتيرة لم تكن تدري بوجودها، ولم تستطع أن تحدد أين كانت مختفية عندما دخلت قبل قليل وهي في حالة الغثيان. ولكن العطر النسائي كان يخصها، هذا ما استطاعت تحديده تمامًا.

كان رد فعل زوجها المباشر عاطفيًّا جدًّا. لقد شكرها على الهدية، دون أن يفتحها، وأرسل وراء البواب ليرافقها إلى البيت. أما السكرتيرة فقد بادرت بعد أن عرفت شخصها الكريم إلى مساعدتها بالوصول إلى الحمام لتغسل وجهها، وأحضرت لها كوبًا باردًا من المياه الغازية قالت إنه مفيد جدًّا لحالتها، ثم أخذت تنظف بيدها آثار المرضى من الأرض، ورمت سلة المهملات في مكان ما، ثم عادت بزجاجة العطر التي كانت أساس البلاد لتطهر بها الجو الخانق. لا.. ليس ثانية يا رب.. أنجدني من عندك.. هنا ظهر البواب قائلاً:

- التاكسي جاهز سيدتي، تفضلي.

مولد الفارس

هناك خبران أحدهما مفرح والآخر مخزٍ إن لم نقل مستهجَن. الخبر المفرح هو أن عبير كانت حاملاً، وهذا يثبت نظريتها في الإرادة والصبر اللذين يحققان المعجزات. ولكن الخبر المخزي كان أن زوجها لم يعد يطلعها على أي من مشاريعه الحيوية.

ففيما كانت عبير غارقة في محاولات إرضائه، كان يوسع أعماله ويغير ديكورات مكتبه ويعين سكرتيرة لرفع مستوى التعاملات التجارية.

وبعد ذلك بدأ بالتنقل بين عمان وبيروت، ولم تعد عبير تستطيع أن تسيطر على الوضع؛ لأن سفره كان متواصلاً تقريبًا، وكانت هي متعبة دائمًا، ولكن التمسك بالعادات الدينية أعانها وأراحها، وكثيرًا ما كانت تصلي وتدعو الله أن يفرج كربها، وألا يدع الشك يتسرب إلى قلبها من ناحية زوجها. والحقيقة أن الشك القاتل كان يغمرها غمرًا. أين كانت السكرتيرة عندما دخلت فجأة غرفة مكتب زوجها الجديد؟ بالرغم من حالة الغثيان التي ألمت بها يومها إلا أن ذهنها كان حاضرًا. ولكن الحالة التي قابلها بها زوجها بعد الحادث، جعلتها لا تستطيع أن تواجهه وفضلت التريث؛ لأنه عاملها معاملة الملائكة عندما عرف بحملها، وانطوت الصفحة بسرعة البرق.

وقد تميزت هذه المرحلة بتقارب شديد حصل بينها وبين أختها الكبرى، ففي غياب زوجها المتكرر عن المنزل، صارت أختها تزورها باستمرار وتحاول أن ترفه عنها وعن الأولاد، بل إنها صارت تصطحبهم أيام الجُمَع في نزهات برفقة زوجها وابنيها، مع أن السيارة كانت تزدحم بهم، وكان ابنها الكبير يرمقهم طوال الطريق بنظرات مستفزة، ويدفع التوأم إذا اقترب أحدهما منه متوددًا.

وقد قابلت هذا العطف المفاجئ بالحذر في بادئ الأمر، ولكنها سرعان ما بدأت تنسجم مع أختها وعائلتها، وأحيانًا

كانت تخاف من عاطفتها نحوهم باعتبار آراء أختها فيها وبطريقتها في الحياة، واستغفرت ربها مرات ومرات وهي تفكر فيهم. وقررت أكثر من مرة أن تسأل شيختها، وكانت في آخر لحظة تعدل عن ذلك خوفًا من أن تفتي لها فتوى لا تستطيع في ظرفها الحالي أن تطبقها.

أما أختها فقد عدلت فجأة عن توجيه الانتقادات اللاذعة، وحرصت حرصًا شديدًا على ألا تسألها عن أي شيء يتعلق بأخواتها في الدين، بل إنها عرضت عليها أكثر من مرة أن تأتي إليها وتجلس مع الأولاد أثناء غيابها لحضور دروس الدين. وكانت هي ترفض دائمًا لأنها تعرف ضمنًا أن أختها تعترض على خروجها في الليل وغيابها لساعات تاركة الأولاد بعناية ابنها الكبير، الذي كانت أختها تعتبره غير مؤهّل لذلك.

لقد اختلطت الأمور كثيرًا على عبير في الآونة الأخيرة؛ فبعد ولادتها بأيام، أحسّت وكأنها تسترجع زوجها القديم. كان فخورًا بالابن رقم أربعة كثيرًا، واحتفل به كأنه مولوده البكر، ولم يكن يشبع من رفعه إلى مستوى نظره والتمعن بتفاصيل وجهه.

- لو عرفت أبي في شبابه، لقلت إنه قد عطس هذا الولد من أنفه.

كانت تصغي إلى تعليقاته بانتباه شديد ولم تكن ترد عليها. في الحقيقة، إن الإعياء الذي انتابها كان شديدًا، وكانت تمضي معظم اليوم نائمة، أو إنه تأثير الأدوية، ومكان الجرح

يؤلمها، لقد ولدت ولادة قيصرية، وهي لأول مرة تشعر أنها لا تستطيع أن تسند طولها مهما حاولت أن تتناسى آلامها، وكان أن أخذت أختها الأولاد إلى بيتها لفترة أسبوع، وبقيت أمها معها لتمريضها والعناية بالطفل. ومع أن الوضع كان مأساويًّا على كل صعيد، فإنها وبسبب تواجد زوجها إلى جانبها كانت سعيدة.

وفي أحد الأيام، استغلت وجودهما في البيت وحدهما، ونوم الطفل، وخروج أمها لتراجع طبيبها، وكونها قد استعادت بعض صفاء الذهن، قامت من سريرها، وأعدت فنجانين من القهوة كما كان يحبها زوجها، وأحضرته إلى غرفة الجلوس، حيث كان يتكلم على الهاتف بصوت خفيف عندما رآها هب واقفًا وحمل الصينية من يدها ثم أجلسها بجانبه.

- لماذا تركت السرير؟ من طلب منك أن تحضري القهوة؟
- لقد مللت النوم، وأشعر بالحاجة إلى المشي قليلاً.
- عندما تريدين أن تتمشي أنا أساعدك، اتفقنا؟
- نعم.

كانت سماعة الهاتف مرمية على الكنبة، وبدأ صوت نسائي، يصدر منها:

- ألو، ألو، أين ذهبت؟

- ألو نعم، لن آتي اليوم إلى العمل أيضًا، فأنا أريد أن أبقى إلى جانب زوجتي الوالدة.

بعد التعليق الذي لم تسمعه عبير، ابتسم زوجها ابتسامة المنتصرين، ثم التفت إليها وهو يقول:

- ماذا تأمرني زوجتي لأهديها بمناسبة الولادة؟
- أنا يكفيني وجودك إلى جانبي.

وكانت تعني ما تقول.

- أنا إلى جانبك العمر كله، ولكن أريد أن أعبر لك عن سعادتي بك وبالطفل.

وكان يعني نصف ما يقول؛ لأنه سعيد جدًّا بهذا المولود الذي أثبت له أنه مازال بكامل لياقته الجنسية، والذي أعطاه زخمًا أمام زوجته الأخرى.

لقد تزوجها بعد عدة مناورات وكر وفر، وهي الآن صارت في قفص لن تخرج منه سليمة، وخصوصًا بعد أن أنجبت له عبير هذا الولد الرائع. أما أن يبقى إلى جانبها العمر كله، فهذا محال؛ لأنه لا قدرة له على ملازمة امرأة واحدة. ابتسم لنفسه مرة أخرى، إنها الحقيقة، بعض الرجال لا تكفيهم امرأة واحدة، وهو منهم.

- أين سرحت الآن؟
- في المولود، ما رأيك باسم فارس؟
- جميل، ولكن أفضل أن يسبقه اسم محمد.

- حاضر.. محمد فارس. اسم جميل. وأريدك أن تفكري في الهدية.
- هديتي أن تبقى إلى جانبي. أيام سفرك كانت أصعب أيام حياتي.
- ولكنك كنت تمرحين مع أختك وصهرك طوال الوقت.
- ماذا تقصد بذلك؟ كنت أذهب من أجل الأولاد. لقد أصبحوا متعلقين ببيت أختي. لقد كانوا بمنتهى اللطف معهم.
- ولم تفكري ماذا سيكون رد فعلهم تجاه أبيهم الذي ليس لديه الوقت الكافي ليمثل هذه المسرحيات الهزلية؟ لا تظني أنني لا أعرف أهداف أختك وصهرك القذرة، طوال عمرها تغار منك وتحاول أن تخرب عشنا بشتى الطرق، وزوجها لا يعنيه في الدنيا إلا إرضاءها، لو كان عنده شرف أصلاً ما كان يسمح لها بأن تخرج من بيتها بهذا المظهر.
- لا تتكلم هكذا عن سيدة مسلمة، ادع لها الله أن يهديها.
- أنا لا أنال من سمعتها، أنا أقول ما أومن به فقط، حرام ما يفعلونه، حرام.. ولولا أنها أختك لما سمحت لك بمرافقتها كلما حلا لها ذلك. يجب أن يعمل

زوجها بعد الظهر ويجعلها تستقيل من وظيفتها، لعل الله يرزقهما رزقًا حلالًا.

- يا أبا وائل، مال رزقهما الآن، هل يأكلان مالاً حرامًا؟ لا تشكك في ذمم الناس، حرام.
- أنا لا أشكك، أنا أقول ما أومن به، مال الموظفين حرام، ناهيك أن تكون موظفة وتتعاطى مع الرجال طوال النهار، لا تخوضي بأحاديث لا تحبين أن تسمعيها. أنا لا ألومك أنت، زوجتي أطهر إنسانة في العالم، فلا تدافعي عن شيء خاطئ فقط. لأنه يحلو لك ويعجبك.

استغفرت عبير ربها، وأضمرت في نفسها أن تصلح الأمر وتتخذ إجراءً قطعيًا يحد علاقتها بأختها، ولامت نفسها كثيرًا لأنها تمادت في هذا الموضوع، وهي تعرف أنه غير قويم منذ البداية. وقد ضعفت في الفترة السابقة ربما لضعف في إيمانها، أو تكاسل في إنجاز شعائرها الدينية، ولكنها كانت مريضة وحاملاً، ولم تجده إلى جانبها عندما احتاجت إليه، وماذا في ذلك؟ كان الرجل يسعى وراء رزقه، بينما كانت تسعى وراء الترفيه. استغفرت ربها ثانية، هل يغفر لها الرب كل هذا الإهمال؟

نهاية مؤلمة

أمضى أبو وائل مع أم وائل فترة نفاس امتدت لأسبوعين، كان خلالهما ملاكًا حارسًا للمولود، وزوجًا عطوفًا لعبير، وأبًا مثاليًا لبقية العائلة التي احتفلت بوجوده الدائم في البيت، واستغلت تسهيلاته المصرفية إلى أقصى الحدود. فالبكر وائل كان مولعًا بالطعام، وأصبح يتكفل بتأمين وجبات دسمة مختلفة كان يحلم بها دائمًا.

- ماذا تريدون على الغداء؟ هل أذهب إلى اللحام وأوصيه على كيلوين من الكباب الهندي وأجلبهما معي وأنا عائد من المدرسة؟
- أوه، نعم.. أنا أشتهي الكباب، من زمان لم نأكل كبابًا (الأخ الأصغر).
- انتهينا، أنا موافق، اجعلهم ثلاث كيلوات، وسلم عليه من قبلي حتى يتوصى.

أما البنتان فقد حصلتا على أساور ذهبية كان الزوج قد أوصى بشرائها مع الطقم الذهبي الذي أهداه لعبير بمناسبة الولادة، كان مجموعة ذهبية تضم عقدًا وأسورة وخاتمًا وقرطين للأذن، قررت عبير أن تضعه خلال مباركة الولادة، وقد جربته مرارًا أمام المرآة وقررت أنها لم تر طقمًا بهذه الروعة على أحد من معارفها.

أما الصبيان فقد اشترى لهم الوالد أثاثًا جديدًا لغرفتهم، ونقلهم إلى أوسع غرفة في البيت، تلك التي تشرف على البلكون، واحتسب مكانًا للمولود الجديد الذي حصل منذ الآن على سرير كبير ربما لن يشغله قبل سنوات؛ لأن الغرفة الجديدة ضمت سريرين كلاً منهما مزود بطابقين وسلم خشبي للوصول إلى الطابق الثاني. كانت فرحة الأولاد لا توصف؛ لأنهم حتى تاريخ تأثيث الغرفة كانوا يتشاركون مع البنتين غرفة واحدة، وكانوا ينامون مجتمعين في سرير واحد.

كان الزمان جميلاً ومثاليًا لدرجة لا توصف، ولم يعكر صفو الهناء أي حادث، قبل أن تحدد عبير موعدًا للاحتفال بالمولود، وتبدأ بدعوة القريبات والصديقات يوم الخميس التالي بعد العشاء على المباركة. كانت تعليقات السيدات غريبة بعض الشيء، ولكن فرحة عبير بالانقلاب الذي أصاب زوجها كان تسيطر عليها بحيث عمي عنها معظم التلميحات إلى زواج زوجها. وقبل موعد المباركة زارتها أمها وأختها دون موعد لأنها تهربت من استقبالهما أكثر من مرة.

لم تكونا بحاجة لشرح طويل، كانت عبير تريد أن تعرف متى وكيف تم هذا الزواج، وأرادت أن تعرف لماذا لم تخبراها في حينه، وحاولت أمها إقناعها بأن وضعها الصحي لم يكن يسمح بذلك، ولكن يبدو أن تأخرهما في إخبارها كان هو السبب في تعاستها حاليًا. المعرفة أم الحلول، كان هذا ما يدور

بخلد عبير. وأول ما تبادر إلى ذهنها أنها قد تكون عرفت أين كانت السكرتيرة سابقًا، الزوجة حاليًا، عندما دخلت فجأة إلى غرفة مكتب زوجها في الزيارة المشؤومة.

رأي الدين وللمرة الثانية

لم تكن أخبار عبير في مجتمع متفرغ للتفاهات كمجتمعها تخفى على أحد. المشكلة كانت في التصدي والمواجهة، مهما كانت مؤلمة. وفي حالة عبير التي استعدت أمها وأختها لحظة أبلغتاها بالمأساة، لم تكن المهمة سهلة، كان عليها أن تواجه الجميع بمفردها.

أعياها الأمر تمامًا. كانت مشوشة الأفكار، وكان التمييز بين الأعداء والأصدقاء صعبًا جدًّا. كانت لحظة المواجهة مع زوجها هي الأصعب، واحتاجت إلى استشارة الشيخة بشدة، ولم تستطع أن تختلي بها يوم المباركة؛ فالبيت كان ممتلئًا، وهي كانت مشغولة، ولتعترف أنها كانت حزينة، ولم تكن تعرف إذا كان الحزن في هذا الموقف حرامًا أو حلالاً، فزوجها لم يرتكب ما يخالف الشرع.

ويبدو أنه لا يحق لها أن تعترض. تبين بعد عدة مداولات أن السلوك المثالي في حالتها هو تقبل الوضع، بل الاعتراف بأن الزواج في حالة زوجها لم يمس بها، بل أدى إلى زيادة الخيرات المتدفقة على العائلة برمتها. وكذلك زيادة رضا الزوج عنها،

بـدليل ملازمتـه للبيـت وتفرغـه لهـا وللعائلـة بوجـود العـروس الحسناء.

في هذه المرحلة تمنت أن يعاود السفر من جديد، كانت بحاجـة للانفـراد بنفسـها، كانـت بحاجـة للجلـوس وحـدها في غرفتها والبكاء، بدون أن يراها أحد، بدون أن ينصحها أحد، وبدون أن يشفق عليها أحد.

لكـن زوجهـا لم يسـافر ولم يتركهـا وحـدها، كـان مصـرًا علـى ملازمتهـا مـع طفلهـا الـذي لم تعـد تـرى في وجهـه إلا مأسـاتها. وأصرت أن تكتم غيظها وتنتظر حتى يفاتحها في موضوع زواجه أو تصدر منه أي إشارة إليه. وكان اليوم يمر عليها طويلاً وكابوسيًّا، وبدأت تنكفئ على نفسها وتسرح طويلاً، وأصبح الطعام يؤذيها، والنوم يرعبها، أما أعمال المنزل فكانت تقوم بها بشكل روتيني، وهي المهمة الوحيدة التي أصبحت بالنسبة لها مقبولة ومعقولة.

ولم يفتح معها زوجها أي حديث يمس موضوع زواجه، حـتى إنهـا أحيانًـا كانـت تحلـم بأنهـا واقعـة لم تحـدث، أو إنهـا حدثت وانتهت، إلى أن استفاق زوجها يومًا، وهب إلى خزانته يختار منها ملابسه، وهي عادة مستحدثة جدًّا، على ما تذكره عبير من أنه لم يكن في الأزمان الماضية يعير أهمية تذكر لما يضعه عليه، إلا أن يكون نظيفًا ومكويًّا.

- إلى أين أنت خارج اليوم؟ صدر صوتها ضعيفًا وهي مازالت مستلقية في الفراش.

- إلى العمل، حان الوقت، لقد كانت إجازة طويلة. ألا توافقين على ذلك؟
- نعم، معك حق. وهل ستسافر اليوم؟

ساد الصمت فترة طويلة، تململت معها عبير وجلست في السرير وهي تنظر باتجاهه لتعرف ما الذي أخَّر الرد على سؤالها.

- إذا اقتضت ظروفي السفر، حتمًا سأسافر، وأتصل بك في حينها.
- ألن تحتاج إلى حقيبة لملابسك وأدوات حلاقتك؟
- لا، لدي واحدة جاهزة دومًا. هل نسيت؟ أنت تستفيقين من نوم عميق اليوم.
- استفقت باكرًا.
- وماذا اكتشفت؟
- الأشياء المهمة كلها.
- هذا مفيد، لعلك ستكونين متعاونة كما أتوقع منك دائمًا.
- نعم، سأكون بإذن الله متعاونة. ماذا تتوقع مني تحديدًا؟
- كوني واقعية.. فقط.

خرج زوجها من البيت!! خرج زوجها من البيت!! أحست عبير بفرحة غامرة، قفزت من السرير وكأنها بصدد

القيام بشيء مهم، ليس في برنامجها اليومي للأسف مواعيد مهمة، هناك عودة الأطفال من المدرسة، هناك مواعيد رضاعة الصغير وتنظيف حفائظه ونومه. واستهلك هذا التفكير جزءًا من سعادتها، ولكنها سرعان ما استعادت مرحها وهي تحضر لنفسها وجبة إفطار دسمة. إنها بحاجة إلى الغذاء. قلبت ثلاث بيضات مقليّات بالسمن البلدي على النار ووضعتها في صحن نظيف، ثم سخنت رغيفًا طازجًا على نار البوتاغاز، قطعت حبة من البندورة الطازجة إلى قطع صغيرة، ووضعت الكل على صينية جميلة، ثم جلست مقابل التلفاز تأكل وجبتها بشهية وتتفرج على برنامجَ يفند أزياء الشتاء القادم. ما أجمل الأزياء! وما أجمل العارضات!

سمعت صوت المولود وهو يبكي، ها قد استفاق هو الآخر، تركته وأكملت آخر لقمة بيدها، اتجهت لتغسل يديها وكان صراخه يعلو وتزداد حدته، حملته فسكت فجأة، واتجه رأسه الصغير نحو الشباك مما جعلها تبتسم.

- ماذا؟ هل تريد أن ترى الشارع؟ تريد أن تعرف أحوال الطقس اليوم؟

اتجهت به نحو النافذة وفتحتها قليلاً، ارتعد المولود من صوت محرك سيارة أنّ فجأة تحت الشباك. ضحكت مرة أخرى، هذا المولود جميل جدًّا، كأنها تراه لأول مرة، لماذا كانت تشعر في الأيام الماضية أنه بشع؟ لعل وجهه تغير، فالمواليد

بسبع وجوه، هكذا يقال، بدأ الصغير يمد لسانه ويلعق شفتيه.

- أنت جائع، ما عاش الجوع.

جلست قبالة التلفاز ثانية وهي تحتضن المولود هذه المرة، وأعطته ثديها الأيمن وهي تساعده على التقاطه بشفتيه، وأطالت النظر إليه وهو يحاول المرة تلو الأخرى التقاط الثدي، وما إن بدأ بمصه حتى أغمض عينيه.

- لقد تعبت كثيرًا. ما هذا الفارس الذي يتعب من التقاط رزقه؟

اكتشفت أنها أغفلت قليلاً وكان المولود قد عاد إلى النوم مجددًا. أعادته إلى مهده، وذهبت لتكلم أمها في الهاتف. كانت مشتاقة لأمها ومشتاقة لأختها، وسوف تفعل ما عليها أن تفعله، سوف تكون واقعية، طبعًا! وسوف تحدد علاقتها بأختها السافرة وزوجها غير الملتزم، طبعًا! هذه الأخت التي ليس لها غيرها، ولكن ليس الآن.

الحظّ الثاني

تعالى صوتاهما بالصراخ، لكنها كانت الأعلى صوتًا. لم يكن يهمها كثيرًا اعتباراته المختلفة حول كونهما وسط السوق، أو كون صوت المرأة عورة، أو ما شابه من الأحاديث المأثورة. اضطرت لتذكيره عدة مرات بأنها ليست عبير، أما الغطاء الذي

وضعته على رأسها إكرامًا له بعد أن عقد عليها فقد نزعته ثم أعادته أكثر من مرة أيضًا.

كان البنطال الأسود مع الجاكيت الذي يصل إلى فوق الركبة بقليل يتناسب تمامًا مع قامتها الهيفاء، وكان وجهها تحت الغطاء القرمزي يظهر استدارة متكاملة، وكان النقاش الطويل قد أضاف إلى وجهها ألوانًا فبدت أكثر إشراقًا، تأمل أبو وائل جمالها وهو يردد في نفسه: ترى هل يؤتى حظًّا ثالثًا خلال حياته الفانية؟ هل يخبئ له القدر مفاجأة ربما أجمل من هذه أيضًا؟

- ماذا تريدين بالضبط؟ أنا لا أحب أن أسمع المزيد.
- أريد الطلاق.

لكن هذه الكلمة لم تكن هي ما ينتظره منها الآن. لقد غضب فعلاً. لقد غضب غضبًا لم يستشعره من قبل. هذه المرأة بدأت تستفزه، إنها تحتاج إلى ترويض.

- ما رأيك لو عدت إلى البيت الآن، ونسيت ما قلته للتو؟
- نعم؟ هل تطلب الآن مني أن أخرس وأنهي النقاش؟ لماذا؟ هل أقنعتني أم إنك اقتنعت بكلامي؟
- أعود لأنصحك بالعودة إلى البيت، وبالمناسبة أنا أشتهي أكلة محاشي من هذه اليد الحلوة..

وتناول كفها ووضعها بين كفيه وهو ينظر مباشرة في عينيها ويبتسم ابتسامة عذبة، ما كان منها إلا أن ردتها بنظرة اشمئزاز، وسحبت كفها ببطء حذر. كانت اللحظات تمر لزجة أمام عينيها وعقلها يعمل بسرعة كبيرة دون أن يسعفها بالتصرف المناسب لهذا الموقف، هل تفعل ما يأمرها به وتؤجل هذا الصدام، أم إن الأفضل ألا تتراجع الآن؟

استدارت وخرجت من المكتب واستقبلتها فجأة عتمة السلم، نزلت الدرجات بحركة آلية، وجدت الحارس عند المدخل يتحدث مع سائق التاكسي الذي ينتظرها وهو يدخن سيجارته، وما إن رآها حتى فتح باب السيارة ليدعوها للركوب، ولكنها لم تفعل، بل تجاوزته ومضت في طريقها واختلطت بالمارة؛ مما جعله يرتبك ويركض بسرعة ليخبر سيده بما حصل.

العود أحمد

عاد الزوج إلى البيت في نفس الموعد الذي كان يلتزم به عادة قبل أن يتخذ لنفسه سكرتيرة ليوسع أعماله. تراكض التوأم حوله فرحين، واستقبلته الابنة الكبرى بابتسامة الرضا، أما الولدان فقد خرجا من غرفتهما لتحيته بإجلال وإكبار، وكان يبتسم ويمد يده للثم وهو يبحث بعينيه عنها دون أن يسأل، متوقعًا أن تخرج في أي لحظة من غرفة النوم، وقد منعها من

استقباله انشغالها بالرضيع. طال انتظاره فدخل إلى الغرفة ليجدها فارغة تمامًا، هل هي في الحمام؟

رمى بنفسه على السرير المرتب وأخذ يخلع جوربيه وحذاءه ببطء، وعاد يفكر أنها سوف تخرج من الحمام وبيدها الرضيع، لكن باب الحمام كان مفتوحًا عندما دخل، أنذرت هذه الفكرة بالشر فصرخ بأعلى صوته:

- أين أمكم يا أولاد؟ وائل تعال إلى هنا، أين أمك؟
- ذهبت إلى الدرس.
- وفارس؟ هل أخذته معها؟
- نعم، خافت أن يحتاج إلى الرضاعة.
- ومتى تعود من درسها عادة؟
- لا أعرف.
- كيف لا أعرف؟ ألست رجل البيت في غيابي؟ كيف لا تعرف متى تعود أمك؟ ألم تسألها؟
- لا لم أسألها، هي تذهب إلى درس الدين وتحفظ القرآن مرة في الأسبوع، ولا تغادر هذا البيت أبدًا، إلا إذا دعتنا خالتي وزوجها..
- اسكت يا ولد، هذا يوم المرافعات العالمي، ما هذه اللهجة التي تخاطب بها أباك؟ أهكذا علّمتك أمك؟ ما الداعي لتذكيري بخالتك الآن؟
- أمي لم تفعل شيئًا.

- ماذا تقول يا ولد؟ وماذا تريدها أن تفعل؟
- أنت تركتنا ولم تهتم لأمرنا، ولولا الولادة لبقيت تنام في الخارج معظم الوقت.
- أنام في الخارج؟ أنا أسافر وأتعب لتأمين مصاريف هذا البيت، وابني البكر يقول لي: تنام في الخارج؟!
- أنا أعرف كل شيء، لقد تزوجت واحدة غير أمي.
- أنت تعرف كل شيء إذن، الآن، اسمعني جيدًا، الأطفال أمثالك لا يتدخلون في شؤون الرجال، هذا عيب، وخصوصًا في شؤون آبائهم.
- أنا لم أعد طفلاً.
- اذهب وانظر إلى دموعك في المرآة، وفكر في كلامي على مهلك.

الطلاق

دخل أبو وائل إلى البيت، ونادى على ابنه البكر وجلس ينتظره في غرفة المعيشة.

تراكض التوأم ليسبق وائل إلى النداء، وأخذا يقبلان يد أبيهما الذي كان يبدو في حالة رضا نادرة، فهو لم يمنعهما من تقبيل يده ولم يؤنب وائل لتلكئه في الاستجابة له. أبعد أبو وائل التوأم إلى خارج الغرفة، ثم أغلق الباب وأجلس وائل قبالته ونظر في عينيه قائلاً:

- أمازلت رجل البيت، أم إنك تنحيت عن منصبك مؤخرًا؟
- أنا رجل البيت في غيابك!
- في غيابي. شكرًا على هذا التهذيب. انظر.. بما إنك رجل البيت سوف أعاملك كرجل.

أخرج الأب من جيبه علبة صغيرة للمجوهرات وفتحها، ليظهر منها خاتم ذهبي وأعطاها لوائل:

- هذه لأمك، اذهب وألبسها إياه، وأفهمها بطريقتك بأنني طلقت السكرتيرة.

قفز وائل واقتلع العلبة من يد أبيه:

- أنا أشكرك.. شكرًا يا أبي.
- أنا أعتبرك رجلاً يا وائل.

أمسك بيد أبيه وقبلها.

كان أكثر ما فاجأ عبير عندما أخبرها ابنها بالخبر السعيد نشوة الانتصار في عينيه المراهقتين. وكان أكثر ما أحزنه منها أنها لم تشاركه هذا الانتصار. لقد اكتفت بتأمل الخاتم، ثم خلعته ووضعته في قبضة يدها وهي تحاول بحكم العادة أن تختبر وزنه، ثم أعادته إلى العلبة وأغلقتها ووضعتها على طاولة سريرها الجانبية.

ها هو زوجها قد عاد إليها بدون خسائر تذكر، ويمكنها في أي لحظة أن تخرس الشائعات من حولها وتنفي حدوث

الزواج نهائيًّا، حتى إنها تستطيع أن تقنع أمها وأختها أن زوجها كـان يتعـرض لهجـوم في السـوق مـن منافسـيه للنيـل مـن سمعتـه، وأن قصـة السـكرتيرة أصـلاً غـير حقيقيـة. ولكـن مـا حصـل قـد حصل فعلاً، وهذا الخاتم أمامها يشهد عليه، فما هي القاعدة التي خرقتها لتستحق من أجلها هذا العقاب؟

في وصف مها

يصعب الحديث عن كل الزمان المر الذي عاشته مها، وعن تفاصيله، فهي كثيرة ومتشعبة، هناك أيام الجوع وأيام التشرد، أيام الصقيع وأيام الحر، يمكن القول إنها حياة قاسية وطويلة، مع أن عمر مها الآن، وهي تتسلم ورقة طلاقها من شرطي كئيب، واحد وعشرون عامًا فقط..

الخروج من الجنة

ترجع أولى ذكريات الطفولة إلى قرية بعيدة في الجبال، حيث المدى الواسع والأحراش الخضراء، والشمس التي تهيمن على النهارات الطويلة في الصيف، والحرية اللامحدودة، حيث كان الدجاج يركض في الباحة الداخلية ويعتبر من أفراد العائلة، مثل القطط والكلاب المدللة في المسلسلات الأمريكية، والماعز والخرفان التي لم تكن عائلة مها تمتلكها، ولكنها من مقتنيات الأهالي تعتبر من الأصدقاء أو على الأقل الجيران. كانت مها تعشق الركض وراء الحيوانات المختلفة، وكانت أحيانًا ترافق القطعان على الجبل من الشروق حتى المغيب. مازالت تتذكر

كيف كانت تعود في المساء مع القطيع لتجد أمها في انتظارها وهي تصرخ بها وتدعو الله أن يشقيها أكثر مما هي عليه، وتحاول أن تخيفها علها لا تعيد الكرة قريبًا..

لقد استجاب الرب لدعوات أمها، عندما عاد أبوها في يوم شتائي رمادي مكفهر، وقرر أن يأخذ معه العائلة كلها إلى الشام. لقد أمن سكنًا، وها هي الأم تحزم الممتلكات البسيطة وهي تضحك وتقول:

- وأخيرًا، الحمد لله، لقد تأخرت علينا كثيرًا يا أبا محمد. لم يعد بالضيعة أحد غيرنا.
- لم يعد بالضيعة أحد؟ هه، ومن كل هؤلاء الذين أسمع أصواتهم؟
- إنهم العجائز يا أبا محمد.
- العجائز هه؟ إن كيدهن عظيم. من يوم سكنت أختك في حمص وأنت فقدت عقلك.

كان كل من في البيت متحمسًا للسفر عدا مها. كان عمرها خمس سنوات لكن الكآبة التي شعرت بها تغطي عمرًا بكامله. لم تتمكن كل المواساة التي خصها بها أبوها أن تكفكف دموعها وحسراتها، وكلما لمحتها أمها وهي منكفئة في ركن الغرفة تبكي تصرخ بها:

- هذا كله من دلال أبيك. علام تبكين؟ سوف تفتقدين المعازي والقذارة أليس كذلك؟

ويجيب أبوها:

- هل حقًا تحبين المعازي؟ أنت مثل جدتك، كانت تبيتها معها في نفس الغرفة أيام الصقيع.

كان أبوها يأتي إليهم كل ثلاثة أو أربعة شهور، وكان يغادر في كل زيارة منتصرًا، فإما تبشره أمها بأنها حامل، أو أنه يحضر ولادة أحد أخواتها. كان عددهم في تلك الحقبة أربعة، محمد وعليّ، ثم هي وأختها الصغرى سلمى.

كانت خيبة أملها القصوى عندما وصلوا إلى الشام، وعندما وقعت عيناها لأول مرة على الغرفة التي شغلتها مع أمها وأبيها وإخوتها الأربعة في بيت قديم في حارة ضيقة وقذرة. كانوا يتشاركون مع عائلتين في استعمال الحمام، وكان المطبخ مشتركًا أيضًا. وكانت أمها غالبًا ما تعطي دورها لمن يطلبه، أما هي فقد أمضت سنتين في البيت تطارد القطط وتصطدم مع مالك المنزل، كان تارة يتهمها بتهريب أكله من المطبخ لإطعام القطط. وتارة بتوسيخ أرض الديار، وهو لا أكل لديه في المطبخ، وأرض الديار قذرة، موحلة شتاءً، مغبرة صيفًا. أما القطط المسكينة فكانت تأكل وجبة من فتات الخبز كلما حنت عليها مها بها. ذهب محمد وعليّ إلى المدرسة فور وصولهم إلى دمشق. أما الأب فقد استأنف عمله في إحدى الدوائر الحكومية، وكان عمله غير محدد تمامًا، أحيانًا كان يأتي إلى البيت مساءً وهو يحمل لهم فروجًا مشويًا، فيركض عليٌّ إلى

الحمصاني ويأتي بصحن حمص كبير، وإذا سألوه ما سبب هذه الوليمة يقول وهو يبتسم:

- رزقـة وجاءتنـا، احمـدوا الله، اصـبروا، الآتي سـيكون أحسن.

لم يفقـد أبوهـا إيمانـه بالمسـتقبل ولا لحظـة، كـان واثقًـا بنفسـه، وكـان يعرف أنـه سيرتقي بعائلتـه إلى أعلـى الـدرجات. وأعلى الدرجات تبدأ بأدناها، فها هو استقرَّ في دمشق، وابتدأ نشاطه الحزبي بحماسة المؤمن الصادق. كان صادقًا في معتقده وصادقًا في انتمائه، وكانت أهدافه واضحة وغير قابلة للجدل. وعلى الرغم من شهادته المتواضعة، فقد كان ذا ثقافة واسعة وإدراك كافٍ للظروف من حوله. كان منفتحًا على مجتمعه، ويتعامل مع محيطه ببساطة وإيجابية لا يتوانى عن تعميقها كلما ضاقت به الظروف. وكانت مها تراقبه، وكان إعجابها به يختلط مع مشاعر المحبة والفخر بالنفس التي كانت تشع منه.

كـبرت مهـا وفي داخلهـا عـالم أبيهـا المشـمس. ولكـن الشمس سرعان ما غطتها الغيوم عندما بدأت مها تعي شيئًا فشيئًا المجتمع الـذي يحيط بها، في الحـارة، كانـت تشـعر أنها غريبة، كان نسوة الجيران يتقبلن أمها على أنها القادمة الجديدة من الضيعة، كن يقدمن لها النصائح باستمرار، وكانت تطبقها حرفيًّـا، مغيظـة مهـا الصـغيرة، ومتحديـة رغباتهـا في معظـم الأوقات، وعندما كانت الأم تشتكيها للأب المتعب، في آخر

النهار، كان يضحك طويلاً وهو يقول: "لا أصدق أنك لا تستطيعين احتواء طفلة في الخامسة، كبري عقلك يا امرأة، ما هذا؟!".

حادثة القطة

ظهرت القطة ذات الدائرة السوداء حول العين اليسرى فجأة في باحة الدار بعد غياب أيام. كانت مها واقفة على الشباك تراقب الباحة بكسلٍ وتقضم كعكة، فلمحتها وقفزت حافية القدمين إلى الخارج. اقتربت مها بهدوء منها ومدت يديها لالتقاطها، لكن القطة أحست بها فهربت وهي تنظر إلى الخلف وصعدت الدرجات الثلاث باتجاه غرفة استقبال أم هيثم زوجة مالك البيت. كانت الغرفة تتصدر البيت وترتفع عن الباحة بدرجاتها الثلاث، وكانت مفخرة أم هيثم حيث تستقبل ضيفاتها الأكابر.

انعطفت القطة وقفزت إلى الشباك ومشت على طول طرفه البارز، وهي تتبختر وتنظر إلى مها وهي تطاردها. وأخيرًا قررت النجاة بنفسها فتسلَّقت شجرة النارنج، كانت قطة وليدة خفيفة الحركة ولم تعتد بعد على اللعب مع أمها، قفزت من الشجرة ووجدت نفسها على الدرج المفضي إلى السطوح. راقبتها مها بأسف وهي تبتعد، ثم تذكرت الكعكة في يدها فقضمت منها قضمة أخرى، وعادت لتقعد تحت شباك المجلس

حيث تناهت إلى سمعها لأول مرة أصوات نسائية مختلطة تصدر عنه.

كان الصغيران نائمين، وكانت أمها قد ذهبت إلى الطبيب مع أبيها منذ الصباح الباكر، وأوصتها أن تعتني بأختها وأخيها الوليد. أخذت مها تستمع بهدوء إلى ثرثرة النسوة.

- تصوري، الوليد لا يعرف ما هو الحمام بعد. منذ عودتها من المستشفى للولادة وهو ملقى في ركن الغرفة على الأرض، أصبح عمره شهرين ونصف، بماذا أصف لك رائحته؟ إيخ...
- يا أم هيثم، والله لقد أعطيتها كيسًا من برش الصابون من عندي لتغسل به ثياب أبنائها، قلت لها: الدنيا دفا، اغسلي الثياب في الليل تجديها في الصباح قد جفت، على أمل أن تغير لهم ثيابهم التي عليهم منذ شهور.
- ومن قال إنها تستعمل الحمام هي وزوجها؟ ها هي تتبرع بدورها لجاراتها دون أن تطلبن منها ذلك، طبيعي فهي لا تحتاج إليه إلا مرة كل شهر..
- هذا ما عدا العفريتة الصغيرة مها..

انتفضت مها عندما سمعت اسمها وأدركت أن الحديث يدور عنهم.

- ... والله إن الوسخ على يديها وركبتيها يحتاج إلى فرك بحجز الخفان...

تعالت الضحكات..

- ماذا تقولين؟ يجب نقعها بالكلور قبل البدء بالفرك...

تعالت الضحكات ثانية...

اسودت الدنيا بعينيها، وشعرت بالرغبة في البكاء فورًا. ظل الإحساس الذي اكتنفها في هذه اللحظة يلازمها طوال عمرها، كان يشبه طعم العلقم تحت لسانها، ويدعو صدرها إلى الانقباض وعينيها إلى البكاء. ومع مرور الزمن بدأت تخنق في نفسها الرغبة بالبكاء، وحولت الشعور إلى لا مبالاة وحقد لا تدري ضد من توجهه.

التخطيط للمستقبل

انتظمت مها في مدرسة الحي بعد أن دخلت في سنتها السابعة، كانت تجربة قاسية ولذيذة في نفس الوقت.

في اليوم الأول رافقها أبوها وكانت خائفة ومتوجسة، تعلقت بيده بوحشية عندما حاول تركها أمام الباب، فدخل معها إلى ساحة المدرسة، ثم صعد برفقتها إلى غرفة الإدارة. طرق الباب وهي مازالت تضغط على يده، ودخل وسلم بهدوء على سيدة وقورة كانت تجلس وراء مكتبها.

حاولـت مهـا أن تركـز في الحـديث الـذي دار بينهـا وبينـه، فلـم تسـتطع مـن التـوتر، ولكنهـا التقطـت تعبـير الاشمئزاز الـذي ارتسـم على وجه المديرة، وتعـابير التملـق الـتي فاضـت مـن وجـه أبيهـا. وبـدأت تخفـف مـن ضـغطها على كفـه. كانـت تريـد أن تخرج من الغرفة وتخرج أباها من هذا الموقف.

وعنـدما أصبحا في سـاحة المدرسـة ثانيـة، أفلتـت مـن يـده وركضــت باتجــاه إحــدى المدرســات الــتي كانــت تنــادي علــى طالبـات الصـف الأول. وعنـدما حـاول اللحـاق بها لوداعهـا، لوحت له بيدها وأفهمته أن يتركها وشأنها. دخلت غرفة الصف وجلست في المقعد الأول مباشرة مواجه مكتـب المدرّسة. نظرت إلى الطالبـات، معظمهـن تحبسـن الـدموع في أعيـنهن، فشـعرت أنهـا قويـة. عنـدما بـدأت المعلمـة بإعطـاء التوجيهـات المختلفـة استوعبت أنها تعرف كل ذلك مسبقًا.

ثم بدأت المعلمة تطرح الأسئلة الشخصية على الطالبات ورفعت مها إصبعها وأجابت، ودخلت في ريتم جديد أبعدها عن شعورها الدائم بالغربة والنقص.

ولم يمـض اليـوم الأول حـتى عـادت إلى البيـت وقـد وضـعت خططًا لليوم التالي، ومرت الأيام الدراسية وكبرت ثقتها بنفسـها. كانـت طاعـة الأوامـر وكتابـة الوظـائف وحفـظ الـدروس ثمنًـا بخسًـا لكل هذا الفخر الـذي يملؤها عندما تمتدحها المعلمة أمام مجموعة من أربعين بنتًا لا تستطيع إحداهن أن تعترض بكلمة.

وعلى الرغم من مريولها الذي لم يكن يومًا بالنظافة المطلوبة، وحذائها المهترئ وحقيبتها الموروثة عن أخيها، فقد ظلّت طوال السنوات الأربعة الأولى التلميذة المتفوقة التي تطلب رضاها بقية البنات.

لكن الأمور سرعان ما بدأت تتغير عندما كبرت البنات وصرن ينظرن إليها بعين مختلفة. أصبحت كل واحدة منهن أشبه بأم هيثم والجارات. صارت بقع المريول حديثهن المفضل، والحذاء هدفًا لنظراتهن المتهكمة. وحتى المطاط الذي تربط به شعرها كان على ما يبدو غير لائق في نظرهن. وكانت مها حائرة تمامًا، فمحاولة إرضائهن بتحسين مظهرها الخارجي كانت مستحيلة أحيانًا، كان غسيل المريول الوحيد وكيه كل أسبوع يتعبها ويتطلب استعارة المكواة من الجيران، وكان تنظيف الحذاء غير مجد؛ لأنه أصبح فعلاً مهترئًا، وكانت تعرف أن أباها عاجز عن شراء حذاء جديد كل ستة أشهر، أما شعرها فقد كانت محاولة ترويضه مستحيلة لكثافته. أما مطالبة أمها بشراء محابس وشرائط جديدة لشعرها فهي غير ممكنة أبدًا؛ فالأم المسكينة غارقة في متابعة أعبائها اليومية، وأخواها الكبيران أصبحا متعبين، الكبير قد بدأ بالتدخين وهو مازال في الصف التاسع، والصغير أخذ يرسب، وكانا غالبًا ما يهربان سويًّا من المدرسة، ويعودان آخر النهار متعبين يطالبان بوجبة دسمة.

أما الصغيران فكانا يستهلكان كل الطاقة المتبقية لدى الأم المرهقة، يعبثان في البيت، فتطردهما إلى الحارة فيقرعان الأجراس ويهربان. يضربان الأطفال الأصغر سنًّا ويشتمان الأكبر. يسرقان الكرة من مجموعة تلعب ويخبئانها داخل الغرفة التي أتخمت بالأغراض على مر خمس سنوات، فيأتي آباؤهم أو أمهاتهم ليشتكوا عند الأم التي لم تعد تدري كيف تتصرف.

بداية واعدة

في المرحلة اللاحقة اختلفت الظروف شيئًا فشيئًا؛ لأن محمدًا استطاع الحصول على شهادته الإعدادية وانخرط في الجيش، وأصبح صف ضابط ثم صار شخصية مرموقة فجأة، بعد أن عمل في رفقة أحد رجال الأمن المشهورين. أما عليٌّ فكان يحاول إتمام شهادته الثانوية بإلحاح من الأب، في الوقت الذي كانت عينه على حياة أخيه.

انتقلت العائلة للسكن في شقة في مجمع خارج المدينة، كان الانتقال نقطة تحول في حياة مها، حيث شعرت أنها يمكن أن تبدأ حياتها من هنا وتنسى كل همومها السابقة. فالمدرسة التي التحقت بها ضمت مجموعة من الطالبات الجديدات مثلها، قدمت نفسها إليهن بمظهرها النظيف وبيتها النظيف وظروفها التي تشبه ظروفهن.

في الشرفة المطلة على الشارع الذي لم يكن قد زُفّت بعد، كانت مها تجلس مع أبيها عصر كل يوم تقريبًا. كانت الشرفة فخر المنزل كله، فهي الفسحة السماوية التي بدأت تذكرها بالضيعة، وهي ملجؤها عندما تضيق بها الدنيا، تجلس على الزاوية البعيدة وتسرح في الأفق، وفي ذلك الوقت كان الأفق مفتوحًا؛ لأن البناء كان يقف وحده وسط الخلاء، منتظرًا أن يلحق به المد السكني قريبًا عندما سيصل عدد سكان العاصمة إلى خمسة ملايين. كانت أحاديث أبيها عن المستقبل المشرق لهذه الأمة في ظل النظام السياسي مرسومة في هذا الأفق، والحكايات التي يرويها عن الحرب المجيدة وعن المناضلين تعرض أمامها مثل شريط مصوَّر، وبطولات العمال الذين قاوموا الظلم والفلاحين الذين ثاروا على الإقطاع، تجسد أمام عينيها انتصارًا حقيقيًّا لهذا الزمان الجميل.

وكادت في عمرها الحادي عشر أن تطمئن لهذا الشعور بالأمن والرضا، كان كلام أبيها غير قابل للنقد، حتى بينها وبين نفسها. كانت تتخيل أحيانًا أنها ابنة العامل الذي يعتد بكرامته ويدافع عن حقوقه ثم يحصل عليها، على الرغم من أنها لم تكن تعلم ما هو عمل أبيها بالضبط. وأحيانًا تتخيل أنها أخت البطلين اللذين سيحرران فلسطين، على الرغم من أن محمدًا وعليًّا ينامان كل ليلة في البيت.

وكانت الدروس التي تتلقاها في المدرسة تعزز إحساسها بالفخر وشعورها بأنها تعيش لحظات الأمة التاريخية.

نهاية سريعة

عادت مها إلى البيت بعد ظُهر أحد أيام الثلاثاء لتجد حركة غير عادية في الشارع المقفر عادة، نظرت طويلاً إلى السيارة التي يقودها أخوها، وهي متوقفة، وراء المقود شاب غريب، صعدت الدرجات العشرين حتى البيت في الطابق الثاني وهي متوجسة، وجدت الباب الخارجي مفتوحًا وسمعت نحيب أمها من الداخل، فكرت بسرعة، لابد أن الجدة قد توفيت في الضيعة، انقبض قلبها، بدأت تبكي وهي تدفع بيدها خالتها التي اقتربت منها لتحضنها، وركضت نحو أمها وبدأت تقبلها وهي لا تدري ما الذي يجب أن تقوله أو تفعله. كان أخواها يحيطان بأمها وينتحبان بصمت. بحثت عن أبيها بعينيها، فهو الذي سيفهمها ويستوعب حزنها، وبدا لها غيابه غريبًا وسط هذا المشهد.

- أين بابا؟

وارتفعت إيقاع النحيب عندما تلفظت بهذه العبارة، وعادت خالتها تحاول أن تحميها وتخرجها من الغرفة.

مات الأب قبل أن يصبح عمره خمسين عامًا، سكت قلبه فجأة وهو جالس وراء مكتبه في الإدارة التي يعمل بها، ومرت نصف ساعة قبل أن يكتشف الساعي أنه مات، فقد كان يظنه يأخذ قيلولة صغيرة اعتاد أن يفعلها؛ لأنه كان يسهر كثيرًا في الليل.

رافقت مها الموكب الذي حمل جثمانه إلى الضيعة، راقبت جموع الرجال والنساء الذين دخلوا بيت جدها لتقديم العزاء، وشاركت جدتها وأمها الحزن والنحيب بصمت، سمعت أحاديث عن الموت والحياة والبعث، لم تفهم معظمها ولكنها لم تكن تحتمل فكرة أن تكون على قيد الحياة في أي مكان دون وجود أبيها إلى جانبها، بل إنها أخذت تحقد عليه لأنه اختفى هكذا من حياتها وتركها.

وعندما عادت إلى دمشق، لم يكن البيت هو نفسه، ولا المدينة هي نفسها، ولا الحياة هي نفسها.

نهاية النهاية

ماتت أمها بعد سنتين، وتركت أولادها الخمسة لمصيرهم. كانت مها في الثالثة عشرة، وللمرة الثانية خلال سنتين رافقت الموكب الذي حمل جثمان أمها إلى الضيعة البعيدة، لكنها هذه المرة لم تكن تبكي؛ لأن سلمى وريال الأخ الأصغر كانا يراقبانها ويقلدان ما تفعله. وعندما انتهت مراسم الدفن والعزاء، انتحت بجدتها جانبًا ورجتها أن تبقيها وإخوتها معها. بكت الجدة التي أرهقها مرور السنين، وكادت تقول لها إنها سوف تنتهي قريبًا، ولكنها أشفقت عليها. حاولت مها كثيرًا أن تقنعها بمرافقتها إلى الشام لتسكن معهم، ولكن النظرات في عينيها أقنعتها باستحالة ذلك.

وعادت مها مرة أخرى إلى البيت، وهي تجر أخوين صغيرين، ورافقتها ابنة عمها "أسمى" لتعيش معهم. كانت سيدة في الثلاثين تقريبًا، تزوجت باكرًا وفقدت زوجها. كانت مها تكرهها ولكن إلحاح الجدة أجبرها على تقبل هذه الترتيبات الجديدة لحياة لم تكن تعرف كيف تلحق بها ومتى. عند دخولها إلى البيت اتجهت أسمى مباشرة إلى غرفة النوم الرئيسية ورمت بقجة الملابس على السرير، وهي تكاد لا تستطيع منع ابتسامة من الارتسام على طرف فمها. لحقت مها بها وقالت: "هذه غرفتي مع الطفلين، اخرجي منها فورًا".

أجابت بدهشة حقيقية: "ماذا؟ وأين ترغبين أن أنام؟".

ردت مها: "في المكان الذي يحلو لك".

رفعت أسمى صوتها قليلاً: ماذا؟ هل تظنين أنني أتيت لأعمل خادمة في هذا البيت؟".

- لا أدري ماذا أتيت لتفعلي في هذا البيت!
- أتيت لأنني بمثابة أم لك ولإخوتك! أنا أحبكم وأريد أن أخدمكم دون مقابل، وأنت بدأت بالجحود من أول ثانية!
- اسمعيني جيدًا، أنا لست بحاجة أحد ليخدمني أو يخدم إخوتي، إذا أردت مشاركتنا البيت، اجلسي بأدبك، وإلا غادري فورًا، لا أحد يحل مكان أمي!

وهكـذا بـدأت أولى فصـول حكايـة لـن تنتهـي، أسمـى المظلومة تبكي وتنشج، مها الظالمة تشعر برغبة شديدة بالخروج من موقف سخيف، وأخيرًا علي الذي يتدخل فيراضي الأولى وينظر إلى الثانية نظرات من يتفهم الموقف جيدًا، وغالبًا ما ينتهي به الأمر أن يعانقها بعينين دامعتين.

عاشت الأسرة من راتب ضئيل تركه الأب، وتطوع علي في الجيش، فشلت مها بإقناعه بالعدول عن قراره، أخذت تذكره بإرادة أبيه تارة وبالمستقبل الذي ينتظر خريجي الجامعات تارة أخرى، ولكن ضيق الحال وعدم تمكنه المرة تلو المرة من اجتياز امتحان الثانوية العامة، دفعاه إلى أن يحذو حذو أخيه، وخصوصًا أن محمدًا لم يعد يهتم بأمرهم، وكان يبيت في الخارج معظم الليالي، ثم تزوج فجأة بفتاة أحبها وانتقل للعيش في بيت مستقل. تمكنت مها من الحصول على الشهادة الإعدادية بسهولة، ومضت الأيام سريعة ووجدت نفسها تتابع دراستها وتراقب إخوتها وتراقب أسمى أكثر. كانت إحداهما تتجنب الأخرى معظم الوقت، وشيئًا فشيئًا بدأت مقاليد الأمور تنتقل إلى يد أسمى، فهي التي تملك الوقت للقيام بأعباء المنزل، وبدأ مركز مها بالتراجع، كان طريقها إلى المدرسة الثانوية بعيدًا، واستذكار الدروس في البيت يتطلب جهدًا ووقتًا، وبعد أن أنهت سنتها الدراسية العاشرة بصعوبة، وبدأت عطلتها الصيفية، أخذت تتنبه إلى أن أسمى صارت هي ربة البيت،

وعنـدما عـاد علـيٌّ لقضــاء إجـازة قصـيرة بيـنهم شـعرت بأنـه يتعـاطف مـع أسمـى، كانـت خيبـات أملهـا المتتاليـة تقودهـا إلى استنتاج مـا سـيحدث بعـد هـذه النظـرات والهمسـات المتبادلـة بينهمـا، ولكنهـا في كـل مـرة كانـت تبعـد الفكـرة مـن ذهنهـا لشـناعتها، أسمـى في الثلاثـين وعلـي في العشـرين، ولا يمكـن أن يتقاربـا أكثـر، ربمـا يشـعر علـي بالامتنـان لأنهـا ترعـى البيـت وتعتني بـالأولاد، نعـم، ربمـا، ولكـن لا، يجـب ألا يخونهـا الحـدس السـليم وعليهـا أن تتـدارك الأمـور قبـل أن تسـتفحل، وقـررت الانتقال إلى الضيعة لقضاء العطلة كما كانت تفعل كل صيف، وبدأت تحزم الحقيبة وهي تفكر أنها بحاجة إلى ملابس صيفية، والأطفـال أيضًـا، ولكـن المـال لـيس متـوفرًا. دخلـت أسمـى إلى الغرفة وأخـذت تراقبهـا مـن طـرف خفـي، ثم قالـت لهـا بصـوت خافت:

- هل أنهيت حزم حقيبتك؟
- لا، أنا لن أذهب معكم.
- ماذا تقولين الآن؟ بالله عليك، أنهي ما عليك بسرعة، لقـد وعـدني محمـد أن يـأتي ليأخـذنا بسـيارته، وهـو لا يطيق الانتظار.
- أنا لن أذهب. سوف أنتظر عودة علي ونأتي سويًّا إلى الضيعة.

التفتت مها إليها وهي ترمقها باحتقار وغضب:

- ما عليك من علي، هيا اركضي واحزمي حقائبك ولا تجعليني أصرخ وأفقد أعصابي.
- لا أستطيع. هو الذي طلب مني ذلك!
- ها، نعم... هذه نغمة جديدة! ولم يطلب منك علي انتظار عودته؟
- ليأخذني إلى الطبيب.
- هل أنت مريضة الآن؟
- لا.. ليس بالضبط. ولكن تعرفين، لا أخفي عليك، أنت كبيرة وواعية. أنا حامل.
- حا.. مل؟ ماذا تخرفين الآن؟
- أنا حامل يا مها، حاولي أن تفهميني!
- ...

الإشراك

اكتملت دائرة العقاب حولها، ها هي أبشع كوابيسها تتحقق أمام عينيها، فمنذ أن صارت أسمى زوجة أخيها لم يعد لها مكان في البيت. كان علي ملتزمًا بمصاريف العائلة ولا يزال، ولكن ليس لديه ما يقدمه أكثر مما يكسبه من راتبه المتواضع. أما محمد فكان يحاول أن يمد لهم بعض العون، ولكنه مرتبط بزوجة وولدين ومصروف حياة أعلى بكثير من دخله، ولم تكن مها تفكر إلا باتجاه اجتباز امتحان

الثانوية العامة، وكأن هذا الامتحان سينقلها إلى حياة أخرى مختلفة.

كان بلكون الشقة هو ملاذها الوحيد، تهرب إليه لتشعر بقليل من الخصوصية في هذا البيت الذي أصبح يضيق بساكنيه، في قيظ الصيف أو في زمهرير الشتاء. كانت تجلس في أقصى ركن منه متربعة على الأرض سارحة في السماء فوقها، أو تحشر نفسها على زاوية السور الحديدي الأسود ناظرة إلى المدى أمامها، كانت الهضبة قد بدأت تمتلئ بالعمارات العشوائية، وكان صوت طرق الأزاميل في النهار جزءًا من ضجيج الحياة اليومية، هذا الصوت الذي علمها أبوها أن تحبه لأنه كما كان يروي لها صوت البناء وصوت التقدم. لقد تعلمت أن تحبه لأنه يذكّرها بأبيها، ولكن الغبار الذي يثيره تطاير الرمال من مخلفات البناء، وهذه العمارات الرمادية القميئة التي لا تكاد تقف على ارتفاعها حتى تسكن ويخرج من طاقاتها المختلفة أنابيب مياه مكشوفة، أو أنابيب تدفئة تنفث إلى السماء هبابها الأسود، وهذه الثياب المعلقة على الشرفات بألوان بالية لا تبشر بالتقدم الذي تنبأ به الأب الغالي. فإذا فرضنا أنه يمكن أن يعود يومًا من الطريق الذي لا يعود منه أحد، وينظر ويرى ما آلت إليه أمور البيت وأمور البلد، فما الذي كان سيقوله ويفعله؟ كانت مها تفكر أن البيت لم يعد مجاله يتسع لها، أما البلد فقد تمكن منه أشخاص يختلفون كثيرًا

عمّا كان يصفه لها أبوها. إن العمال والفلاحين – أبطال قصصه الخيالية – الذين يمسكون بزمام الأمور، ويقسمون الأموال بين الناس كل بحسب حاجته، ويخزنون فائض الإنتاج والأموال ليدافعوا به عن بلادهم ويصدوا عنها العدوان، والأبطال الذين يحرسون الحدود ويقدمون دمهم رخيصًا فداء للآخرين، لم يعد لهم وجود. كل العمال الذين التقتهم كانوا منهكين لاهثين وراء لقمتهم، وكل الفلاحين الذين التقتهم كانوا حاقدين على الزمن والمواسم وسوء التوزيع. أما أبطال الحدود فقد كانوا معنيين بأمور أخرى داخل الحدود، لم يعد هناك حروب وإنما مواجهات دامية في الداخل مع أعداء النظام، ولقد اختلطت عليها الأمور كثيرًا في تحليل ما يحدث، ولكنها حتى ذلك الوقت كانت تعتبر أن النظام يمثلها ويعمل لمصلحتها، وسوف تصبح الأحوال أفضل بكثير لولا تدخل أعداء النظام. أم إن هناك أمورًا لا تعرفها لم يشرحها لها أبوها، ولم تقرأ عنها في المدرسة؟

الكفر

وفي زاوية البلكون العتيدة، باحت لها سلمى ذات الستة عشر عامًا بحبها لابن خالتها، واتفاقها معه على الزواج. كان اليوم ربيعيًا دافئًا وكانت بضع عشيبات خضر قد نبتت في أماكن متفرقة من الأرض البور المحيطة بالبناء، نتيجة هطول

المطر في الليلة السابقة وسطوع الشمس اليوم. كان الهواء يحمل رائحة الجبال البعيدة وبرودة القمم الثلجية التي لم يصل إليها أحد. ولم تعد مها تدري لِمَ ملأ الحبور قلبها وهي تستمع إلى قصة حب تعيشها أختها الصغرى.

لم يكن ابن الخالة ماهر هو الشاب الذي تحلم به الفتيات، كان قصيرًا وبدينًا، وكان فقيرًا مثلهم، ومازالت سلمى صغيرة على الزواج.

حاولت مها أن تلعب مع أختها دور الأم الذي طالما مارسته ولكنه لم يناسبها، فهي تكبر أختها بسنتين فقط، ولم يكن لها صديقة غيرها. تمكنت منها عاطفتها وأخذتا تتضاحكان معًا على تفاصيلَ تافهة. وعرفت مها أنها ستفتقد أختها الوحيدة؛ فماهر يعيش في حمص وهي لن تغادر دمشق إلا إلى الضيعة.

عندما كان ماهر وسلمى يلتقيان في الصيف في الضيعة ماذا كانت تفعل؟ كيف غابت الأخت الصغرى عن عينيها الحارستين؟ وكيف أصبحت سلمى فجأة شابة تخطط لعائلة صغيرة؟ لماذا لم تحلم مها بعائلة صغيرة مثلها ومثل كل البنات؟

بدأت مها تستوعب جمال شكلها الخارجي منذ أن دخلت مرحلة المراهقة، كانت قد بدأت تخطف الأنظار حيثما اتجهت، فقد طالت قامتها، وتحول شعرها الذي عذبها كثيرًا في

طفولتها إلى أسطورة بلونه الفاحم وكثافته وطوله، وصارت بشرتها التي ورثتها عن أبيها حليبية نقية تتلون بألوان زهرية مختلفة عندما تبدأ بالتعبير. كان من الصعب أن تمرّ دون ملاحظة في أي مكان، وكانت قد كسرت قلوب عدد من الشبان في الضيعة وفي الجوار، دون أن تشعر بأي تأنيب ضمير، كان شعورها الطبيعي هو أن تفاهتهم قادتهم إلى ذلك، أما الحب الذي تتحدث عنه أختها فهو لعبة الصغار.

لماذا لم يخفق قلبها حتى الآن؟ بماذا انشغلت طوال هذه الأيام التي كانت أسمى فيها تلهو مع علي؟ وأختها الصغرى تفكر بماهر؟ ماهر؟ شقة صغيرة في حمص؟ مع خالتها وأبنائها وبناتها؟ ثم شقة أصغر فيما بعد عندما تتحسن الأحوال ويتمكن ماهر من فتح بيت مستقل؟ وظيفة حكومية في مؤسسة زراعية؟ هذا أقصى ما ستحصل عليه سلمى من هذا الزواج. ولكن سلمى لا تتقن الحساب. لحسن الحظ أنها ستحسب خطواتها جيدًا وهذه الطريقة في العيش لن تكون أبدًا طريقتها هي. فليتخذ كل واحد طريقه. لن تكون مسؤولة عن ذرية أبيها. يكفيها ما عانته حتى الآن.

لقد اضطرت وعمرها ست سنوات فقط أن تحمل سلمى ذات الأربع سنوات وأن تساعدها على ارتداء ثيابها، وغيرت حفائض ريال بنفس العمر تقريبًا، ولقد أعطته الدواء وقامت

بتغسيلها وهي في عمر الثامنة، وكانت مسؤولة عنهما تمامًا في كل فترات طفولتها ومراهقتها. وعندما دخلت أسمى إلى البيت لم تسمح لها بالاعتناء بهما. لقد اشترت لهما الدفاتر والأقلام والملابس الداخلية، ودافعت عن مصالحهما بشراسة في المدرسة وفي الشارع، سوف تبقى وراء سلمى لتقنعها بإنهاء دراستها الثانوية.

أما ربال فقد أصبح يافعًا في السنة الإعدادية الأولى، وهو يشبهها بطول قامته وبياض بشرته وذكائه، وكانت تشعر في قرارة نفسها أنه سيكون تعيسًا مثلها، فهو لم يكن يقبل النصح ولا يرضى المساعدة. وكان يفرض منزلته في البيت، وفي المدرسة وفي الشارع. وعندما تزوج علي من أسمى لم يسمح لهما بشغل غرفة النوم الرئيسية المتنازع عليها في البيت. لقد تخلى لهما عن غرفته، ونقل سلمى ومها إلى غرفة النوم الرئيسية، وصار يشغل الكنبة الكبيرة في غرفة الجلوس. وهو يأمر أسمى بأن تأخذ الوليد الذي لا يكف عن الصراخ وتدخل إلى غرفتها ليتمكن من إنهاء واجباته المنزلية، ويأمر سلمى بأن تختصر أحاديثها على الهاتف. وهو الذي اكتشف علاقتها بماهر وأجبرهما على إعلان خطوبتهما أمام كل العائلة أثناء العطلة الصيفية التي نالت فيها مها شهادتها الثانوية.

المواجهة

في ذلك الصيف الذي يبدو اليوم بعيدًا، نالت مها شهادتها الثانوية، ولم تفرح بنجاحها المنقوص، فقد حسبت لنفسها نتائج أفضل مما حققته، ولم يسعفها الحظ في هذه أيضًا. وبدأت تنفذ ما خططت له طويلاً. سجلت في الجامعة واختارت أن تدرس الحقوق، أو أن الحقوق هو الفرع الذي اختارها؛ لأن معدل درجاتها لم يؤهلها لارتياد الكليات المدللة. وفي إحدى الأمسيات الصيفية الدافئة توجهت إلى بيت أخيها محمد، كان البناء الذي أخذت عنوانه من علي على عجل يتلون بألوان الغروب، وكانت الشرفات أنيقة والمدخل نظيفًا، وشعرت بالرهبة وهي تخطو داخل السور الحديدي ومنه إلى الدرج الذي ساده سكون مريح. لكنها تجاوزت هذا الشعور وبدأت تركز في المهمة التي أتت من أجلها، وصلت إلى الطابق الرابع.. مازال أمامها درجان إلى السطوح الذي استولى عليه أخوها بطريقة ما، وبنى عليه شقته على عجل، وصار من ساكني هذا الحي الراقي. دقت الجرس، ثم رأت خيالاً وراء العين السحرية سرعان ما اختفى وبدأت بعدها فترة من الانتظار الطويل، تخللها صوت جرس الهاتف ثم خبطة سماعة الهاتف مع ما يرافقها من صدى، قدرت أن الهاتف لا بد أن يكون وراء مدخل الشقة مباشرة، ومرت نصف ساعة طويلة، أمضتها في

دق الجرس ودراسة باب البيت وطلاء السقف، وكان وجهها هادئًا مثل تفكيرها، لأنها كانت تعرف مسبقًا أن زوجة أخيها تحرم عليها زيارتها، وكانت هذه قاعدة متبعة لدى كل العائلة، عدا بعض الاستثناءات التي حدثت رغم إرادتهم، مثل اليوم الذي تعرضت فيه سلمى لحادث واضطر علي للمرور على أخيه ليلاً واستدانة ألفي ليرة، واليوم الذي تعب فيه محمد وطلب أخاه ليقضي له بعض حوائج البيت الملحة.

لم يكن أمام مها خيار آخر غير الانتظار، فليس لدى محمد مكان عمل يمكن الاجتماع معه فيه، وهو لا يرد على مكالماتهم، ولا يزورهم إلا في الأعياد، والعيد مازال بعيدًا جدًّا. أخيرًا، قررت الجلوس على الدرجات النازلة بحيث يصبح الانتظار أقل وجعًا، وأخذت تسلي نفسها بالتفرج من نافذة بيت الدرج على واجهة البناء المقابل، كانت شرفة البيت محملة بأصص فيها نباتات كثيفة، وكانت خادمة أنيقة المظهر تنظف الأرض، ثم قامت بمسح حواف الشرفة والكراسي التي يظهر بروفيلها الجانبي، ثم نقلت أدوات التنظيف إلى الداخل وعادت بغطاء ملون ومخدات للكراسي، ثم اختفت لتظهر سيدة شابة تجلس على الكرسي المحاذي للحافة، وهي تنظر إلى الأفق البعيد نظرات خطيرة، وعادت الخادمة بعد قليل بفنجان القهوة وكوب من الماء وعلبة معدنية لم تتبين على البعد ما يوجد بداخلها، ووضعتها أمام السيدة التي لم تغير اتجاه رأسها،

ولم تتحــرك إلا بعــد أن ابتعــدت الخادمــة إلى الــداخل مــرة أخرى.

اجتاح مها حنين لم تعرف له تفسيرًا، وكأن هذه الخادمة وهذه السيدة بطلتان في فيلم سينمائي، لقد أخذها المشهد إلى مكان آخر وزمن آخر، وصحت فجأة على صوت صرير الباب وهـو يفـتح بـبطء شـديد، يبـدو أن زوجـة أخيهـا ظنتهـا قـد انصرفت بعد أن غابت عن ساحة نظر العين السحرية ففتحت لتتأكد، التفتت مها إليها من مجلسها في أعلى الدرج وظهر لها قبقـاب خشبـي بسـير زهـري اللـون يكسـوه الـريش، ثم سـاقان نحيلتان وكأنهما قوس، ثم قميص نوم زهري على قبته ريش أيضًا ثم وجه زوجة أخيها، بشعرها المنكوش على الموضة مع شريطة زهرية لإبعاد هيجانه عن ساحة الوجه.

- أغلقي الباب وعودي إلى الداخل، سوف أنتظر أخي هنا حتى يعود من عمله.

سمعـت صـوت حشـرجة قبـل أن ينطلـق صـوت زوجـة أخيها:

- تفضلي... أنا كنت في الحمام ولم أسمع الجرس.
- لا، لن أدخل، سوف أنتظر هنا، المكان لا بأس به.
- قد يتأخر محمد في العمل.
- لا يهم. حتى لو عاد بعد غد. أنا جالسة هنا، تصرفي وكأنني غير موجودة.

- هل تحاولين اختلاق مشكلة هنا أمام باب بيتي؟ أنا لا أسمح بذلك!
- ...
- أنت.. هناك... ألا تسمعيني؟ أنا أخاطبك.
- ...

كانت مها قد أدارت رأسها، وعادت إلى وضعية التأمل السابقة على فتح الباب. وكانت السيدة على الشرفة المقابلة قد بدأت بارتشاف قهوتها بهدوء مازالت تفكر بالأمور الخطيرة، سمعت مها وقع خطوات القبقاب الزهري على بلاط الدرج وهي تقترب منها، وكانت تفكر فيما سوف تفعله زوجة أخيها بها، إنه حقًّا موقف محرج! جعلتها الفكرة تبتسم، كانت زوجة أخيها غاضبة جدًّا وعندما وصلت قربها انتفضت مها واقفة، واكتشفت أنها بالكاد تتجاوزها بالطول مع أنها معتمرة قبقابا عالي الكعب، ومع أن مها تقف على أسفل درجتين منها. ويبدو أن وقوفها المفاجئ أرعبها فقد تراجعت إلى الوراء مذعورة.

- ليس الأمر بيدي يا زوجة أخي الغالية... لا أحتمل دخول بيتك! لا أستطيع.. الرحمة مطلوبة... وأنا إنسان من لحم ودم كما ترين، مهما كان رأيك في شخصيتي ومستواي، صدقيني.. لا أقوى على الدخول.

كانت مها تحدق في عيني زوجة أخيها، وقد لاحظت أن الكراهية التي كانت تغلف ملامحها قد تحولت إلى حنق يشبه الرعب ممتزج بدهشة، كان وجهها كاريكاتوريًا للغاية، ومع ذلك أمسكت عن الضحك مراعاة للموقف.

بدأت زوجة الأخ بالارتجاف، وعلا صوتها أكثر:

- أنا لا أصدق ما أسمعه! هل تريدين القول إنك لا تحتملين دخول بيتي أنا؟ أنا؟ وأنا أدعوك للدخول؟
- نعم، هذا ما أقوله بالضبط، إذا أردت الحقيقة فصوتك عالٍ جدًا، وقد يسمعنا الجيران ويخرج أحدهم ليراني واقفة هنا، معك... ماذا سيكون موقفك؟
- هل تتحديني؟ أنا لا أخاف من الجيران، ولا أخاف من أحد، هل سمعتني جيدًا؟
- أنا أسمعك بوضوح، بل يمكنك أن تخفضي صوتك قليلاً.
- أنت بنت وقحة.
- ...
- وقليلة التهذيب.
- ...
- ولم أتخيل أنني سأواجه في حياتي إنسانة بهذه النذالة والحقارة، ماذا تريدين مني بالضبط؟ هل أتيت

إلى هنــا لتخربــي بيــتي الصــغير الــذي بنيتــه بعرقــي ودموعي؟

- أنصـحك أن تخفضـي صـوتك، أسمـع أشخاصًـا علـى الدرج.

- ما أبرد دمك! من أنت لتنصحيني يا بنت الشوارع؟

- ...

كانــت زوجــة أخيهــا في حالــة هســتيرية، لم تشــعر مهــا بوصـول الأخ الغـالي حـتى رأتـه يقـف في أسـفل الشـاحط وهـو يضع يده على فمه مشيرًا عليهما بالصـمت ووجهه قد أعمـاه الغضـب، ولم تفهـم معـنى حركتـه حـتى رأت الرجـل الـذي كـان يتبعه وميزت على أكتافه عددًا من النجوم التي تشير إلى مرتبته العسـكرية؛ فركضـت الزوجـة إلى الـداخل لتغـير ثيابهـا وبقيـت مهـا وحـدها، وجهًـا لوجـه مـع القـادمين، فمـا كـان مـن أخيهـا إلا أن قــدمها للرجــل وهــو يحــاول تغيــير الموقــف ويصــطنع الابتسام:

- أختي الكبرى مها.

- معلمنا الرائد سليمان. تفضلوا.. تفضلوا.

ركـض أخوهـا إلى الـداخل وهـو يفسـح للقـادم الكبـير، أمـا معلمنا فتراجع ليفسح لمها المجال للدخول، ويفسح لنفسه المجال لتأمـل سـاقيها اللتـين أبـرز الجينـز الضـيق استقامتهما وطولهمـا وشعرها الذي انهدل بخصلة واحدة وصل طولها إلى العجز.

الاستقلال

كان وجود معلمنا ضربة موفقة ونادرة من ضربات الحظ، لم تحظ مها بمثلها إلا قليلاً في حياتها، وكان إعجابه بها موضع اعتزاز الأخ ودهشته، وصار ينظر إلى أخته وكأنه يراها لأول مرة في حياته، أما مها فقد عرفت أن طلبها سيتحقق على التو واللحظة.

- يا آنسة مها.. ماذا تدرسين؟
- لقد سجلت في كلية الحقوق، ولكنني بحاجة للعمل، وضعنا في البيت صعب.
- ماذا؟ لم يكلمني محمد عن ذلك، الظروف الصعبة يا آنسة مها انسيها، صارت من الماضي. قولي لي فقط ما هي طلباتك.
- أشكرك، طلبي هو أن أتوظف لأصرف على نفسي وأكمل شهادتي الجامعية.
- اعتبري نفسك توظفت من الآن، وبراتب لم يحلم به أبوك.

قطبت مها عندما ذكر أبيها.

- آنسة مها.. أنا أمزح فقط.
- أعرف، ولكن المرحوم كانت أحلامه أكبر مما تتخيل أنت.

تدخل محمد وقال:

- تأدبي يا مها مع المعلم، من فضلك اعذرها، صغيرة، لا تعرف أن تتعامل مع الكبار.
- أرى أنها تتعامل معي بما أستحقه. اطلب أبا وائل على الهاتف. لقد خطرت لي فكرة.

عندما عاد محمد بجهاز الهاتف، دخلت وراءه زوجته وقد وضعت عليها كل ثيابها، وكان شعرها منكوشًا أكثر من قبل، وكانت تحمل صينية قهوة جديدة وعليها ثلاثة فناجين، لم تقدر مها لمن سوف تتوزع، ترى هل ستعطيها واحدًا، أم إنها لا تستحق هذه الضيافة؟ ولكن معلمنا حسم السؤال وقدم لها فورًا الفنجان الذي أعطته إياه مضيفته، فتناولته وهي تشكره بابتسامة عذبة، وكان للقهوة طعم العسل تحت لسانها، شربتها حتى آخر رشفة، ونسيت أنها لم تحاول تذوق القهوة من قبل، بالإضافة لعدم توفرها في منزلهم لدواعٍ اقتصادية.

- ألو، أبو وائل؟
- ...
- نعم، وأنا كذلك اشتقت لك، وفكِّر ماذا حضرت لك؟ مفاجأة..
- ...
- نعم أعرف أنك تحب مفاجآتي، لقد عينت لك سكرتيرة لتساعدك في أعمالك، براتب ثلاثة آلاف ليرة. ما رأيك؟

- ...
- الأمر لا يحتاج أي تفكير، لقد عينتها، غدًا تكون عندك، الساعة الثامنة صباحًا.
- ...
- إذن تنتظرك من الثامنة حتى تأتي، متى يفتح البواب المكتب؟
- ...
- التاسعة، حسنًا، موعدنا في التاسعة.
- ...
- لا، ولكن سأكون متواجدًا دائمًا، عند اللزوم، أنت تعرف كثرة مشاغلي.
- ...
- الله معك.

كان تأثير المكالمة على محمد صاعقًا، كان متأثرًا ومدهوشًا وخائفًا في آنٍ واحد، وابتدر قائلاً:

- يا معلم، مها لا تعرف شيئًا عن العمل، لقد نالت لتوها شهادتها الثانوية! ثلاثة آلاف؟ كيف قبل بذلك؟
- يجب أن يدفع ثمن أن يتصبح بهذا الوجه كل يوم، ثم أنه يعرف مع أي شريك يتعامل. آنسة مها، وأنا أكلمك الآن جديًا. هذا العمل الذي وكلتك به هو

عمل خاص بي. أنت تقبضين الراتب من هناك، ولكنك تعملين معي، ستكونين عيني التي أرى بها وأذني التي أسمع بها في المكتب، هل أحتاج أن أوضح لك أكثر؟

- لقد فهمت كل شيء، اختبرني وسوف ترى.
- إذن اتفقنا. وها هو محمد أمامك، في أي وقت تحتاجين أن تعلميني بأي شيء، هو موجود وجاهز.
- أنا أفضل أن أعلمك مباشرة.

كان للجملة الأخيرة وقع الصاعقة على الجميع، محمد الذي لا يستطيع حاليًا أن يتدخل تلون وجهه، المعلم ابتسم ابتسامة المنتصرين، وصمت ليأخذ وقته في التفكير، أما الزوجة فقد تدخلت لأول مرة لتقول بلهجة عذبة:

- لا يا مها، لا يا حبيبتي، هناك أصول في التعامل بين الناس، أنت صبية وصغيرة وأخوك سوف يشرح لك.

والتفتت إلى المعلم:

- أعذرها يا معلم، نحن نشرح لها فيما بعد.
- إذن، اشرحوا لها على راحتكم، أنا أستأذن الآن، أعطني الأمانة يا محمد كي أمشي.
- حاضر سيدي، سأعود حالًا.
- وأنت يا مها، أستودعك - وبصوت منخفض - أنا أتصل بك، لا تقلقي.

الانطلاق

كان العمل في المكتب بدائيًّا، ويبدو أن الصفقات التي أنجزت على عهدها كانت من أولى الأعمال التي تشارك فيها أبو وائل مع المعلم، ومن أضخمها في سجله التجاري. كان روتين العمل يجري في سياق واحد، تدفع مبالغ عن طريق البواب لمسؤولين أو موظفين، تقل أو تكثر حسب أهمية الصفقة، ثم يأتي وقت توقيع العقود ودفع قيمة البضائع، ثم إعلام الجهة المباعة إليها بوصولها واستلام قيمتها مع الأرباح، أي إنه عمل وساطة لا ضرورة لها بين الحكومة والجهة المشترية للمواد، وكانت هذه المواد تندرج في مجال واسع لا يمكن حصره أو تصنيفه، فمن مواد أولية للبناء أو للمصانع تستورد من الخارج حتى الحبوب والمنتجات الزراعية المنتجة محليًّا، وأحيانًا، وحسب حاجة السوق أجهزة كهربائية وقطع غيار.. لم يكن هناك حدود للأرباح وللرخاء الذي وفرته هذه الشراكة المباركة التي ارتبطت بدخول مها إلى المكتب، والتي كان أبو وائل يرجو ألا تنتهي بخروجها منه.

وبدا جيدًا أن خبرة مها من العمل بالسكرتارية سوف تتلخص بالاهتمام بمظهرها، ونقل ما يجري داخل المكتب للمعلم. وهذا ما فعلته بإخلاص وأمانة تامّين.

ولم تكد تمضي ثلاثة أشهر حتى عرض أبو وائل عليها الزواج على سنة الله ورسوله؛ لأن ضميره الديني كان

يؤرقه منذ أن التقت عيناه بها في أول يوم دخلت فيه على المكتب.

وكان الزواج بها هو المخرج من أزمته مع المعلم، فقد فرض عليه مظهرًا لا يليق به في السوق، وهو لا يستطيع أن يرفض طلبه، والبنت شابة وجميلة وذكية، وهو غير معتاد أن تراقب حركاته وسكناته في عمله.

أما مها فلم يكن العرض مفاجأة لها أبدًا، لقد جاء في السياق الطبيعي لتفكير هذا الرجل، كانت نظراته التي تلاحقها كيفما تحركت تلسعها وتثير اشمئزازها، وكان منطقه وكلامه وتصرفاته مع كل من حوله توحي لها بأنه سيقوم بحركة متخلفة مثل عرض الزواج هذا.

الموعد الدامي

أصبح الوضع الآن يحتاج إلى قليل من الحنكة؛ فعرض الزواج كان مغريًا، ولكنه لن يروق للمعلم الذي ينظر إلى مها بعين الاستحواذ، مع أنه متزوج من ابنة مسؤول كبير، وهو لا يستطيع بأي حال من الأحوال أن يرتبط بها، وهي من ناحيتها قد أوفت بكل التزاماتها نحو علاقة العمل، وسوف تفي بأي التزامات مستقبلية مطلوبة منها.

فكرت مها بهدوء ثم طلبت موعدًا من المعلم لمناقشة "قضية طارئة"، كان المعلم قد بدأ يأخذ كل كلامها على محمل

جدي، ولذا فقد دلها فورًا على مطعم قريب من بيتها، وواعدها بعد "ساعة بالضبط من الآن" كما قال لها على الهاتف.

وهكذا وجدت نفسها تضع عليها أول معطف قيم لبسته في حياتها، وكان هدية عاد بها أبو وائل الأسبوع السابق من بيروت، ولبست حذاءها ذا الساق المرتفع، ونظرت إلى نفسها في المرآة وشعرت أنها مستعدة للخروج في هذا الليل، وفي هذا البرد، لمواجهة أي شيء في هذه الحياة. أحست بالقوة التي كانت تفتقدها في ثيابها القديمة. وبعد أن تفحصت شعرها، قررت أن ترتبه في خصلة واحدة وتخفيه تحت ياقة المعطف الجديد، وتناولت لفحة وغطت بها رقبتها، وجزءًا من رأسها، اتقاء لبرد الليلة الشتوية.

وعندما واجهت هواء الشارع اللاذع، قررت أن تتجه إلى المطعم مشيًا، لتتحدى الصقيع الذي طالما تحداها سابقًا وأجبرها على اللجوء إلى مداخل العمارات، وأحيانًا إلى استهلاك آخر مدخراتها واستعمال المواصلات القذرة.

وكالعادة وصلت إلى الموعد باكرًا، وجلست على إحدى الطاولات في الركن مقابل الباب، وأخذت تلتقط أنفاسها، ثم بدأ دفء الداخل يتسرب إليها فخلعت المعطف آسفة، وتمنت لو أن المعلم رآها وهي تلبسه، ثم بدأت تركز فيما جاءت من أجله، وقاطع النادل لمرتين أفكارها وهو يسألها:

- يا آنسة، هل تأمرين بشيء؟
- لا، أنا أنتظر شخصًا.

ومر الوقت ببطء شديد، وعاد النادل يسألها، فطلبت فنجانًا من الشاي. عندما اقتربت الساعة من العاشرة، قررت أن تعود إلى المنزل وتحاول أن تعرف ماذا حصل. لم يسبق للمعلم أن خالف لها موعدًا.

انقبض صدرها وهي تقترب من الحي، وعاودها الشعور بالقلق الذي رافق كل أيام حياتها. لماذا تقلق الآن؟ لقد بدأت تشعر بالأمان، وكان لإعجاب المعلم بها طعم العسل تحت أسنانها، ولم يعد ينقصها المال ولا الثقة، عادت لها السيادة في البيت، وضمن العائلة، وصارت زوجة محمد تزورها وكأنها صديقتها الحميمة، لماذا تقلق الآن؟

وعندما رأت سيارة عسكرية تقف أمام باب العمارة، عرفت أن قلقها في محله، كان علي يركب في المقعد الخلفي عندما فاجأته وأمسكت بكتفه، التفت إليها مذعورًا، وقال:

- تعالي، لتبقي مع زوجة أخيك.
- ماذا حصل؟
- إنه في المستشفى، تعرض موكب المعلم لهجوم من انتحاريين، ولكن المعلم لم يكن موجودًا..

- انتحـــاريين؟ هـــل بقـــي مـــن أخيـــك شـــيء؟ أي مستشفى؟!
- لا أدري يا مها، لقد استدعوني، وأرسل المعلم هذه السيارة، وقال لي إنه في المستشفى..
- سأذهب معك.
- لا، سأوصلك إلى بيت أخيك.
- سأذهب معك، زوجة أخيك لا تطيق رؤيتي، وعندها أهلها، سأذهب معك.

كان المعلم بانتظار علي في مكتب في ثكنة عسكرية، وأغضبه حضور مها لأوّل وهلة، لكنه سرعان ما استجمع شجاعته وأبلغهما بمقتل أخيهما، فقد علي أعصابه واتخذ لنفسه كرسيًّا بجانب الباب، وبدأ بالنشيج بصوت منخفض، أما مها فقد قالت للمعلم:

- حمدًا لله على سلامتك.
- أنا لا أصدق أنك تقولين لي هذا، أنا أتمنى أن أخطفك وأذهب بك بعيدًا، في مكان لا يسكنه أحد. آنا آسف.. اعذريني.. الوقت غير مناسب.. ولكني متأثر، لا أدري ماذا أفعل.. أنا معجب ببرودة أعصابك.
- الأمر أنه كان ممكن أن تقتلا معًا.. ولكنك نجوت، الحمد لله. ماذا كنت تريدني أن أقول؟

اغتيال المشاعر

كان مقتل محمد مفاجئًا ومأساويًّا، ولكنه ليس استثنائيًّا في تلك الأيام القاسية من حياة سوريا السياسية. كانت أخبار الاغتيالات والهجمات الانتحارية التي يشنها الإخوان المسلمون ضد شخصيات تمثل السلطة السياسية والعسكرية تتناقلها الألسن كل يوم. وأن تطال المأساة عائلة مها لم يكن بالنسبة لها استثنائيًّا بالمثل، فإذا كانت قد فقدت أباها ثم أمها، وتزوج أخوها الأصغر قريبته التي تكبره بعشر سنوات، وأنجب طفله الأول وهو لا يملك ما يسد به رمقه، فلم لا يقتل الأخ الذي استطاع أن يخرج من النحس ويصنع له مكانًا متواضعًا تحت الشمس؟

خرجت مها من الحداد بمزاج أكثر عدوانية، ولم تكن تعرف ضد من توجه حقدها.. ضد المعلم لأنه لم يقتل في الحادث وهو المقصود؟ وهو الوجه الوحيد الإيجابي في حياتها!

ضد الإخوان المسلمين؟ ولكن من هم فعليًّا؟ هل يمثلهم أبو وائل بتعليماته المقدسة التي يرددها ليل نهار؟ ولكنه شريك المعلم وشريك السلطة!

على من تحقد؟ على زوجة أخيها التي نقص طولها فجأة بعد موته، وكأنه كان هو المقصود بالأحذية ذات الكعوب التي تتجاوز العشر سنتيمترات.

ضد سلمى التي لم تقبل إرجاء موعد العرس حتى الصيف، بدعوى أن ماهرًا قد أصبح جاهزًا؟ ولكن ماهر لن يكون جاهزًا لشيء ولو انتظرته عشر سنوات!

ضد الوليد الذي لم يتوقف عن الصراخ منذ ولد؟ ومن يلومه إذا صرخ؟ إنه الوحيد الذي يستوعب ما جرى وما سيجري!

اللعنة على كل شيء!

كان أبو وائل يلاحقها بموضوع الزواج بشكل يومي، ولم تجد بدًّا من أخذ موعد من المعلم لإطلاعه على الأمر. جاء رد فعله أقوى مما حلمت أن يكون، لقد رأت شفتيه ترتجفان، وعينيه تتجمدان، وهو يتابع روايتها، ثم بادرها بسؤال عن موقفها من الأمر، وعندما قالت له بأنها تفكر، صرخ في وجهها:

- لا، لا.. أنا لا أقبل أن أرميك لهذا المتخلف، ولو خلت الدنيا من الرجال.
- هذا المتخلف يعرض عليَّ أن أصبح سيدة نفسي، و...
- تصبحين زوجة ثانية لرجل متزوج يكبرك بأكثر من عشرين عامًا، وعنده نصف دزينة من الأولاد! هذا لن يجعلك سيدة نفسك بحال من الأحوال...
- بلى.. إذا فرضت عليه شروطًا.

- وأي شروط يا مها؟
- ما ينقصني... المال.
- أنا أعطيك ما تريدين...
- مقابل ماذا؟
- بدون مقابل.
- لا أقبل بشيء بدون مقابل.
- لا يمكنني أن أرتبط بك.
- أعرف.
- ولكني، أحبك.
- أعرف.
- أعرف.. أعرف.. فقط؟
- أنا لا أملك إلا جسدي.
- وتتاجرين به؟ للأسف!
- اسمع، أنا سأفعل ما سأفعله، وأنا مسؤولة عن تصرفاتي، هل ستقف إلى جانبي أم ستتخلى عني؟
- منذ التقيتك، صرت أنظر إلى الأمور بعينيك، لم أعد أميز مصلحتي من مصلحتك. ومازلت تفاجئيني كل يوم، تطلبين مني أن أقف إلى جانبك لتتزوجي؟
- نعم، ليس لي غيرك.

- آه... ستقضي عليَّ في نهاية الأمر، لا تقولي ليس لي غيرك، كم أشعر بالضعف!
- أنت قوي، أنت تشبهني، لم نتقارب إلا لأننا نتشابه، لن أسمح لك بأن ترتكب خطأً يهز صورتك أمام عائلتك، أنت بحاجة للوقت لكي تصبح أقوى، قف معي ولا تتخل عني.
- اذهبي الآن.. سأتصل بك!

السّبات

تزوجت مها في الربيع، وسافرت مع أبي وائل إلى تركيا، مر عليها الأسبوع الأول مثل حلم غريب، ثياب جديدة، مجوهرات، مطار، فندق، ولم يكن ينبهها من الحلم سوى وجود أبي وائل إلى جانبها.

بدأ الانزعاج الفعلي من أول ثانية كتب فيها الكتاب وأصبحت زوجته الشرعية. كان رجلاً مسيطرًا بعقل نصف أمي، مع القدرة على تبني أسخف المعتقدات بمجرد سماعه بها، وكأنه ينتظرها. كان يعشق الملذات ولكنه في نفس الوقت يخاف من الانخراط فيها. كان لكل شيء عنده ضابط، وهذا الضابط يخضع لنظام داخلي صارم. كانت عنده قائمة محرمات لم تسمع بها من قبل، كلها تتعلق بها. وأخيرًا كان شرطه الوحيد لإتمام الزواج أن تلبس الحجاب،

وهـذا مـا فعلتـه دون أي مقاومـة، ولكـن الشـروط توالـت بعدها.

ومع ذلك فقد مر الأسبوع الأول بشكل مثالي، لأنها كانت مأخوذة بجو السفر الذي لم تعرفه من قبل. وأجلت المشاكل لأنها آتية، آتية. كانت الصفقة واضحة في ذهنها: البيت الذي اشتراه لها، والبقية الباقية مما ستحصله من الزواج، بعض المجوهرات والثياب. ولكن التخطيط كان أسهل بكثير من التنفيذ.

كان يلاحقها بالهاتف، عندما تكون وحدها في البيت، ويحاول أن يمنعها من زيارة أهلها، وصار الاتصال بالمعلم شبه مستحيل. أما الأعمال المنزلية فقد كان يتابعها بدقة: تفتيش على النظافة، انتقاد الطعام بدقة تجعله يفخر بنفسه، مراقبة الجيران لضمان أمن البيت. وهناك فقرة مطولة للنصح والإرشاد تتضمن تعاليم دينية وتعليمات موروثة، إذا اتبعتها تصبح سيدة منزل محترمة وتحتفظ بزوجها أطول فترة ممكنة.

ولقد نجح في الأشهر الأولى في إحكام قبضته عليها؛ فصارت تقضي معظم وقتها في البيت إرضاء لحاجاته المتعددة وتعلمت الطبخ، وكانت نتيجة ذلك أنها رسبت لأول مرة في حياتها. كانت معاشرته قد بدأت تمتص حماسها للحياة، فعندما تعود إلى البيت في المساء وتقوم بما عليها من الأعمال المنزلية، تشعر بالحاجة إلى النوم والاسترخاء. وبدأت تستمتع

بوحدتها، فتسهر في الليل مسترخية أمام التلفزيون وهي تأكل المكسرات، وتنام على الكنبة، محتفظة بكل أنوار البيت مضاءة. وعندما تستفيق في الصباح تتذكر سهرتها وتبتسم. ما أجمل الوحدة.. والحرية!

في البداية لم يشكل البيت الثاني أي تحد أو حتى فضول، كان شعار حياتها المضي قدمًا، دون حساب ولا ندم، حتى التقت بعبير في المكتب ذات يوم، فعبير، بسمنتها واستدارة وجهها، بالمفاجأة التي تجمدت في عينيها الخضراوين عندما رأتها، بالرعونة التي تصرفت بها والضعف الذي اعتراها، صارت كابوسًا يتبدى لها في كل مناسبة.

أحيانًا كانت تمثل لها تاريخ التعاسة الأنثوية الطويل، وذلك حين تستعرض في ذهنها كيف مرضت وكيف جالت عيناها في المكتب الذي كانت تراه لأول مرة، وكيف كانت تعابير وجهها تتساءل عن سبب وجود مها في هذا المكان، وعندما قادها البواب إلى البيت دون أن تجد جوابًا عن أي من أسئلتها، وكأنها حيوان فضولي هارب من قفصه وتواجد في مكان ليس له. وأحيانًا أخرى كانت تتخيلها جالسة إلى جانب أبي وائل عندما يتصل بها من بيته للاطمئنان عليها، وهي تتنصت على المكالمة ضاحكة معه مستمتعة بفحولته. أو تتخيلها جالسة على طاولة العشاء وهي تطلب من الأطفال السكوت لأن بابا يكلم شخصية مهمة. ثم أخذت هذه

الهواجس تؤرقها تمامًا وصارت لا تطيق أن ترد على الهاتف عندما يرن وهي وحدها في البيت.

كيف سمحت عبير لنفسها أن تكون الزوجة المغدورة؟ وكيف بقيت الأمور على حالها بينها وبين زوجها بعد أن عرفت بزواجه الثاني؟ ومتى عرفت؟ بعد أن زارته في المكتب؟ أو بعد ذلك؟

وعندما ولدت عبير الفارس الهمام، صارت شخصية أبي وائل كاريكاتورية تمامًا، كان ذلك في آخر أيام السنة وكان الطقس صقيعًا كما تكرهه مها بالضبط، وولد الفارس الذي ارتقبه أبو وائل على ما يبدو طويلاً، وأخبر مها وهو لا يكاد يخفي غبطته، وأخذ يثبت نظره في عينيها محاولاً أن يتلمس مشاعرها الحقيقية، وبذكائه الفطري اكتشف أنها بدأت تغار من ضرتها، فارتاح تمامًا لهذا الشعور، وأخذ يعاملها على أساس عقدتها التي سببها حمل ضرتها، وافترض أنها يجب أن تبذل جهدًا مضاعفًا لإرضائه من الآن فصاعدًا.

ومع هذا التطور الجديد، بدأت مها تتصرف على أساس عقدته الرجولية وأخذت لنفسها مساحة أكبر من الحرية التي حرمت منها في الفترة الأولى من الزواج، وتمكنت من مقابلة المعلم عدة مرات، عندما أعطى أبو وائل لنفسه إجازة الولادة، بل لقد نسخت لنفسها كل العقود التي وقعها أبو وائل في عهدها للاستفادة منها لاحقًا، من يدري؟

حرية

في مطعم راقٍ جدًّا. كانت تنتظرها طاولة تشرف على مساحة واسعة من أحد الأحياء الهادئة وسط دمشق، دلها النادل عليها وهو متوتر خشية أن يرتكب أي غلطة تعرضه لتأنيب صاحب المطعم، فلقد كانت التوصية سميكة، ويبدو أن الزبون شخصية خطرة. جلست مها، وخلعت حجابها، ثم بدأت تنفض خصلات شعرها بكل الاتجاهات لتعيد تكوينه الطبيعي بعد أن هرسه الغطاء المشدود حول رأسها بإحكام.

قبل أن تترك المكتب، تأكدت عن طريق الهاتف أن أبا وائل سوف يقضي يومًا آخر بجانب زوجته ووليده، وقد أوحت له بمدى انزعاجها واحتياجها له، ثم طلبت منه أن تذهب بعد المكتب لزيارة بيت أخيها، وهذا ما وافق عليه على مضض.

دخل المعلم وسط همهمة بعض الرواد الذين خمنوا صفته من الرجلين اللذين كانا يلحقان به مثل ظله، وهما يرمقان الناس بنظرات الشك والاتهام، واتجه مباشرة إلى طاولتها وهو يخفي ابتسامة طفل صغير، شعرت مها بعاطفة قوية لم تكن تشعر بها من قبل عندما كانت تراه، وبدأت تنظر إليه بعين جديدة.

كان وجهه مكتمل الرجولة، بعينين عسليَّتين تبرقان بين الفينة والفينة لتوكيد الكلام، وشاربان مشذبان يعلوان فمًا اعتاد على إلقاء الأوامر. ومع أنه ليس طويلاً كمرافقيه، فإن بنية جسده كانت توحي بالقوة والضخامة.

لقد نشأت مها محاطة بأب وأعمام وسيمين، وكان محمد قبل أن يقتل لافتًا بجماله الأنظار أينما وجد، وهي لم تصطدم بقبح ذكوري قبل أن تلقى أبا وائل، وفي الحقيقة كانت تشعر وهي معه أنها تضحي على كافة المستويات من أجل بناء مستقبل مقبول لنفسها. وها هي الآن تبدأ بتفعيل خطوة جديدة للانطلاق نحو هذا المستقبل.

- أريد أن أتطلق.
- لا... قولي لي إن العجوز يضايقك!
- ليس تمامًا، ولكن الوقت قد حان.

ضحك المعلم ضحكة رنت لها أرجاء القاعة الصغيرة.

- هذه هي مها التي أعرفها، لا أحد يخمن ماذا ستفعل بعد ذلك!
- لا تقل إنك لن تساعدني!
- يا بنت! هل أنا قاض شرعي؟ مأذون مثل الذي نراه في الأفلام المصرية؟ ألا تخشين من تسلطي وغضبي؟ ألا تعرفين من أنا؟

أسندت مها وجهها إلى كفيها وهي تنظر مباشرة إلى عينيه، لا لم يكن يخيفها، في الحقيقة لا شيء يخيفها... سوى العودة إلى الوراء.

- أعرف من أنت، ولذا أطلب المساعدة دائمًا، وقل لي عندما آخذ أكثر من حقي منك.

- ولك حقوق عليّ يا مها؟
- أنا أحبك.
- مها، عندما رأيتك أول مرة... حسنًا... كيف أقول ذلك؟ بعد أن تزوجت العجوز، لم يعد يحق لك الكلام عن الحب.
- لم يتغير شيء بعد أن تزوجت.. مازلت أحبك.
- أثبتي ذلك.
- ...
- لماذا سكت الكلام المباح؟ أثبتي ذلك.. هل تعرفين معنى الحب؟
- هل تعرفه أنت؟
- ...
- أنا أحبك، إذا كنت تشعر بي، فلست بحاجة لإثبات أي شيء.

انتفض المعلم وهو ينظر إليها محاولاً استيعاب ما تقوله.

- هل انتهينا من الغداء؟
- انتهينا.
- هيا معي إذن.

خرجت مها مع المعلم وهما يمشيان جنبًا إلى جنب، وعندما ركبا في السيارة، اقترب أحد المرافقين من نافذة المعلم، فقال له:

- اذهبا إلى المكتب، أنا أحتاج سيارتكما، لا تلحقا بي، هذه مهمة سرية.
- يا معلم، رجاءً، دعنا نرافقك من بعيد.
- سمعت ما قلته أم لا؟

وعندما أقلع بالسيارة، قالت مها:

- عندي فكرة.. تعال إلى بيتي.

المستقبل

كان طلاقها من أبي وائل سريعًا، ولم تتسن لها فرصة الاطلاع على تفاصيل الأمور التشريعية والتنفيذية في هذه العملية كما كانت تخطط؛ فقد تولى سليمان الأمر جاعلاً منه صفقة لصالحها ضمن الصفقات التي يعقدها مع أبي وائل في مكتبه، طالبًا منها عدم التدخل، مانعًا إياها حتى من مواجهة زوجها.

جاء الطلاق غيابيًّا تمامًا، حتى إنها أبلغت به رسميًّا من قبل رجل أمن مستضعف جاء يدق على باب بيتها في أحد أيام الربيع التالي.

صار البيت ملكها، وصار لها الخيار في عملها الحكومي الذي أمنه لها سليمان، أن تذهب إلى الدوام أو لا تذهب، لكنها، وفي آخر أيام الشهر، كانت تقبض راتبها المتواضع بانتظام.

انتقل ربال أخوها الأصغر ليعيش إلى جانبها، وتعلقت به بعاطفة لم تشعر بها تجاه أحد من أفراد عائلتها. كانت تارة ترى في عينيه عيني أبيها، وتارة تذكّرها نبرة صوته بأخيها محمد الذي رحل باكرًا، وأحيانًا أخرى تتخيله يحقق طموحات لم يبلغها أحد من قبل، ثم تعود إلى دراستها التي استأنفتها بعد الطلاق بزخم لم تعرفه من قبل.

صار القانون يستحوذ على شغفها واهتمامها، وهي التي خبرت جيدًا أن القانون مفصل على قياس من لديه السيطرة عليه.

وصار حبها لسليمان محور حياتها الجديدة، كان علاقة مشبوبة، تجمع فيها كل ما تملكه من عواطف كبتت منذ الطفولة الأولى.

لقد أحست من اللحظة التي قررت فيها إطلاق العنان لمشاعرها أنها بدأت تعيش بالطريقة التي تعجبها، كان الاستماع إلى همومه انعتاقًا، والاحتفاظ بأسراره انعتاقًا، وسرد ذكرياتها المؤلمة على أذنيه المصغيتين باهتمام انعتاقًا، وجاء الحب الجسدي في النهاية انعتاقًا من كل قيم المجتمع الذي لم يستوعبها.

كانا يلتقيان في بيت ريفي خارج دمشق، بانتظام أحيانًا ووفقًا للظروف أحيانًا أخرى.

وأصبحت حاجتها للاجتماع به بمرور الوقت تزداد إلحاحًا، ثم بدأت هذه الحاجة تخيفها وأخذت تفكر بالخلاص

مـن هـذا الاسـتحواذ الـذي يقيـدها، ثم عـادت وقـررت أنها غـير قـادرة علـى التحـرر مـن عاطفتهـا نحـوه ومـن حاجتهـا إلى حمايته.

وبعـد عـدة تجـارب مـن الجـذب والنبـذ، صـارت العلاقـة مثالية، تربطهمـا، ولا تقيدهما، وتحول الحـب الجسدي المشبوب إلى صداقة حميمة لا يقف في طريقها شيء.

ووجـد سـليمان نفسـه بعـد سـنتين، يواجـه زوجتـه وأباهـا المسـؤول الكبـير مـدافعًا عـن حبـه الـبريء كمـا كـان يصـر علـى تسميته.

قتل متعمد

لم يكـن شـهر تشرين الثاني شـهرها المفضـل، كانـت هبات الهواء البارد الأولى توحي لها بأفكار سوداوية عن نهاية الكون. بـدأت السـنة الجامعيـة الثالثـة بـانقلاب فظيـع علـى الطقـس الخريفي الحزين.

في الصباح، كانـت الريـاح تعصـف مثيرة القلق، ثم خبـت فجـأة وسـاد سـكون حـذر، كانـت السـماء صـافية تعبـث فيهـا شمس لئيمة لا تبعث الدفء، بل تلون الأشياء بالأصفر وكأنها تسخر منها. كان الصداع يملأ رأسها بأفكار شيطانية، حاولت في طريقهـا إلى الكليـة أن تحـدد شـعورها ولكنهـا لم تـتمكن مـن ذلـك. عنـد البوابـة الحديديـة لمحـت بـائع الصـحف يتأملهـا نـاقلاً

عينيـه علـى طـول قامتهـا، ممسـكًا شـفته السـفلى بـين الإبهـام والسـبابة كمـا يفعـل مـع جميـع الطالبـات، فتراجعـت، وواجهتـه قائلة:

- هل تعرفني؟
- عفوًا... ماذا تريدين؟
- أريد أن أقلع عينيك هاتين!
- ماذا؟ هل أنت مجنونة؟
- نعـم... تحديقك بـي لا يعجبني، وأريـد اليوم أن أنـتقم منك، ما رأيك؟

بدأ البائع يصرخ بصوت هستيري:

- إلي يا ناس، بنت مجنونة تتحرش بي!

التفتت مها حولها لتجد أن عدد الأشخاص الذين تجمعوا خـلال ثـوانٍ تجـاوز العشـرة، شـعرت بـالحنق والضـعف ولكنهـا صرخت به:

- اعتذر أمام كل هؤلاء، هيا اخرج من كشكك الحقير واعتذر وإلا فلن يمض نهارك هذا.
- لم أفعل شيئًا يا ناس.. أنا كنت..

صمت الصوت فجأة عندما ظهر شاب وفرق المجتمعين بيديـه وبنظراتـه القاسـية، ثم أخـرج رجـل الصـحف مـن كشـكه بالقوة ممسكًا به من ياقة القميص، ثم تركه أمام مها وجهًا لوجه ووجدته يتمتم:

- أنا آسف.. لم أقصد الإساءة إليك.
- قصدت الإساءة للأخريات فقط؟
- لم أكن أعرف من أنت.

ازداد حنق مها وهي تترك الرجلين وتكمل سيرها إلى داخل حرم الجامعة، وسط دهشة الناس ونظراتهم المتسائلة: من هي حقًّا؟

إذن فلقد نصب سليمان لها ملاكًا حارسًا، ويجب أن تعترف لنفسها بأنها صارت من حريمه، وبدأت الفكرة تكبر في رأسها وهي جالسة تستمع للمحاضرة الأولى، وأخذت تتخيل لحظات الحب العظيمة التي عاشتها معه، كانت وهمًا عظيمًا، ماذا يسمي رجل الأمن الذي دافع عنها قبل قليل نفسه؟ "مرافق عشيقة المعلم"؟

أصبح سليمان اسمًا كبيرًا اليوم، كان الناس يتكلمون عنه وهم يخفضون أصواتهم، ومع ذلك لم يكن يتغيب عن مواعيدهما أبدًا، مازال يلاقيها بنفس اللهفة، ومازالت تشعر عند ذكره بنخزة قوية ناحية القلب تجعلها تتنهد لاستعادة توازنها... ليس وهمًا إذن... ما اسم ذلك؟ إنها تحبه حقًّا... لم تقبل منه أي مبلغ من المال... كان يغرقها بالهدايا... وعندما تحاول رفضها، كان يغضب... وكانت ترى في عينيه بعض البلل أحيانًا، فتقبلها... عندما وصل تفكيرها إلى هنا، أغمضت عينيها ورفعت يدها، لتستأذن المحاضر بالخروج من

القاعـة، مـازال الصـداع يعميهـا، سـوف تعـود إلى البيـت، تبتلـع قرص دواء وتحاول الاسترخاء.

عنـدما وصـلت إلى البيـت عـاودهـا شـعور عميـق بالكآبـة والإعيـاء الشـديد، وضـعت الـدواء في فمهـا وابتلعتـه، ربمـا تكـون مريضــة، استسـلمت بعـدها لنـوم كابوسـي، واسـتفاقت بعـد ساعتين وهي تفكر في شيء واحد كانت لا شعوريًا ترفضه منذ شهر: يجب أن تستشير طبيبًا. غيرت ملابسها فورًا واتجهت إلى باب البيت، وعندما وصلت أسفل السلم وجدت ربال أمامها عائـدًا مـن مدرسـته بقامتـه الـتي قاربتهـا في الطـول وبـدأت تتجاوزهـا، وبوجهـه الـذي انتقـل لتـوه مـن ملامحـه الطفوليـة إلى ملامح شبابية صارخة. أدخل مرآه السرور إلى قلبها وأعاد لها نفحة من ثقتها بنفسها.

- إلى أين؟
- إلى الجامعة.
- أين كتبك؟
- لا أحتاجها.. عندي مقابلة مع أحد الأساتذة.
- هل أنت متأكدة؟
- ماذا تقصد يا ربال؟
- لا شيء.

أخفـض ربـال رأسـه وأسـرع إلى الـداخل قـافزًا علـى أولى الدرجات.

هذا ليس يومها بالتأكيد، ربال علم بقصتها مع سليمان، كل الناس يعرفون قصتها، ولكن ربال هو الوحيد الذي يجب أن لا يطلع على مثل هذه الأمور، إنها مثله الأعلى، ما أبشع ذلك! عشيقة رجل متزوج! اللعنة...

عندما وصلت عيادة الطبيب، أدخلتها ممرضة إلى غرفة الفحص، وكانت قد حزمت أمرها نهائيًا، انتظرت بهدوء حتى يخبرها بنفسه بأمر حملها، وبادرته بالقول إنها تريد أن تسقط.

- لماذا يا سيدتي؟
- لأنني لا أريد أطفالاً الآن.
- هل عندك أولاد؟
- لا، ولكني ربيت أخي وأختي، وأريد أن أتفرغ لزوجي ودراستي.
- إذن، خذي موعدًا من الآنسة في الخارج، وأفضل أن يكون زوجك معك.

نعم، أكثر ما يعنيها هو ما يفضله مصاص الدماء هذا، أما زوجها، فسوف تصطحبه بالتأكيد ليقضيا معًا على الطفل الذي لم يولد بعد.

قرار صائب

صارت الساعة كئيبة، مرتبطة بأفكارها وتعاستها. اعتصمت في البيت ولم تخرج منه ومضى الوقت بطيئًا في

الاستلقاء والقراءة وتجاهل الهاتف الذي لم يتوقف عن الرنين بإصرار، والاستسلام لحزن عميق، عميق، لم تستشعره من قبل.

وفي صباح ذلك اليوم نزل ربال إلى المدرسة، سمعت صوت إغلاق الباب الخارجي وهي ما تزال في فراشها. فتحت عيناها ثم أغلقتهما، قلبت وضعية استلقائها ثم أعادت تكوين الغطاء حولها، وعادت إلى النوم الكابوسي من جديد.

أيقظها صوت جرس الباب الخارجي، اعتقدت أن ربال عاد من المدرسة ظهرًا، ولكن إضاءة الغرفة أنبأتها بأن الوقت مازال باكرًا. هل ستترك سريرها لتفتح الباب؟ من عساه يكون؟ أعادت تغيير وضعية نومها ولكن الجرس بدأ يدق بإلحاح غريب جعلها تتوجس. قفزت من السرير وانتابتها رعشة برد جعلتها تسحب الغطاء وتلتف به.

فجأة شعرت بدوار، كان الطارق قد بدأ يخبط. الباب بالأيدي والأقدام، أسرعت قليلاً وفتحت لتجد سليمان يقتحم البيت صافقًا الباب خلفه. كان وجوده في المدخل مفاجئًا، تراجعت مذعورة أمام تعابير وجهه. دفعها أمامه ثم ألقى بها على كنبة غرفة الجلوس.

– لم يخلق بعد من يتجاهل مكالماتي ويهرب مني، هل سمعت يا بنت؟

لم ترد، كانت جالسة تتأمل غضبه، ها هو وجهه المخيف الذي يهابه الناس يظهر فجأة وهي لم تستفق من نومها بعد. كان يصرخ ويشتم وعندما لم يسمع أي رد هجم وأمسك بكتفيها وأخذ يهزهما بقوة جعلتها تشعر بالدوار مرة أخرى، ثم فقدت الوعي لثوان، وعندما عادت إلى وعيها سمعت صوته يهمس:

- مها... مها... ماذا أصابك؟ مها؟

أنا لم أقصد إيذاءك، كنت غاضبًا ويائسًا، ظننت أنك تخليت عني.

- لقد أسقطت ولدنا...
- ماذا؟ ماذا؟
- لقد ذهبت إلى الطبيب وأسقطت ولدنا.

هوى بجسده على الكنبة المقابلة، نظر إليها وهو يرفع حاجبيه عاليًا، لم يتوقع هذه المفاجأة. ساد صمت طويل عاد بعده يتكلم بنبرة ضعيفة:

- لماذا فعلت ذلك؟ لقد قالوا لي إنك قصدت عيادة طبيب نسائي، ولكني لم أشك حتى في إمكانية...
- ماذا كنت تريدني أن أفعل؟
- أريدك أن تأتي إلي وتخبريني وأنا أتصرف.
- وكيف كنت ستتصرف؟ لقد أعفيتك من هم إضافي.

- تسمين ثمرة حبنا همًّا؟ أنت تسيئين الظن بي وكأنني أي شخص ممن يحيط بك. لقد سئمت من نظرتك المتعالية. أخفضي نظرك وأنا أتحدث إليك.
- أنت الذي تعاملني كأنني أي شخص ممن يحيط بك، لماذا أخفض نظري؟

غرق في صمت طويل، وبعد عشر دقائق انتفض واقفًا وقال:

- تعالي معي.
- إلى أين؟ أنا لا أقوى على الوقوف.
- سوف أنقلك إلى البيت الريفي. هناك تبقين تحت نظري وتجدين من يعتني بك.
- لا أريد أن أترك ربال وحده.
- إذن ننتظره حتى يعود من المدرسة وليذهب معنا.
- سليمان... أنا لا أريد أن أطلع ربال على أمرنا.
- تخافين من هذا الطفل؟ أنت... تخافين من هذا الطفل؟
- أنا أحبه فقط.
- غريبة هي أساليبك في التعبير عن الحب.. أنا وأنت يجب أن نتزوج.
- لن أتزوجك، افهمني جيدًا، أنا أحبك، لا أريد أن أتزوجك كي لا يصبح هذا الحب عبئًا عليك.

- هل تعنين أن هذا الحب أصبح عبئًا عليك ولذلك قررت أن تنهيه؟ أسقطت الطفل وسرحت الأب... لا أريد أن أفقدك، يجب أن نتزوج، وحالاً... هل تفضلين أن أطلق زوجتي؟ إنها في باريز الآن ترافق أباها في المستشفى، لا أعلم متى تعود. صدقيني، إنها تعرف كل شيء... لم أكلمها في الأمر ولكنها تفهمني، منذ زمن طويل انتهى كل شيء بيننا... أنت تعرفين كل حكاياتي أليس كذلك؟ لماذا تجبريني على سردها الآن؟
- لا أريد أن أتزوجك.
- هل تحبينني؟ نعم أم لا؟
- سليمان، لا أريد أن أحطم وضعك الاجتماعي.
- ليس لدي أي وضع اجتماعي. لم أعد أجتمع بزوجتي منذ التقيتك. الأولاد أولادي وسيبقون كذلك... لا مشكلة في حياتي إلا أنت...
- لا أريد أن أكون زوجة ثانية، للمرة الثانية.
- أتسمين زواجك الأول زواجًا؟
- لا أريد أن أكون زوجة ثانية للمرة الأولى!

لم يستطع أن يمنع نفسه من الابتسام، ابتسمت بالمقابل، ثم ارتفعت ضحكتها عاليًا فأجابها بضحكة أعلى.

- لقد وافقت على الزواج. سنفعلها الليلة، قبل أن تغيري رأيك. سأطلق أم الأولاد، ستجد نفسها مطلقة عند عودتها من باريز.

ما أجمل ذلك! أن تعود زوجته من باريز لتجد نفسها مطلقة! هكذا يفعل حبيبها بزوجته، ماذا سيفعل بها عندما تصبح، هي، زوجته؟

كيف انتصرت عبير؟

جرب غيره

جاء أمر الطلاق القسري مفاجئًا، كان أبو وائل ولأول مرة في حياته يسرق وهو صامت، وتصادر مها منه ومعها ممتلكاته وهو راضٍ، ولن تكون المرة الأخيرة.

ومع ذلك فإن هذا الحدث كان بالنسبة له أقل أهمية بكثير من تصرف مها معه؛ فالتاجر قد يتعرض للمآزق غير المحسوبة وهو يدفع التسعة ليقبض العشرة، وما خسره في صفقة مها سيعوض أضعافًا في صفقاته المقبلة مع المعلم. ولكن استخفاف مها بأمره وتلاعبها به كان شيئًا يستعصي على فهمه تمامًا. وعندما كانت تخطر الفكرة في باله كان يحاول استبعاد أمر رفضها له، ماذا لو أن المعلم أرادها لنفسه؟ هل يمكنها بأي حال أن ترفض؟ لا أحد يقول لا للمعلم. ومها أصلاً صنيعته، وقد أثبتت الأيام سلامة حدسه.

فبعد أن مر على الطلاق المؤسف أكثر من سنة، حاول أن يلتقي بها في الجامعة حيث تدرس، وقد قادته الظروف والصدفة إلى اكتشاف أمرها مع المعلم. وعندها فقط آمن

بقـدرة الله! وآمـن كيـف يسـير الله تعـالى عبـاده الصـالحين نحـو الخير! وبعدها ارتاحت نفسه وعجز عن شكر الله على معجزته في تخليصه منها بأدنى خسائر ممكنة.

وعندما عـاد في ذلـك اليوم إلى البيت واجتمع مع عائلته حول مائدة العشاء، شعر بالرضا يغمر نفسه، وأخذ يتأمل عبير من طرف خفـي، إنها سمينـة جـدًّا وشـاحبة دائمًـا، ولكنهـا عبير التي أنجبت هـذا الجيش من الأولاد، وهـي التي تعرف الأصول، عبير الـتي تعـرف نصـف سيدات دمشـق وتحفـظ أسمـاء النصـف الآخـر، عبير الـتي تحفـظ كـل الفتـاوى، ولا شـيء في العـالم يهـز معتقدها.

لقـد قصر في حقهـا... يجب أن يطلعهـا شيئًا فشيئًا على وضعه المادي الجديد، ويجب أن تشاركه شيئًا فشيئًا الانتقال إلى صف اجتماعي أعلى.

وهكذا اتخذ القرار في تلك الليلة المباركة. وكان أول ثمارها شـراء بيـت في أحـد الأحيـاء الغاليـة، وشـراء سـيارة جديـدة. وانعكس المظهر الجديد إيجابًا على وضع عبير ضمن مجموعتها الدينية، فالبيت فتح لاستقبال مجموعة من السيدات اللواتي لم يهدهن الله تعالى بعد، ومنهن أختها سوسن التي بدأت أخيرًا تطهـر قلبهـا مـن رجـس الشـياطين، بـل صـارت تـدعو رفيقاتهـا اللاتي لم يـأذن الله تعـالى لهـن بلبـاس الحجـاب بعـد إلى حضـور جلسات النصح في بيت أختها وهي فخورة.

وبعد أقل من سنتين، وأثناء الاحتفال الديني الذي أقامته عبير بمناسبة عودتها من الحج مع أبي وائل، أعلنت سوسن أن الله تعالى هداها وأنها سوف تلبس الحجاب، وكانت لحظة مؤثرة وتاريخية، تعانقت فيها الأختان، وغمرت الدموع أعينهما وأعين الحضور، وملأ الحبور قلب أمهما العجوز، على الرغم من أن ذهنها لم يكن حاضرًا لتعي تمامًا ما هو سبب كل هذا الهيجان، ولكن مشهد ابنتيها المتعانقتين أوحى لها بأنه حدث سار. وتمنت عبير من كل قلبها لو أن حماتها ما تزال على قيد الحياة، لتشهد انتصار الحق على الباطل، فكم من المرات عايرتها بأختها المارقة، وكم من المرات دافعت عبير عنها وهي تقول لها إن الإيمان يملأ قلبها ولكن الله تعالى لم يأذن بعد، وكم من المرات أجابتها بأن الأمل مفقود منها تمامًا لتغيظها!

مغامرة

كبر الأولاد، صاروا أكبر منها. البنتان أصبحتا شابتين وقد بدأت الخاطبات بالتردد على المنزل، والصبيان أحدهم دخل الجامعة والاثنان الآخران يعملان مع أبيهما، وينقلان أخبار المكتب والمحل بدقة، حتى إنها أحيانًا تعلم بالأشياء قبل حدوثها. ما أجمل الإحساس بالقوة!

فارس أصغر الأولاد صار في العاشرة، في المدرسة يشتكي منه المدرسون والتلاميذ وحتى المدير، في كل يوم يروي لها قصة

جديـدة تضـحكها، ثم تصـلها الروايـة الحقيقيـة مـن المدرسـة فتبكيها، ثم تنسى كل شيء. اليوم يمر بسرعة، ومازالت تلهث وراء أعمالها المنزلية، بالرغم من الخادمة التي تعمل بين يديها، وبـالرغم مـن وجـود ابنتـين شـابتين تسـاعداها، لكـن التزاماتهـا الاجتماعيـة صـارت ضـخمة، وواجباتهـا نحـو جماعتهـا الدينيـة بـدأت تثقـل عليهـا قلـيلاً. لـديها آلام في الركبـة اليسـرى لا تفارقها، وتزداد عندما يأتي المساء. العيون الخضراء صار لونها قريبًا من اللون الأصفر، وهناك هالات وردية تتحول إلى اللون البنفسجي تحتهما عند التعب.

لكـن الحيـاة صـارت أكثـر أمانًـا، وهـي لا تشـعر بمـرور الوقت، بل لا تعرف من أين تأتي بأوقات إضافية. وائل مسؤول عن التموين، الأخ الأوسط يراقب البنات، والأصغر يرافقها في مشاويرها الخاصة، لم تتعود التنقل بلا مرافق، لذلك فهي اليوم قلقـة منـذ الصـباح، أخـذت تقنـع نفسـها أن هـذه المهمـة الـتي ستقوم بها هي لصالح هذا البيت، وفي نفس الوقت كانت تلقي على الخادمة أوامرها للمرة الثانية.

- سوف أعود بعد ساعة، يجب أن تنهي تنظيف غرفة النوم كلهـا، البنـات سـوف يقمـن بالترتيـب، لا تنسـي تلميع النوافـذ، نافـذة غـرفتي متسـخة كثيرًا. لا تنظفـي الصـالونات اليـوم. ادخلـي إلى المطـبخ، وانتقـي أوراق السـبانخ جيـدًا، لا تضـعي أوراقًـا صـفراء أو ذابلـة، ثم

انقعيها قليلاً وابدئي بتغيير الماء. أريد أن أجدها نظيفة عندما أعود وجاهزة للطبخ.

- حاضر ستي، والله سوف أنظفها جيدًا.
- لا تردي على الهاتف، البنات يفعلن ذلك.
- حاضر ستي.

اتجهت مباشرة نحو البيت الذي وصف لها وسط سوق شعبي في حارة ضيقة تكاد أطراف سيارة الأجرة تمس واجهات دكاكينها المهترئة. وعندما وقف السائق أمام باب البيت، شعرت بأنها لن تقدر على مواجهة الموقف وحدها، فكرت في التراجع، وللحظة عاد إلى ذاكرتها موقفها أمام السكرتيرة الحقيرة التي سرقت زوجها قبل ذلك. أيقظها صوت السائق من أفكارها:

- انزلي يا حجة، لا أستطيع أن أتوقف أكثر من ذلك، ورائي صف من السيارات.
- نعم، انتظرني كما اتفقنا في آخر الحارة.
- على عيني.

لم يكن للباب جرس، كان يدق بسقاطة على الطريقة القديمة، البيت عربي، مهترئ هو الآخر، ولكن الفتاة التي فتحت الباب وهي تلبس غطاء الصلاة الأبيض لم تكن مهترئة على الإطلاق، كانت نضرة وجميلة، وكانت قريبة من سن ابنتها الصغرى.

- أهلاً يا خالة، هل أخطأت في العنوان؟
- كلا، لقد دلوني على بيتكم، أنا أخطب لابني.
- ولكن ليس لدينا بنات للزواج.
- وأنت يا حبيبتي؟
- أنا متزوجة يا خالة.
- لا يبدو عليك ذلك. أمك موجودة؟
- أمي ماتت من زمان، أنا أعيش في البيت مع أبي.
- هل تدعيني أدخل، لقد تعبت من الوقوف أمام الباب.
- أنا آسفة يا...

وجاء صوت أبي وائل من داخل البيت قويًا، عميقًا، نفذ إلى صدرها كسكين حادة، وشعرت بقلبها يذبح، وشعرت بالدم يتسرب منه، وأحست بطعم ملوحة ومرارة تحت اللسان...

- أنا آسفة، هذا زوجي وهو لا يسمح لي بالثرثرة على الباب.

وصفقت الباب بوجهها مصدرة صوت طنجرة نحاسية. ووصلتها بعد ذلك أصوات السوق، فالتفتت إلى جهة الخروج، وخطت خطوات أوسع مما تفعل عادة. شعرت أن ثيابها تعيق الحركة، فهي طويلة وثقيلة وهي في الحقيقة أكثر من اللازم. ها هي تشعر بالعرق ينبع من قمة رأسها ويبلل غطاء الرأس

الداخلي، ثم شعرت برقبتها تتشنج وهي مازالت تواصل خطواتها السريعة نحو مخرج لهذه الحارة الضيقة، ومخرج لهذه الحياة الضيقة...

رأي الدين

لقد كانت القصة حقيقية إذن. تزوج أبو وائل بابنة الخضري، وهو أحد الذين كان يصر على توزيع زكاة أمواله عليه شخصيًا كل عام. هل اقتطع من أموال الزكاة لإتمام الزواج؟ هذه مسألة تحتاج إلى علم وتمحيص، فالفتاة فقيرة والأب مريض وهو عائل وحيد وسوف يموت قريبًا. والفتاة جميلة وقد تتعرض للفتنة، والفتنة أشد من القتل.

هذه المرة، كان أبو وائل يعمل الخير ويتلقى جزاءه مباشرة. لا شك في ذلك. وها هو اتخذ من البيت القديم مقرًا كي لا يلفت نظر الأولاد. لقد أمضى على ما سردوه لها أوقات نهاره كلها خلال الأشهر الماضية عند (صاحبه الدرويش) في سوق الجمعة، وكان يؤدي صلواته حاضرة في مسجد الشيخ محيي الدين القريب مع صاحبه الدرويش أيضًا. والآن ثبت أن صاحبه درويش بالفعل، فها هو باع ابنته الوحيدة، وأنزل العريس في بيته طوال النهار، وتنازل عن المبيت للزوجة الأولى. هذه قسمة عادلة، يبدو أن غريمتها هذه المرة لا تقل عنها استيعابًا للفقه.

كم هي طويلة رحلة العودة إلى البيت، كم هو مر هذا الطعم تحت لسانها! دارت في ذهنها أفكار شيطانية، استعاذت بالله، للمرة العاشرة... استعاذت بالله، ماذا تفعل؟ كان السائق يعيدها إلى البيت كما اتفقت معه في أول المشوار، ولكنها لا تريد الرجوع إلى البيت، كيف ستواجه البنات بهاتين العينين الدامعتين؟ كيف ستحضر الغداء وتتناوله معهن ومع فارس والمرار يملأ فمها؟ وعندما يأتي المساء، كيف ستنظر في وجهه؟ هل تواجهه أمام الأولاد؟ وعلى مائدة العشاء؟ لا... يجب أن تدرس الحالة بهدوء...

لقد مر العمر أو كاد، وهي تبحث عن جواب لسؤال مازال يدور في ذهنها: بماذا أخطأت يا ترى؟

القائدة

جمعت عبير الأولاد، الذكور، بعد العشاء، في غرفة الضيوف، وبعد أن نام فارس بصعوبة لشعوره بأن شيئًا يحاك من وراء ظهره. أحست بقوتها وهي تترأس اجتماعًا لثلاث شبان يتلهفون لخدمتها، غبطت نفسها، وقرأت في سرها سورة الفلق، فلا يحسد المال سوى أصحابه، ثم قالت بصوت واضح لكنه منكسر:

– والدكم تزوج.

هب الأوسط واقفًا، فأمسك وائل بذراعه وأجلسه قصرًا.

- هل أنت متأكدة؟
- نعم، لقد ذهبت بنفسي أمس وتأكدت من البيت، ورأيت البنت. وكان أبوكم عندها.
- من هي؟
- ابنة صاحبه الذي يعمل في سوق الجمعة.
- لا يمكن تصديق هذا الأمر! دعيني أتأكد بنفسي!
- يا ابني، أنا متأكدة، وكنت أريد فقط أن أعرف رأيكم. ماذا نفعل الآن؟
- لا تشغلي بالك يا أمي! أنا سأتولى المسألة بالكامل.
- لا.. يجب أن أعرف كل التفاصيل، هذا الموضوع يخصني أيضًا.
- يجب أن يطلقها، وحالاً!
- كيف يفعل ذلك وهو بهذا العمر؟ كيف يستخف بنا جميعًا؟ هل هذا معقول؟ ما رأيك يا أمي؟
- يا أمي، أنا أخاف عليه، فهو مريض، ولا أدري كيف يتصرف بوجود صبية شابة إلى جانبه، قد يمثل أنه قوي... قد يكون ترك أخذ الدواء، أنا ألومكم جميعًا، لقد تركتموه دون مراقبة فترة طويلة... ولم يكن أحد منكم يتقرب إليه، لذا اتجه وجهة أخرى...
- ماذا كنا نستطيع أن نفعل؟ لقد خدعنا، أنا كنت أوصله بنفسي إلى دكان صاحبه، لم يخطر ببالي..

يجب أن يطلقها... الليلة...

- اهدأ يا وائل، لا تحل الأمور بهذه الطريقة، إنه والدكم، وليس ابنكم.
- ليس عندي حل آخر، زوجة شابة الآن! هذا ما ينقصنا، أطفال يوارثوننا على آخر الزمن!
- هل تريدون أن نواجهه جميعًا عندما يعود؟
- لا، أنا وأمي نكلمه، وإذا احتجنا إليكما، ندعوكما.

في تلك الليلة المشهودة، تأخر أبو وائل في العودة إلى البيت قليلاً، ثم تأخر كثيرًا، ثم بدأ الجميع يقلق بعد أن تجاوزت الساعة الحادية عشرة، ثم رن جرس الهاتف، وجاء صوت الصديق الدرويش متقطعًا وخائفًا وهو يدعوهم للحضور إلى المستشفى.

وهناك، اجتمع الأولاد والوالدة فوق سرير الرجل المنهك، وقرروا إجراء عملية جراحية مستعجلة، وأخذ وائل الصديق الدرويش جانبًا، واتفق معه على كل شيء.

وعندما عاد أبو وائل إلى بيته بعد شهر، كان كل أثر للزوجة الشابة قد امّحى، وكانت عبير مثال الزوجة المتفانية أثناء فترة المرض والنقاهة، وبدا أن الأمور عادت لتسير بتوازنها الطبيعي والمنطقي، فلا يصح إلا الصحيح.

ها هي عبير على رأس بيتها الكبير، تأمر هذا وتنهى ذاك، وقريبًا جدًّا تزوج الشباب والبنات وتصبح جدة، ماذا

ينقصها؟ إنها فقط. لا تحب أن تكون وحدها مع أبي وائل، تشعر دائمًا أن هناك حضورًا آخر بينهما، أشباحًا يراها أبو وائل ولا تستطيع أن تميزها بعينيها ولا بقلبها، ولكن مهلاً، هذا لا يحدث إلا نادرًا، فالبيت مليء بالأولاد والحمد لله، وهي تخطط أن يصبح مليئًا بالأحفاد قريبًا إن شاء الله.

حكم جائر

دخلت القاضية قاعة المحكمة، كانت مهيبة بقامتها الفارهة وتقاطيع وجهها الأرستقراطية وحركاتها الحازمة، اضطربت عبير قليلاً عندما نظرت إلى وجهها، طاف في ذهنها ذكريات مزعجة لم تدر لها سببًا، تمتمت بينها وبين نفسها سورة "ألم نشرح" فهدأت قليلاً، وعادت لتتابع مجريات الجلسة. كان المحامي قد اقترب من منصة القاضي، وكان وائل جالسًا يصطنع الهدوء قربها، نظرت إلى عينيه وعاد إليها الشعور بالقهر، كيف تجرؤ هذه البنت التافهة التي تزوجها على هجر البيت وطلب الطلاق وهي ما تزال عروسًا؟

لقد أصرت على حضور هذه الجلسة معه لتدعمه معنويًّا، كانت في أكمل قواها وهي تقف إلى جانبه وتناقش المحامي، الذي أبدى إعجابه بأفكارها أكثر من مرة! إنه وائل زينة الشباب وابنها البكر الذي تفاخر بأخلاقه... ولكن، سوف تمر هذه الأزمة وبعدها لكل حادث حديث... بسيطة!

لم تكن تستطيع فعليًا أن تفهم معنى لكل ما يقال وما يحدث، ولكن يبدو أن القاضية لم تتعاطف أبدًا معهم، فهي توجه الكلام إلى محامي العروس، وفجأة عاد المحامي وقام الجميع وابتدأت جلسة أخرى...

- هلاّ شرحتم لي من فضلكم ماذا حصل؟ لماذا لم تحكم لنا بإعادتها إلى البيت؟ هل أجلت الحكم؟

عز على عبير أن كنتها لم تأخذ ما تستحقه فورًا. حكمت القاضية بتأجيل الحكم والاستماع لأقوال محاميها.

أنهت مها جلسة اليوم وهي تحاول ألا تشرد، لقد أثار منظر عبير وابنها شجونًا قديمة. يبدو أن الناس لا تتغير ولا تتطور، ويبدو أن التاريخ يكرر نفسه. ها هو الابن الشاب يلجأ إلى القضاء لإجبار امرأة على العودة إلى فراشه غصبًا، وها هو القضاء بكل عظمته يقف إلى جانبه، عدا أنها أجلت حكمًا في قضية تعرف مسبقًا أنها ستحسم بعكس قناعتها.

كيف انتصرت مها؟

ترتيب الأولويات

لم يكن سليمان يكذب على مها عندما كانت حبيبته، لقد اعتادت أن تثق به ثقة عمياء، وحده من دون العالم حولها، وتبين أنها أخطأت هذه المرة؛ فبعد أن تمت إجراءات الزواج الرسمية بسرعة استثنائية مثل كل ما يخص سليمان، بقيت زوجته الأولى، أم الأولاد، على عصمته. فلا هو طلقها كما وعد، ولا يبدو أنها ستطلب الطلاق كما توقعت مها. وقد اكتشفت الأمر بالصدفة ولم تناقشه فيه، بل لم تعد الحديث عن الموضوع مرة واحدة. وأخذت تشعر بأحاسيس غريبة عليها، تراوحت بين الغيرة والحقد، ولكنها لم تفعل ما يدل بأنها غير راضية عن الحال. بقي الأمر أنها تعيش في البيت الريفي، وكأنها نزيلة فندق. وتذهب بانتظام إلى جامعتها في سيارات فخمة تتغير كل يوم. وصارت الحياة أكثر سلاسة حتى بالنسبة إلى ربال، الذي جاء رد فعله غير متوقع أيضًا. فقد أصبح ابن البيت الجديد بامتياز، واستطاع أن يتأقلم مع الرفاهية التي أتاحها الوضع بامتياز أيضًا.

وخلاصة الأمر أن كل عائلتها كانت سعيدة بالترتيب الذي حصل.

علي، طالب بتحسين وضعه في الجيش وتدبر أمره بطريقة ما، فقد غير موقع سكنه، وأصبح يقود سيارة جديدة.

وسلمى طالبت بتحسين وضع زوجها في المؤسسة الزراعية التي كان موظفًا صغيرًا فيها، وقد تدبرت أمرها بطريقة ما، فقد صار ماهر مدير المؤسسة والمتحكم بأموالها، وأما هي فقد بنت بيتًا من طابقين وسكنته مع أولادها الثلاثة في أحد الأحياء الجديدة في حمص.

ولأول مرة في حياتها، لم تعد مها تقود حياتها، تحولت إلى متفرجة، متفرجة صامتة على فيلم يتكرر كل يوم، وأحست أنها يجب أن ترتاح وتستسلم، ماذا ينقصها الآن؟ إنها تدرس وتعمل ولها زوج يحبها وبيت تلتجئ إليه.

كيف مر الزمن بسرعة، بسرعة شديدة؟ بعد أن حصلت على درجتها الجامعية، عملت في سلك القضاء، وبدأت ترتقي درجاته بهدوء وثقة. كان حبها لسليمان قد أصبح عادة وتكرارًا لم تعهده من قبل، حاولت أن تعزله وتحميه لأنه العلامة الوحيدة الثابتة في حياتها، ولكن ذلك لم يعمل إلا لفترة محدودة. كان الحب يحتاج إلى دعم دائم، لم يعد أي سحر يؤثر فيه.

وكانت صورة الرجل القوي الذي تزوجته تحيط بها مثل هالة مقدسة كيفما تحركت. تخرجت من الجامعة بتفوق وعملت بكل الإخلاص التي شعرت به يقودها، وبدأت تنجز أشياء صغيرة كل يوم. ولكن تفوقها وإخلاصها لم يجملا صورتها البشعة. مازالت زوجة الرجل المخيف أينما حلت، وبدأت تشعر بالظلم من جديد.

الروتين

أصبحت مها قاضية. سافر ربال لإكمال دراسته في أمريكا، لم تفلح كل جهودها لإقناعه بالعدول عن ذلك، كان صارمًا عندما يتعلق الأمر بمستقبله. بعد سفره شعرت بوحدة كبيرة، وأخذت تنهمك أكثر فأكثر في عملها.

تحول سليمان تدريجيًا إلى رجل أعمال لا هم له سوى إقحام أولاده الثلاثة في مشاريع تكبر كل يوم. وعندما حاولت الشكوى، من عصبيته وعدم اهتمامه بها، ظهر لها أنها أخطأت بالتقدير، فقد كان المطلوب منها أن تبقى عشيقة إلى الأبد، ثم بدأ يطلب منها أن تنجب، وكأنه يحاول إيجاد مخارج أخرى لأزمته معها، فلم تعد للحديث عن ذلك. لقد جاء الأمر بشكل طبيعي، لم تحمل منه بعد الزواج، ولم تفكر بالأمر، كان ذلك الحدث الأكثر طبيعية في العالم. وعندما بدأت تحاول

الإنجاب لم تتمكن من ذلك! ثم فقدت اهتمامها بالأمر، فماذا يغير قدوم طفل جديد على هذا العالم؟

وعلى نحو غير منتظر، في ليلة ربيعية، جعلت تراقبه وهو يتحدث بالهاتف ويرتب بأوامر محددة تفاصيل عرس ابنته البكر، كان وجهه قد أصبح أكثر استدارة من قبل، وابيضت ذوائب شعره بشكل جعل لون بشرته أكثر اسمرارًا، وأحاطت هالات تعبة بؤرتي عينيه، ولكن حركاته مازالت مستبدة وحادة، ونظراته حذرة وحدقتي عينيه شديدتي الالتماع.

شعرت بالكره العميق يفيض في نفسها، هذه الابنة تمثل كل ما تحتقره في العالم: غباء وبراءة، تهذيب وقلة حيلة! مدت يدها واختطفت سماعة الهاتف بطريقة مفاجئة من يده، وكانت تفكر في إعادتها إلى مكانها الطبيعي فوق الجهاز، عندما عاجلها سليمان وأمسك بيمينها بقبضة صارمة مستعيدًا الهاتف بقبضته الأخرى وصارخًا:

- هل جننت؟
- ...
- لماذا فعلت ذلك؟

وللهاتف:

- لا أكلمك أنت! فقط انتظر قليلاً!

وأغلق الهاتف بخبطة قوية وهو يصرخ:

- كيف تجرئين على مقاطعتي هكذا؟ ما بالك؟ لماذا لا تردين؟
- أريد أن أسافر.
- لا... لا سفر إلا بعد أن ننتهي من العرس!
- لن أشارك في هذا العرس!
- هكذا إذن؟ لماذا أرجوك؟ من غلط في حقك هذه المرة؟
- لا أحد. فقط لا أريد أن أكون هناك، ليس لي مكان وسط زوجتك وأولادك.
- إنك تتخيلين كالعادة!
- أنا أتخيل؟ أعني أنني بشكل عام أتخيل؟
- مها... مها... أنا لست في مزاج لمناقشة وضعك! فهمتيني؟
- أنا لم أناقش وضعي في هذا البيت أبدًا!
- هذه نغمة جديدة!
- أنا لا أبتكر الأنغام ولم أفعل ذلك في حياتي.

صمت سليمان وقطب حاجبيه فجأة، كما لو أنه استشعر خطرًا ما، ثم عاد ليقول بصوت أقل حدة:

- ماذا تريدين الآن؟
- أريد أن أسافر.
- سافري إذن، إلى أين؟

- إلى أي مكان.
- أنا لم أغادر سوريا منذ الأبد، ولا أستطيع السفر. خذي أختك وزوجها وسافروا معًا إلى فرنسا، ما رأيك؟

رن جرس الهاتف مرة، اثنتان... رفع السماعة، استغرق في الحديث مرة أخرى، نهضت مها ببطء وهي تراقبه، لم يمسك بيدها أو يدعوها... اتجهت نحو البيت، استوقفها صوت خرير المياه الذي يسببه الفلتر في حوض السباحة، وقفت على طرف الحوض وأخذت تتابع بنظرها الموجات الدقيقة التي تندفع من جانب إلى آخر، ثم وجدت نفسها ترمي بكل جسدها في الماء البارد، بقيت تحت الماء فترة ثم شعرت بيد قوية تنتشلها من شعرها وتسحبها نحو الأعلى... شعرت بألم شديد..

- هل تنوين الانتحار؟!
- وهل أتيت لإنقاذي؟ لو ابتعدت قليلاً عن الحافة، هل كنت لتلقي نفسك في الماء من أجلي؟
- لا أدري فالجو بارد، اخرجي قبل أن تمرضي، كم شعرك كثيف يا بنت!
- أريد السفر إلى أمريكا، اشتقت لربال.
- حسنًا سنرى! اخرجي من الماء الآن...

كانت هذه ليلتها الأخيرة في سرير الزوجية، ويبدو أن جنونها حرك مشاعر سليمان، لقد داعبها واحتضنها ومارس

معها الحب كما لم يفعله من قبل، مازال إلهًا في الفراش، كأنه لم يجر عمليتين في القلب، ثم نام قرير العين، ليس إلا ذكرًا آخر... كيف أمضت عشر سنين من حياتها معه؟ ولماذا؟ ما هو الوهم الكبير الذي جمعهما؟ أين أحلامها؟ عاد الجموح الأزلي يتملكها، لن تبقى يومًا آخر في هذا البيت...

الرحيل

انتقلت مها إلى شقة فاخرة ضمن المدينة بدعوى التحضير للسفر، شعر سليمان أنها متضايقة فلم يناقشها وانصرف إلى مشاغله حتى حين، مقدرًا أنها أزمة سوف تمر كما مرت أزمات عديدة غيرها. وسرعان ما أصبحت جاهزة للسفر، جواز سفرها وتأشيرة إقامتها وبطاقات الطائرة وصلتها خلال يومين. كان سليمان يفتل خاتمه فتجد طلباتها مجابة.

ووجدت نفسها في ليلة دافئة كما تحبها أن تكون، تنتظر موعد المغادرة إلى المطار، شنطة وحيدة تقبع خلف باب البيت فيها بعض الملابس، وشنطة يد كبيرة معلقة على مشجب وسترة جلدية فاخرة ملقاة على الأريكة. خرجت إلى الشرفة، هذه دمشق كما هي لم تتغير، بعض المارة يتكلمون بصوت أطلقه هدوء الليل، سيارات قليلة تعبر وقمر شاحب يطل فضوليًا من الأعلى. النسيم بدأ يبرد قليلاً، إنه الربيع، نظرت

باتجاه جبل قاسيون، البيوت المضاءة تزداد يومًا بعد يوم! في أحد الأيام البعيدة سكنت إحداها مع عائلة فرقتها السنين، اعتصر قلبها هم قديم أو حنين، لم تعد تدري، أيقظها رنين جرس الباب من هواجسها، لعل سليمان جاء ليودعها، ركضت لتفتح وقد داعبتها بعض الذكريات، لكن وجه السائق الشاب فاجأها يقف وراء الباب ينتظر أوامرها، حسنًا لن يأتي ولن تفكر به بعد اليوم، لقد اكتفى بوداعها على الهاتف متسائلاً: لماذا لم توافه إلى مقره؟ أعطت السائق الشنطة وحملت شنطة يدها بنفسها ملقية بالسترة على كتفها، أطفأت الأنوار، أغلقت الباب وخرجت.

كان طريق المطار صامتًا، لم يرافقها أحد ليودعها، نظرت إلى اليسار في طريق الأوتوستراد فوجدت سيارات قديمة بأضواء شاحبة تتلاحق على جانبي الطريق شجيرات هزيلة ومتعبة ينيرها كاشف السيارات، بعد الجسر الأخير لاح دوار المطار خافتًا متعبًا هو الآخر، عندما توقفت السيارة تراكض رجلا أمن وشرطيًا نحوها باهتمام مصطنع. نزل السائق وأخرج الشنطة من الحقيبة الخلفية، تناولها منه الشرطي باحترام شديد، وكأنه يحمل بين يديه كنزًا، طلب رجل الأمن الجوازات والبطاقات ثم مرر مها أمامه ولحق بها الجميع، حسنًا، سوف تنتهي المهزلة بمجرد إقلاع الطائرة، في البلد البعيدة سوف تكون بمفردها، لقد افتقدت حريتها لسنوات طويلة.

بعدما أقلعت الطائرة، نظرت إلى دمشق من الأعلى فلم تميّز شيئًا، لا شيء سوى السواد، وداعًا دمشق... اعترتها رعشة خوف... هذا البلد يحتفظ بتوازنه بطريقة شيطانية... ترى كم سيدوم ذلك؟ ومتى ستعود؟

خلال الرحلة الطويلة حاولت مها القراءة، وحاولت النوم ثم القراءة من جديد، ولم تتمكن من أن تمارس أيًّا منهما. حاول رجل في الخمسينيات أن يفتح معها حديثًا، استغربت إصراره وقاومته بلطف في البداية ثم صدته بعنف أدهشه، ثم استسلم لنوم عميق مع شخير عال جعلها تطلب من المضيفة حلاً، فأحضرت لها سماعات لأذنيها واعتذرت لأن المقاعد كلها مشغولة في الدرجة الأولى.

وصلت إلى مطار واشنطن وكانت الساعة المحلية تشير إلى الثانية صباحًا. وجدت نفسها تحمل شنطتها وتمشي وراء الناس. كان المطار ممتلئًا إلى درجة لم تستوعبها. بدأت تصور في ذاكرتها الحشود المختلفة الألوان والتي ستشكل فيما بعد خلفية كل أيامها في أمريكا، لكن الدهشة في الدقائق الأولى كانت كبيرة.

وقفت وراء صف طويل وعندما وصل دورها فوجئت بموظف لطيف... بل وسيم وأشقر ولطيف، سألها بضعة أسئلة فأجابته بإنجليزية ركيكة، لكنه فهم ورحب بها تقريبًا، بهرت به، ورافقها الانبهار طويلاً. عندما وصلت شنطتها أنزلتها وبدأت

تجرها وراءها ببطء وهي تفكر في شيء واحد، سرير مريح ونظيف تقضي فيه الليلة، وتستعيد بعدها قدرتها على الحياة. كان في انتظارها رجل أتعبه الانتظار، اتجه نحوها بخطى متثاقلة وابتسم مرحبًا بهذه الابتسامة التي تكرهها، ابتسامة تخفي وراءها حقدًا ورعبًا وعواطف مكبوتة معقدة، وأخذ يعتذر بشدة لعدم تمكن زوجته من مواصلة الانتظار معه بسبب اضطرارها للعودة إلى البيت من أجل الأولاد. كانت سارحة وركبت في السيارة وهي تفكر مرة أخرى في السرير المريح. أخذ الرجل يشرح موقفه من حرب الخليج ويمتدح موقف الرئيس، كان ذلك جزءًا من مهماته كموظف في السفارة، لم تدر كيفية إسكاته، لسنوات طويلة التزمت الصمت المطلق في مثل هذه المواقف، لكنها وفي هذه اللحظة المحددة من التاريخ بدأت تتكلم، كان صوتها غريبًا حتى على أذنيها، بدأت بالقول إن موقف السيد الرئيس لا يهمها إطلاقًا، ثم أعادت القول بتعبير آخر أنها الآن متعبة وتريد أن تعرف ترتيبات إقامتها. لم تلتفت لتدرس وقع أقوالها على وجه الرجل، ولكن صوته أوحى بأنه صار في حيرة من أمره. فقد صمت ثم تلعثم ثم صمت مرة أخرى، ثم قال بأن السفارة ستستضيفها خلال إقامتها حسب أوامر العميد سليمان، حدثت نفسها قائلة: ليكن، فليأمرهم العميد وليأتمروا، قريبًا لن تكون عضوًا في هذا الفريق.

وفي هذه اللحظة المحددة من عمرها والتي ظلت تذكرها حتى النهاية بوضوح تام، عادت تشعر بنفس الحرية التي كانت تشعر بها في أعلى الجبل، عندما كانت في الخامسة، ونظرت من النافذة ورأت وجه أبيها منعكسًا على الزجاج، كان الشارع وراءه مضاءً، وهناك صيدلية مفتوحة على الركن وامرأة خمسينية تخرج منها بسرعة وفي يدها كيس. هذا المكان كان له تأثير ساحر عليها، لم تكن بحاجة لاختبار نفسها، بومضة ذهنية سريعة عرفت أنها ستبدأ حياة جديدة، حياة ربما تكون قد خلقت لتعيشها.. ولا يهم كم سيكون الثمن!

الرهان
على الحصان الخاسر

الرهان
على الحصان الخاسر

في الصباح ألقيت نظرة على المرآة قبل أن أخرج إلى العمل، فاجأني نحول ساقيّ وألوان ماكياج وجهي الصارخة! لقد اعتدت نظرات الناس المزدرية للون شعري الأشقر، ولون أحمر الشفاه العنبي حتى في ساعات الصباح الأولى. هذا القناع لا يخفي حقيقتي على الأقل، فأنا أضعه قاصدة. منذ طلاقي أصبحت أهتم بمزاجي الخاص فقط، وأرى الدنيا بعين جديدة. لقد بدت الأشياء بحجمها الطبيعي تمامًا لا أكبر ولا أصغر، وأصبحت أشعر أن الدنيا ملكي أنا.

اتخذت طريقي إلى الوزارة عبر الشارع الفرعي، فهو أقصر حتى لو بدا أكثر ازدحامًا بالدكاكين من كل صنف، لكنني كنت هادئة ومستعدة كما أسلفت لتلقي نظرات وتعليقات رجال مدينتي المكبوتين بلا مبالاة.. أنا سعيدة لأن منزل أهلي على صغره وتواضعه قريب من مركز المدينة.. السوق قريب.. الوزارات قريبة.. هذا يوفر عليّ أجور المواصلات كل صباح ومساء أثناء ذهابي وعودتي من العمل.

صعدت الدرج الرخامي العريض واجتزت باب الوزارة؛ فرأيته يقف في أحد الأركان يراقب دخولي بصمت، كان عريض المنكبين، عريض الشاربين! حاولت أن أعطيه عمرًا وأن أزيد قليلاً عن سنوات عمري الخمس والعشرين، لكنني عندما صرت بجانبه صدمتني براءة عينيه وصدق نظراته! قد يكون في السادسة والعشرين، من يدري؟ لم أسلم عليه ولم يسلم علي، اكتفى بمتابعتي بنظرة حتى آخر الممر المظلم المؤدي إلى غرفتي. كانت غرفتي عبارة عن صالة واسعة جدًّا، مضاءة جيدًا، وأنا لا أدري في الحقيقة من أين تأتي الأضواء، أمن النوافذ الكبيرة العالية، أم من مصابيح النيون الموزعة على كامل سقف الغرفة، والتي تعمل ليل نهار كامل فصول السنة؟ كانت مكاتب الموظفين موزعة أيضًا على مسافات متساوية على أطراف الغرفة. وحتى الآن لم أحص عدد الموظفين في غرفتي، هل هم تسعة أم عشرة؟ لا أدري.. ولكنهم جمع غفير على كل الأحوال، وعندما يكتمل نصابهم تصبح الغرفة عبارة عن ضجيج مادي يشبه الهواء، ويشبه قطعة أثاث من مفروشات غرفتنا، ضجيج له شخصيته وله وجوده المستقل. أنا مكاني بين هالة زميلتي على اليمين وهي حامل في مرحلة متقدمة، وبسبب قصر قامتها واضطرارها لانتعال أحذية رياضية، تعتبر الآن أشبه بكرة ضخمة منفوخة بشكل غير منتظم، وبين صباح زميلتي على اليسار وهي محجبة تحاول إخفاء أكبر قدر من جمالها تحت

الحجاب دون أن تفلح، وفوق ذلك فهي لم تتجاوز التسعة عشر عامًا.. وكلما تمعنت فيها أكثر شعرت أن نصف هذا الجمال كان يكفيها كي تعيش سعيدة. فلو كانت لي عيناها أو حتى شكل وجهها المستدير أو طول قامتها فقط! أنا أحاول أن أفعل شيئًا لتجميل وضعي وسط هذه الدنيا التي تعترف بالجميلات، بالنبيهات، بحاملات الإجازات الجامعية وبكل المتفوقات، نعم.. وأنا؟

* * *

وعيت على الدنيا فوجدت نفسي هكذا.. لوني أسمر ولكنها سمرة تميل إلى اللون البني وليس إلى الأصفر، وهي حلة جميلة لو أنها فقط وضعت على وجه أكثر تناسقًا من وجهي. عيناي صغيرتان جدًّا، وأنفي طويل جدًّا، أما وجهي فصغير جدًّا ليتسع لكل هذه التفاصيل. وقد كان شعري كستنائيًّا قبل أن أبدأ معه لعبة الألوان التي لا تنتهي، فمن أكثر درجات اللون الأسود حلكة حتى أقصى درجات اللون الأشقر بريقًا. مر شعري بمراحل عديدة جعلته فاقدًا لكل ميزات الشعر العادي، ولم يعد بإمكاني إرساله كما كان يوم كنت متزوجة، فقد أصبح ضعيفًا لا يكاد يتجاوز شحمتي الأذن حتى أعود وأقصه من جديد. ولكنني أعتني به قدر الإمكان فهو دائمًا منسق ومرتب، بالإضافة إلى أن زيارة صالون الحلاقة صار

مشوارًا لا يمكن الاستغناء عنه بعد أن عمل عمر الصبي الجديد فيه، وهو شاب وسيم ابتسامته لا تفارق شفتيه.

رفعت عيناي عن آلتي الكاتبة قليلاً، أردت أن أستريح وأفكر ما العمل بعد ذلك؟ بعد أن نشبع من تبادل النظرات، ثم نبدأ بالسلام على بعضنا ونتكلم عن كل شيء قليلاً، ثم أضطر للبوح بأني مطلقة، دائمًا أصل إلى هنا.. أصل إلى هنا.. لو كنت أجمل قليلاً، لو كانت عندي شهادة جامعية، لو كان معي مبلغ من المال، ولكن لا شيء.. لا تعويض عن شيء في هذه الحياة. زوّجني أهلي منذ كنت في السابعة عشرة، كان زواجي مثل حلم جميل. استيقظت ذات صباح وأنا أجد الناس يهنّئوني بالخطبة. طبعًا كانت صدمة للجميع، فتاة في مثل بشاعتي تحظى بعريس! أيًّا كان هذا العريس لا يهم، فهو رجل على أي حال. كان أهلي أول المصدومين بالحدث السعيد، رجل يخطب لينا، طفلتهم العاهة! يا رب تكمل على خير..

وأنا صرت أحلم وأحلم وأحلم.. أحلم وأنا أقيس كل الأثواب الرائعة التي اشترتها لي أمي، أحلم وأنا أنظر إلى الخاتم الذهبي المتواضع الذي صار في بنصري الأيمن، أحلم وأنا أجرب أدوات التجميل التي سمح لي باستخدامها لأول مرة: حلمت بأنني فتاة جميلة وأن خطيبي واقع في غرامي مثل الأفلام، لأول مرة كنت البطلة وكأن كل من حولي كومبارس ضعيف! لونت شعري وذهبت مع خطيبي إلى ناد ليلي

ورقصت معه، وسمعت الثناء بأذني من كل الأفواه، نسيت نفسي.. نسيت عقدي الأولى، وبدأت أنظر بعين العرفان إلى ذلك الذي جعلني أعيش هذا الحلم الجميل، كان فيه شيء غريب، شيء يستفزّني ويشعرني بالقرف، وكانت لا مبالاته نحوي واضحة، وكنت مع ذلك لا أشعر بها. كنت أعيش انتصارًا وهميًا يبدو أنني لا أستحقه، أو أنني عشت الانتصار قبل أن أدخل الحرب فصارت هزيمتي في النهاية هزيمتين.

لا أذكر أنه قال لي يومًا إنه يحبني، مع ذلك لم أكن أفكر في هذا الأمر كثيرًا. في شهر العسل الذي مر بسرعة شعرت أنه يريدني، وبوحشية، بالنسبة لي كان ذلك هو الزواج، والزواج هو هذا الشيء، وطالما أنه يفعله فهو زوجي، وبما أنه تزوجني فلماذا لا يكون قد أحبني؟ على أنني فيما بعد عندما ذهبنا إلى بلده لنسكن مع أمه في منزلهما الكبير، أصبحت أميل إلى الاعتقاد بأن هناك حلقة مفقودة بيننا.. وبعد ذلك شعرت أننا متباعدان إلى حد كبير، ومن ثم اقتنعت أن بيننا سدًّا عاليًا ولم أشعر بذلك إلا بعد أن اصطدمت به فعليًّا.

بعد عودتنا من شهر العسل لم نخرج إلى أي مكان طوال شهور طويلة. كان بيت أهل زوجي في مكان ناء من ضواحي المدينة قرب مصنع صغير تمتلكه العائلة وتعمل به، وكانت الحديقة الجرداء المحيطة بالمصنع هي متنفسي الوحيد في الأيام الطويلة التي أمضيتها وحدي، بعد أن يغادر زوجي صباحًا إلى

المصنع ولا يعود إلا بعد قدوم الليل. لم تبحث حماتي عني يومًا ولم تكلفني حتى بمهام منزلية. لم يكن أحد يريد مني أي شيء، كنت أعوم في فراغ مطلق، لذا عندما أخبرني زوجي بأنه سيصطحبني إلى الشاطئ لقضاء بضعة أيام مع أصدقاء كدت أطير من الفرح.

وهناك في البحر حيث سمح لي زوجي بارتداء المايوه لأول مرة في حياتي، تخلفت مع صديقين له وزوجة أحدهما، وكان زوجي يحاول قيادة قارب بمحرك صغير مع البقية. كنت أحلق في سماء ما من السعادة في تلك اللحظات، كان كل ما حولي خياليًّا ورائعًا إلى حد بعيد. ولكن عندما وضع صديقه يده على مكان من جسمي صحوت فجأة غير مصدقة! عاد فكرر المحاولة من جديد، عندئذ تأكدت أنني لم أكن أحلم، وبدأت أرتجف خوفًا، وكتمت مشاعري لئلا يشعر بي الآخرون، وعدت بسرعة إلى الشاطئ، ممنية نفسي بالشكوى إلى زوجي كي يتصرف.

وفي الكابين الصغير الخاص بنا، وجدته جالسًا يستمع إلى المذياع، دخلت وجلست بجانبه وتوجهت إليه بكل ما في قلبي من خوف:

- لماذا لا نعود إلى البيت؟
- ولماذا نعود؟ تتذمرين ليل نهار من الجلوس بالبيت وعندما نخرج تطلبين العودة!

- أنا خائفة قليلاً.. أريد أن أخبرك بشيء.
- ماذا؟
- صديقك ماجد..
- ما به، صديقي ماجد؟
- لقد تحرش بي في البحر.. لقد اقترب كثيرًا.. ثم وضع يده..

وهنا لم أعد أدري ما حصل، فمن حالة الهدوء التي كان فيها انتقل فجأة إلى حالة من الهياج العصبي لم أرها من قبل عليه، ولم أستوعب حقًّا ما حصل. لقد انهالت الضربات واللكمات والشتائم، كان بعضها موجعًا جدًّا.. ومع ذلك لم تكن تؤلمني سوى كرامتي. كنت مندهشة وصامتة ولم أتمكن من البكاء إلا بعد فترة طويلة من الزمن، وأتذكر خروجه وهو يصفق الباب ويقول: "لعنة الله عليك، لقد تورمت كفاي".

واليوم فقط أستطيع تفسير ما شعر به عندما سمع مني تلك الكلمات.. كان ماجد أكبر من أن تطاله وشايتي، وكنت أصغر من أن يمسني ماجد بيده الطاهرة، وكانت هذه الضربات التي تلقيتها درسًا لي كي لا أعيد مثل هذه القصص على مسمعه. حدث كل ذلك وكأنه الأكثر طبيعية في العالم، وعندما عاد زوجي في الليل كنت موجوعة وكان جسدي مصابًا بزرقة في معظمه، وكانت لكمة على وجهي قد تركت أثرًا داكنًا جدًّا.. وكنت قد خرجت من حالة الذهول ودخلت في

مرحلة جديدة. فأنا غاضبة لكنه غضب يحتمل العتاب، وأنا ثائرة لكنها ثورة تحتمل المفاوضات والأخذ والرد. ولكنه قطع على كل الطرق والمنافذ عندما طلب مني أن أعد العشاء لشخصين فورًا، هو.. وماجد.

* * *

لم تكن هذه القصة آخر عهدنا ببعض كما قد يلوح منها، فلقد تتابعت الأيام وحملت لي مفاجآت عديدة اكتشفت بموجبها أن هناك عددًا هائلاً من الأشخاص أهم مني في حياة زوجي، هذا إذا لم أقل إنني آخر من يثير وجوده اهتمامًا لديه.

وفي الوقت الذي قررت فيه أنني لم أعد أحتمل أكثر من ذلك، ورتبت حقيبة متواضعة حملتها، وذهبت مشيًا على الأقدام إلى المحطة التي تنطلق منها سيارات الأجرة، لم أطلب منه أن يعيدني إلى أهلي خوفًا من الضرب، واتفقت مع سائق السيارة أن أعطيه أجرة الطريق بعد أن أصل إلى بيت أهلي؛ لأنني لا أملك المبلغ. في ذلك الوقت كنت أشك أنني حامل، ولكنني بدأت أتخبط ولم أكن متأكدة من شيء. وفي بيت أهلي اجتمع حولي أمي وأبي وأختي الصغرى، وأخذت أروي ما بجعبتي من قصص صحيحة وغير صحيحة. كنت أريد أن أستدر عطفهم بأي ثمن. وهذا ما حصل، لقد قال لي أبي: سوف أريه، إنه وحش، ماذا يظن نفسه؟ ابنتي تهرب من البيت

لتأتي إلي؟ وقالت أمي: لو علمت أنه يضربك لذهبت بنفسي وجئت بك من هناك. وقالت لي أختي: خذي مفتاح خزانتي واستعملي أثوابي. ما هذه الأثواب التي ترتدينها؟ متى كانت آخر مرة خرجت فيها إلى السوق؟

لقد طلبت منه يومًا حذاءً جديدًا، فجاء في اليوم التالي حاملاً حذاءً جديدًا لأمه. وقال لي: "لقد تذكرت أن أمي طلبت مني حذاء منذ فترة، أما أنت فدورك بعدها! على كل الأحوال لقد دفعت لأهلك مبلغًا كبيرًا ثمن جهازك، فأين هذا الجهاز يا ترى؟ تطلبين حذاءً جديدًا وأنت مازلت عروسًا!".

كان قد مضت على زواجنا سنتان، وكنت قد يئست من الإنجاب، وبعد أيام من عودتي إلى بيت أهلي تأكدت أنني حامل. شعرت بشيء من الفخر يملأني! إذن لست عاقرًا، لقد عشت أيامًا صعبة وأنا أتحمل طريقة أمه في التعامل معي على أنني درجة ثالثة؛ لأنني لم أحمل من أول ليلة، وصارت المرارة والحقد اللذان يملآن قلبي يخالطهما ضرب من السعادة الغريبة الطعم، وجعلت أغرق مرة أخرى بذهول يشبه ذلك الذي اعتراني أيام الخطبة. وقد رافق ذلك تغير في موقف أهلي لم أكن أدري ماهيته؛ فأبي الذي كان مصرًّا على تهجمه العنيد والقاسي أصبح يحلل الموقف بهدوء وثقة بالنفس قائلاً: "يا ابنتي، عندما يعلم زوجك بالنبأ سوف يتغير نهائيًّا!". وأمي التي

كانت تعطف علي وتدعو على زوجي صباح مساء صارت تقول: "أرجو أن يكون ولدًا.. كي تكسري عين أكبر واحد فيهم.. تعلمين البنت ليس لها غير بيت زوجها". وكنت في قرارة نفسي أشعر أن كل ما حدث لن يغير من الحياة شيئًا؛ فزوجي هو زوجي، بولد أو من غير ولد. ولم يصبر أهلي أكثر من عشر أيام حتى بدأت الاتصالات والمفاوضات. من اتصل أولاً؟ أبي بالتأكيد؛ فزوجي منذ خروجي أو هروبي من البيت لم يحاول حتى أن يبحث عني. كانت أمي تقول: "إنه يعلم أنك هنا.. طبعًا.. إلى أين يمكن أن تكوني ذهبت؟".

النتيجة وبعد أخذ ورد عدت إليه.. لم أتأثر بما قالوه عندنا في البيت، ولا ما اشترطه أهلي عليه لعودتي.. كنت متأثرة بعدم اهتمامه بالخبر.. خبر حملي، الذي أصبح هاجسي الوحيد، والحلم الجميل الذي أعيشه وأعيش من أجله.

***

الأوراق المطلوب طباعتها تتجمع أمامي على الطاولة، وأنا أعمل بصمت وأصغي أحيانًا إلى الأصوات من حولي.. آخ ها هو ظفري قد كسر، ولن يصبح طوله مثل إخوته إلا بعد أسابيع، يا للنحس! ترى كم مرة يفتح باب غرفتنا ويغلق في النهار الواحد؟ وكم مرة أرفع نظري ببطء وأتوجه به نحو الباب متوقعة قدومه؟ إن الشيء المسلي بالموضوع هو أن اسمه سامي.

سامي؟ لقد أسميت ابني سامي! ترى هل أحب الناس إلى قلبي يجب أن يكون اسمه سامي؟

وأخيرًا.. ها هو سامي.. لقد عرفته فقط من حذائه عندما مد قدمه أولاً، ودخل بقامته الطويلة ثانيًا. ما تراني فاعلة؟ سأتجاهله في البدء وبعد ذلك سوف نرى.

تقدم ببطء واتجه رأسًا نحو طاولتي. توقفت عن العمل ونظرت إليه. وجهه المتورد وعيناه البريئتان يتجهان نحوي.. سلم عليّ بخجل شديد فرددت السلام وضحكت بصوت عال، هذا هو شأني دائمًا عندما يسلم أحد علي، فارتعب ووضع ورقة كان يحملها منسحبًا فورًا من الغرفة. تابعت الطباعة ولا أدري كم مر من الوقت قبل أن أسحب ورقته وأعدها للطباعة أمامي بوضع مريح، قرأت موضوع الكتاب بسرعة قبل أن أبدأ به، استوقفتني بعض الكلمات: إبداء الرأي، رجل المستقبل.. وسرعان ما أفقت من شرودي لأكتشف أنه دس بين أوراقي رسالة شخصية. اختطفت الورقة من أمامي وأخذت أقرؤها بسرعة، مسترقة النظر بين الحين والآخر إلى بقية الموظفين لأتبين هل اكتشف أحد شيئًا؟ كل ملهي بشؤونه. أتممت الرسالة ووضعتها خفية في حقيبتي، واكتشفت أنني كنت ألهث وكان قلبي يدق بجنون.. ربما كنت في الخامسة والعشرين، وربما كنت مطلقة، وربما كان لي ابن صغير.. ولكنها أول مرة في حياتي أتلقى فيها رسالة غرامية.

* * *

عندما وضعت طفلي كنت أسعد إنسانة على وجه الأرض. لم أصرح أمام أحد بعواطفي، ولم أظهر لحظة أنني كدت أطير من الفرح عندما وقعت عيناي لأول مرة على وجهه الصغير، وشعره الناعم الذي كان يغطي رأسه الصغير. كانت ملامسة شفتيه النهمتين لصدري عرسًا من الفرح في قلبي، وعشت معه أشهرًا من الحبور والرضا اللذين أغنياني عن التفكير في أي شيء آخر. أتذكر أنني كنت إذا استغرق في النوم طويلاً أشتاق إليه؛ فأجلس بجانبه وأحاول أن أوقظه بأطراف أصابعي على خديه الممتلئتين.

كنا قد انتقلنا للعيش في بيت وحدنا بعيدًا عن المصنع، وكان زوجي يتأخر أحيانًا في العمل فيمضي الليل مع أمه، وأبقى مع الطفل وحدي، ينفد الحليب وينفد البيض وينفد الخبز؛ فاهتديت إلى طريق البقال المجاور للبيت، أستدين منه بعض المؤونة ريثما يعود زوجي. في إحدى المرات كان حساب البقال كبيرًا؛ فغضب زوجي وعاد ليتفاهم معي، ولما لم يجدني في البيت صعد إلى بيت الجيران الذين أقمت معهم علاقة منذ مدة، وكان يحمل بيده عصا المكنسة، وعندما ظهرت له من وراء بارافان غرفة الطعام أخذ يضربني بالعصا. ومن يومها خجلت أن أكلم الجيران مرة أخرى.

كنت مسالمة بطبعي، ولولا زيارة عمي لي في ذلك الخريف ربما كنت حتى الآن جالسة في البيت أنتظر عودة

الظلام وزوجي. يعتبر عمي شخصية لها وزنها في عائلتنا؛ فبحكم ثروته ولسانه السليط أخذ دورًا رائدًا في حياة أفراد العائلة كلها. الكل يخافه ولا يخالف له أمرًا مهمًّا حصل، وقد ساقته لي الأقدار في ذلك اليوم. كنت قد حضرت حساءً من تلك الأنواع الجاهزة الموجودة في السوق، وعمدت إلى قلي كمية كبيرة من الخبز لأتناولها معه، فلم يكن في البيت أي طعام آخر. تركت صحنًا للعشاء وأطعمت سامي بيضة كانت متبقية عندي، ولكنها لم تشبعه؛ فأخذت أطعمه من صحن الحساء عندما دق جرس الباب. استغربت ثم انتابني خوف للحظات أن يكون مكروهًا ما حصل لزوجي، فجرس الباب لم يكن يدق أبدًا في بيتنا.

دخل عمي إلى الغرفة وطلب مني فنجانًا من القهوة بلهجته المسيطرة التي طالما كرهتها، ولكنها يومها كانت محببة إلى قلبي. لقد أعاد إليّ ذكريات بيتي وأهلي، لم يكن عندي قهوة فأحضرت له فنجانًا من الشاي. علمت منه أنه كان في رحلة عمل، وأن أمي رجته أن يتفقد أحوالي وأعطته عنوان بيتي. بعد تبادل بعض العبارات، أعطاني مبلغًا من المال وقال لي: "هذا لسامي.. اشتر له هدية، أنا لا أعرف ماذا أشتري للأطفال!". فأجبته دون تفكير: "سأذهب إلى البقال وأحضر تموينًا للبيت قبل أن يغلق، وأرجوك يا عمي أن تبقى للعشاء معي".

فهم عمي ظروفي دون أن أشرح كثيرًا؛ فقد كان كل شيء في البيت يفضح الوضع المزري الذي تركني فيه زوجي. وبعد ساعة واحدة كنت أركب مع الصغير وحقيبة ملابس في سيارة عمي، ونتجه إلى بيت أهلي مرة أخرى. كان اطلاع عمي على أحوالي ووقوفه إلى جانبي قد ترك أثرًا كبيرًا جدًّا، فقد وجدت نفسي محاطة باهتمام لم أكن أتوقعه، ولم أكن بحاجة هذه المرة لسرد قصص أو اختلاق حوادث. لقد اقتنع الجميع فجأة أنني مظلومة، وأنا اقتنعت بذلك أيضًا.

* * *

لا أدري كيف قطعت الطريق من الوزارة إلى البيت، ولم أعد أذكر كيف وصلت إلى غرفتي وأغلقت عليّ الباب. كان العالم من حولي بانوراما رائعة تختلط فيها الألوان بشفافية اللوحات المائية، وتتناغم فيها الأصوات.

فتحت الورقة وقرأتها للمرة الخامسة بهدوء ودون خوف هذه المرة: "أنا معجب بك جدًّا". كنت أردد هذه المقطوعة الموسيقية في ذهني، وأنا أنقل عيني على بقية الكلمات: "أرجو أن تخبريني ما هي مواصفات رجل المستقبل بنظرك؟" وضحكت في سري.. المستقبل؟ أنا أفكر في المستقبل؟ وأعطي مواصفات؟ مثل أسئلة الصحفيين لنجمات السينما! "ولنبدأ بإبداء رأيك بالموضوع". وهذه نكتة أخرى.. ضحكت في سري؛ فأنا أفتح

بابًا جديدًا وأدخل عالـمًا ملونًا، عالـمًا لم أكن أحلم بوجوده، رجل يطلب مني رأيي في موضوع يخصني ويخصه.

دخلت أختي إلى الغرفة ونظرت إليّ، ويبدو أن شكلي كان يثير الدهشة؛ لأن تعبير وجهها كان غريبًا. قالت لي: "هل تريدين أن تتناولي غداءك أم لا؟" وكانت تتأملني بريبة. أومأت برأسي: "نعم.. أريد". أجابتني: "إذن تعالي ساعدي أمك في إعداد المائدة، وأسرعي لأن بابا عصبي جدًّا اليوم.. وامسحي هذه الألوان من وجهك لأن رأسي يؤلمني عندما يصرخ فيك أبوك". خرجت أختي ولم تجرحني كلماتها هذه المرة، هل اعتدت على الإهانات؟ أم إن الإنسان لا يشعر بالإهانة حين يكون سعيدًا؟

* * *

ما أجمله! لا أريد أن أشوه صورته بوقوفي إلى جانبه، ولا أريد أن أشوه حياته بدخولي إليها.

كيف جئت بنفسي إلى موعده في هذا المطعم؟

أتذكر الآن الرهبة التي تنتابني عند دخولي إلى مكان عام ولو لم يكن فخمًا. أشعر أن الجميع ينظر إليّ ويراقب حركاتي.. في السابق كنت أخاف النظرات الفضولية، وأشعر أنني أريد أن أواري وجهي وقبحي، أما الآن فإن ما يلفت الأنظار إليّ هو حتمًا لون شعري وماكياجي الصارخ واللباس المثير. هل أخاف

من رأيهم في سلوكي؟ أنا الذي أردت ذلك، أنا أريد أن أعطي هذا الانطباع، من أي شيء أخاف إذن؟

انتقى سامي ركنًا منزويًا.. يريد أن يتكلم.. أما أنا فأريد أن أصدمه صدمة تجعله يهرب من أول لقاء.. هذا المسكين.. ما هو الظرف الذي رماه في طريقي؟

- صباح الخير.

- أهلاً.. أهلاً لينا. تفضلي بالجلوس. تأخرت عليّ كثيرًا، أنا أنتظر منذ ساعة كاملة.

أجبته بضحكة جلجلت في أركان المطعم، وجعلت الناس ينظرون تجاهنا. ونظرت إلى وجهه، كان يقطر خجلاً وقد تحول لونه إلى الخمري، وعيناه تتنقلان بين الناس حولنا وبيني.. ولكنها حملت إصرارًا على شيء ما.

- لينا.. هل تتغدين معي اليوم؟

- لا.. فنجان قهوة فقط.. أنا على عجلة من أمري.

أخذت سيجارة من حقيبة يدي. أسرع سامي بإشعالها. لا أدري كيف أوهمه بأنني مشغولة بشيء آخر، أنا كلي منصرفة إليه.

- لينا.. أنا أحبك.

ضحكت ضحكة مجلجلة أخرى.. هذه المرة بدأ الناس يتذمرون حقًا، والتفت إلينا أحدهم وأخذ يتأملني بوقاحة. أما سامي فلم يعد يحتمل المزيد، شعرت بالغضب الذي يملؤه يصفعني ملء وجهي.

- اسمعي جيدًا.. لقد أتيت إلى هنا لأكلمك وليس لأمثل معك مشهدًا مضحكًا لا أحبه. وبما أنك لا تريدين أن تفهمي فسوف أنسحب.. أنا لا أحب أن يحدث هذا مع فتاة أحببتها من أول نظرة.. عن إذنك.

قام سامي بعصبية واتجه نحو الباب بسرعة وتركني وحدي على هذه الطاولة.. حقًّا هذا ما أريده.. لم يتحمل سوى ضحكتين! متوقع جدًّا.. النهاية عندي واضحة من البداية..

جاء النادل وطلبت فنجانًا من القهوة.. وجلست في عتمة المطعم أفكر في كلمة واحدة.. أحببتها من أول نظرة.. أحببتها من أول نظرة.. أحببتها من أو..

* * *

لم يمض على رجوعي إلى بيت أهلي شهرين حتى وصلتني رسالة مسجلة باسمي. كنت قد أنهيت لتوي حمام الطفل، وكنت أحمله بين ذراعي ساخنًا وقد احمرت أذناه ووجنتاه. كانت رائحة صابونته وبخار ماء الحمام وبخار دفء طفولته تعبق في صدري، وتنسيني كل أفكاري السوداء منذ تركي بيت زوجي. سمعت صوت جرس الباب وكنت مخدرة تمامًا من الرضى والسعادة.

وضعت سامي في ركن قريب من المدفأة وكان نصف نائم، وركضت إلى الباب. ناولني ساعي البريد الرسالة ووقعت على دفتر الاستلام ذاهلة، وعندما ميزت عنوان بيت أهل زوجي على الغلاف دهشت! أنا لا أتصوره يكتب رسالة! فرحت وتوقعت رسالة استعطاف. كنت متفائلة وتوقعت حدوث أشياء مفرحة. بدأت أحن إلى بيتي، وشعرت أن مكاني هناك أنا والطفل. أصبحت لا أطيق الانصياع إلى سلطان أبي، وصارت نصائح أمي المتكررة تسبب لي الغثيان. أما أختي الصغرى فلا تفاهم بيننا عدا عن نظرتها بأنني الأخت الكبرى الفاشلة. وكان محور حياتي هو سامي.

عدت إلى جوار المدفأة فوجدت أن سامي قد نام، وشعرت بالأسى لأنني لم أحضنه قبل أن يغفو. فكرت أنني يجب أن أعود إلى بيتي، فربما قصرت في واجباتي، وربما لم أعرف كيف أجذب انتباه زوجي لقلة خبرتي. يجب أن أبذل جهدًا أكبر، على الأقل من أجل سامي؛ فحياتي الفظيعة بقرب زوجي أحب إلى قلب ابني من حياتي الهانئة هنا. لقد بدأ ينطق كلمة "بابا" دون أن يحتفل به أحد، بل إن أمي علقت بقولها إنه سوف يكون برّاوي مثل أبيه، فها هو ينطق بابا قبل ماما خلافًا لكل الأولاد. إن مواقف زوجي وكرهه لي لم تكن حتى تلك اللحظة تدفعني لاتخاذ أي إجراء عاطفي ضده بيني وبين نفسي، أما جرحي العميق فكنت أداريه مقنعة نفسي أنني لا

أستحق أكثر من ذلك. فتحت الرسالة فظهر من تحتها ظرف آخر أبيض اللون.. بلغت دهشتي حدًّا أسرعت معه بتمزيق الغلاف جيدًا.. لا شيء سوى اللون الأبيض. ظهرت لي بطاقة بيضاء مررت بنظري عليها أكثر من مرة قبل أن أستوعب معنى الكلمات. إنها دعوة لحضور حفلة زفاف، ولكن لم يكن أحد من أهل زوجي مؤهلاً للزواج، إخوته تزوجوا من فترة قريبة تباعًا، وسكنوا في البيت الكبير. أمضيت خمس دقائق طويلة أفكر فيما يمثله هذا الاسم المكتوب بماء الذهب والذي يتكون من نفس أحرف اسم زوجي. اكتشفت أمي الرسالة بالصدفة وهي تمسح الغبار عن المكتبة الكبيرة التي تحتل أحد جدران غرفة الجلوس. كان قد مضى يوم كامل قبل أن يعلم أحد بأمرها. لم أفكر بإخبار أحد أن زفاف زوجي يوم الخميس القادم، وأن العائلة كلها مدعوة لحضوره. كان حقد أهلي علي أكثر من حقدهم على زوجي، والسبب أنني لم أتكلم. إن ردود أفعال الناس تجاه ما يزعجهم من أحداث تجعلني أضحك أحيانًا.

لم أعد أذكر تفاصيل ما حدث بعد استلامي لبطاقة الدعوة لعرس زوجي، شعرت أن الدنيا بئر مظلم، وأنا حشرة تدب في داخله دون معرفة الاتجاهات. شعرت أن الهواء الذي أتنفسه ليس ملكًا لي.. أحسست بعوارض زلزال داخلي مدمر، وسمعت أصوات براكين ستثور في جزر بعيدة. كانت الحياة

مأساة ضخمة، وصار الناس وحوشًا بشعين، وكنت أريد أن أبكي حتى أفقد الوعي.. لم أنم ليالي طويلة، ولم يشعر أحد بي حتى ولا سامي. كان يحلم بأشياء أخرى، وكنت أضمه إليّ في الليل مرات عديدة. كنت أريده أن يستيقظ لأحدثه ويعدني بشيء ما. كان الطفل أول إنجاز حقيقي في حياتي، وكان وجوده قربي هو عزائي الوحيد.. سلاحي الوحيد. ولكن من سأهدد به؟ زوجي الذي سيتزوج خلال أيام؟ أهلي الذين يحملونني مسؤولية همومي كلها؟ أم أهله الذين سعوا في الزواج للانتقام مني؟

في الصباح التالي دخلت أمي إلى الغرفة بوجه متوعد وعينين كالحتين.

- من استلم هذه الرسالة؟ أنت؟
- نعم.
- متى كان ذلك؟
- بالأمس، صباحًا عندما كنت بالسوق.
- لماذا لم تخبرينا بأمرها؟

لم أجب. تذكرت البئر السوداء والحشرة التائهة.

- لينا.. لماذا لا تردين؟ خبر كهذا لم يهزك؟ بماذا تهتمين؟ ما هي مسؤولياتك؟ تهملين خبر زواج زوجك.. ماذا أقول؟ ما هي طينتك؟ بماذا تفكرين؟ ماذا ستفعلين الآن؟ أخبريني..

وكأنني كنت أعرف ماذا سأفعل. أمي صبت غضبها علي وأبـي كـذلك، ومضـت فـترة قبـل أن يسـتوعبا حجـم مشـكلتي ويفهمـا أنـني تعرضـت لطعنـة مميتـة، وأن كـل مـا يفعلونـه هـو تذكيري بها كل يوم.

فهمت أنني بضاعة غير مرغوب بها من الطرفين. فهمت أن زوجـي بـاعني وأن أهلـي كـانوا يعقـدون آمـالاً للـتخلص مني وإعـادتي إليه، وأن هـذه الآمـال ضاعت كلها بزواجه. صحوت من الصدمة لأجد نفسي تحررت من كل شيء، فشلي العميق أفقـدني ذاكـرتي.. نسـيت أفكـاري السـابقة وذكريـاتي، أحلامـي وآمـالي، نسـيت نفسـي. خرجـت مـن بحـر الزيـت الـذي كنـت أغـرق فيـه حينًـا، وأحـاول السباحة فيـه حينًـا آخـر. طفـوت إلى السطح، وسـحبت نفسـي بقـوة ومشـيت على الشـاطئ دون أن ألتفـت إلى الـوراء. أمضـيت أشـهرًا أحـاول أن أغسـل آثـار الزيـت العالقة بي.

* * *

في عصر ذلك اليوم الذي التقيته في المطعم، كنت جالسة على الشرفة أنظر إلى الشـارع. كـان المـارة نـادرين في مثـل هـذا القيظ، وكـان سـامي يجلس قبـالتي كما لـو كنا مازلنا في المطعم، كـان يحـدثني وكنـت أجيبـه.. لـدي الكثـير لأقولـه لـه.. لمـاذا لم ألتـق بـه قبـل سـنين؟ بـل لمـاذا لم أنتظـره طـوال سـنين؟ لقـد

كُتب عليّ أن ألقى الرجل المناسب في المكان والزمان غير المناسبين.

رن جرس الهاتف فأسرعت للرد عليه. أمي في الحمام وأختي تدعي أنها تدرس في الغرفة وتغلق على نفسها الباب.

- ألو.. نعم.
- أنا سامي.. مساء الخير.

صوته القوي على الهاتف أرعبني.. شعرت فجأة برجولته، وانبعث نور مبهر من كل الزوايا، وأخذ الثلج يتساقط.

- لينا أرجوك استمعي إليّ للحظات.. أنا أحبك وأريد الارتباط بك، أنا أعرف كل ظروفك.. صدقيني.. أنا أعرف كل شيء. أنا على استعداد لملاحقتك إلى آخر العمر فلا تهربي مني.

وجدت نفسي أقول بدون أن أفكر:

- من قال لك إنني أهرب منك؟

كان صوت الفتاة التي تتكلم دافئًا وهامسًا، وكانت شاردة وراء دقات قلبها العنيفة..

خرج صوته من السماعة البيضاء:

- إذن.. هل نتقابل مرة أخرى؟ أعطيني فرصة لأشرح لك خلالها موقفي وشعوري.
- موافقة.. خلال ساعة.. في نفس المكان.
- أنا سعيد جدًا. أشكرك.. أشكرك.. إلى اللقاء.

أغلقت سماعة الهاتف وأنا أتساءل: لماذا يشكرني؟ كيف أستطيع تصديقه؟ شاب مثله بجماله وظرفه يمكنه أن يدخل إلى قلب أي فتاة.. ماذا يريد مني؟

دارت الأفكار في ذهني، وعاودني شعور غامض كان يتملكني من زمن بعيد، وبدأ يتّضح في ذهني شيئًا فشيئًا.. أنا لا أصلح لشيء.. ولكنني مطلقة، ومظهري يدل على الاستهتار، وهو يبحث عن المتعة.. ومن غيري يصلح لإعطائها؟ وصحوت من غمرة شعوري العميق بالسعادة، وخرجت من تيار الدفء الذي اجتاحني واعتصر قلبي، وصوّر لي صورًا ملونة غير واضحة المعالم.. صحوت.. لا تليق بمثلي السعادة.. والحب مثله مثل أي شيء في حياتي، أنظر إليه من بعيد ولا يحق لي امتلاكه. أنا لا أملك إلا نفسي.. حتى طفلي أخذوه مني.. لقد قرروا ذلك بإجماع شديد اللهجة، وحدث كل شيء أمام عيني ووقعت العقود أمامي، ووجدتهم يسرقوه من حضني، من أجل مصلحتي.. ومصلحته.

كانت الحرارة شديدة عصر ذلك اليوم.. أقنعت والدتي بضرورة خروجي من المنزل. كانت قد يئست من حالتي، ولم تعد تدري كيف تتعامل معي؛ فقد أصبحت لا أبالي بإرادتها ولا بنصائحها. كانت آمالي قد تحطمت عندما لم تساندني في الاحتفاظ بطفلي وتربيته، شعرت بقسوتها، وشعرت هي بمرور الزمن بتحولاتي أنها لم تعد تستطيع أن تسيطر علي.

كان كل خروج من البيت (في غير أوقات الدوام الرسمي) يعني قتالاً عنيفًا على عدة مستويات، وأنا بحاجة للخروج من البيت وعلى استعداد دائم لخوض الحروب اللازمة لذلك. كان الموضوع بالنسبة لي مجرد تحد، التحدي الذي أصبحت أمارسه وكأنه لعبة مسلية ألهو بها وأعذب عن طريقها الآخرين. كل من حولي يدفعون اليوم ثمن تجربتي الفاشلة. لم تكن الأمور بالنسبة إلي واضحة أو منهجية، كنت أتصرف بعفوية غريبة. اليوم أنا ذاهبة إلى مكان غريب، في ذهني أفكار شيطانية لا أدري ماهيتها، ولم تعاندني أمي كثيرًا هذه المرة. كل شيء حدث بيسر وسهولة، كما تسطع شمس هذا النهار الصيفي فوق رأسي. قررت أن أركب سيارة أجرة، كانت رائحة البارفان الذي أستعمله قوية إلى درجة الغثيان.

أوقفت أول سيارة مرت بي وركبتها. السائق ينظر نظرات وقحة خلال المرآة، لا بد أن رائحة العطر هي السبب. نزلت أول الشارع الذي يؤدي إلى المقهى الذي واعدت فيه سامي ومشيت حتى الباب. أطلت برأسي إلى الداخل، كان يجلس على نفس الطاولة المنزوية. انتظرت قليلاً حتى التفت نحوي، وما إن رآني حتى أسرع إلي.. قلت له بعد أن سحبت نفسًا عميقًا من سيجارتي:

- كل ما تقوله واضح وصريح. ولكن قبل أن أجيبك أخبرني، إذا كنت أحبك.. ما هي الخطوة التالية؟

تلعثم قليلاً واحمر وجهه: إذا كنت.. نتزوج.. نتزوج طبعًا.

ضحكت من كل قلبي هذه المرة. إما أن يكون ساذجًا إلى درجة متناهية، أو أنه يحسبني ساذجة إلى درجة متناهية. لكنني تحمست للانخراط في اللعبة. لقد أعجبتني الطريقة التي بدأت بها، وأشعر أنها ستلهيني عن همومي اليومية. ها هي أوهامي تتلاشى شيئًا فشيئًا وسامي يطلب كوبين من العصير دون أن يرفع نظره عني. توصلت إلى قناعة محددة، وهي أنه إذا كان يريد أن يلهو، فأنا أستطيع أن ألهو قليلاً أيضًا. ولم لا ألهو؟ أليس محكومًا عليّ مسبقًا من الناس بأنني عابثة؟

تحدثنا لساعتين. تكلمنا عن كل شيء وعن لا شيء. وعندما كنت أتكلم كان يصغي إلي باهتمام شديد، وهذا هو التفصيل الصغير الذي ظل يشدني إليه، فمهما كانت تفاهة الموضوع الذي أحكيه كنت أجده دائمًا مهتمًا به وكأنه يعنيه شخصيًا.

نظرت إلى الساعة فوجدتها قد جاوزت السابعة والنصف. اقترب موعد عودة أبي من عمله. كيف مر الوقت بهذه السرعة؟

- يجب أن أمشي.
- أرجوك ابق قليلاً.
- لا أستطيع.. يجب أن أذهب. لدي موعد آخر.

تغيرت تعابيره وقال بانزعاج وتلعثم:

- موعد؟ ألا تريدين أن أوصلك؟
- لا.. أرجوك، لا داع لذلك.
- إذن قولي لي أين ومع من هذا الموعد؟
- هذا شيء يخصني وحدي.

خرجت دون أن أسلم عليه وعدت إلى المنزل مشيًا، وعند أول تقاطع طرق التفت إلى الوراء فوجدته يراقبني من بعيد. هل يتبعني؟ أكملت طريقي دون أن ألتفت إلى الوراء.. وكنت سعيدة.

تتابعت لقاءاتنا، وكنت أحيانًا عندما يتشدد أهلي في منعي من الخروج مساءً، أهرب وإياه أثناء ساعات الدوام الرسمي لمدة ساعة أو أكثر، ثم نعود واحدًا تلو الآخر إلى الوزارة. كنت كل يوم أتعلق به أكثر، وأشعر أن حبه يملأ قلبي وحياتي ولا يترك لي مجالاً للتنفس، ولم أعد أستطيع أن أقاوم تيار العواطف الحارقة التي هطلت علي فجأة من عينيه السوداوين.

ونسيت كل أوهامي السابقة معه مستسلمة لدوامة لذيذة يسمونها الحب.. وكلما خطر ببالي هاجس جديد، أو عنت على بالي فكرة شريرة، كانت كلماته تسرع في تخديرها من جديد، وتهيئ إلي أنني سأحصل عليه بوسيلة من الوسائل. أحيانًا كنت أتمنى أن يكون أقل جمالاً أو ذكاء.. وما كان

يؤرقني فعلاً هو عمره.. آه لو كان أكبر قليلاً.. لو كان ذا عاهة مثلاً.. ثم أغضب من نفسي وأقول: هل تهون عليك نفس الشخص الوحيد الذي أشعرك بالاهتمام، بل بالحب؟

ومضت شهور وأنا لا أطلب من ربي سوى استمرار هذه العلاقة الجميلة، استمرارها ولا أريد شيئًا آخر.. ولكن سامي بدا وكأنه يكبر شيئًا فشيئًا.. أصبح في عينيه وميض غريب، وصار في نظراته طلب جديد أحسست بحرارته قبل أن يطلبه لسانه. وكل ما استطعت أن أفعله هو تجاهل هذا النداء الجديد ومداراته بأساليب متعددة. كنت خائفة على وهم الحب أن يتلاشى، واكتشفت أن كل ما سعى إليه هو البحث عن المتعة مع فتاة مطلقة ذات مظهر مشكوك بأمره. وقد تجاهلته طويلاً.. تجاهلته كثيرًا.. وهربت منه.. ولكن الحاجة الجسدية ألحت بشكل واضح، ولم يكن هناك بد من وضع نهاية منطقية لكل ذلك. ولكنه لم يفعل أو يطلب شيئًا، غير أنه أصبح عصبيًّا، وصارت محاولاته لإخفاء ما بنفسه فاشلة. لقد استوعبته، وأخذت أترقب بخوف ما تحمله الأيام القادمة.. هل سيطلب مني ما يريده ويكسر بيديه حبي الطفل الذي بدأ ينمو ويكبر؟ أم إنه سينسحب إذا تيقن أنني لن أعطيه ما يريد، ويختفي من حياتي؟

* * *

كان سامي طالبًا في السنة النهائية في كلية الحقوق، وكان يعمل ليكمل تعليمه. أما أهله فقد كانوا يسكنون إحدى القرى القريبة، وكان أصغر مني بعامين فقط.

ولقد اختار أخيرًا أن يتركني، ولم لا؟ فقد اعتاد أن يمر علي في مكتبي ويدع على طاولتي إحدى الوريقات محددًا عليها مكان وزمان اللقاء التالي، أو يكتب لي كلمات لطيفة حفاظًا على ذكرى أول رسالة كتبها لي بهذه الطريقة. وها هو من يومين لم يظهر أبدًا. قاومت خلالهما رغبتي بالتوجه مباشرة إلى غرفته والصياح في وجهه، واليوم أعطيه الفرصة الأخيرة كي يظهر من جديد.

حاولت أن أتذكر تفاصيل لقاءنا الأخير؛ علها ترشدني إلى علامة تفسر لي اختفاءه المفاجئ. لم أتوصل إلى شيء. لم يكن عنده هاتفًا ولكنني كنت أعرف مكان سكنه، وخطرت لي فكرة شيطانية، لم لا أذهب إليه؟

أنا أعرف ما يريد، فلم لا أعطيه إياه بنفسي؟ ولم لا أتخلص من كل هذا الرعب الذي يملؤني منذ أن بدأ حبه يكبر في قلبي؟ علاقة حب من طرف واحد هو أنا.. ما الذي فعلته بنفسي؟ لا يمكنني أن أحيا بعيدًا عنه، سوف أعطيه ما يريد، ثم أتركه بإرادتي.. إذا أردت.. هذا هو التحدي الجديد الذي سأمارسه.

كنت أقنع نفسي بالفكرة، وكان مرور الوقت يزيدها في رأسي اختمارًا.. وربما كانت دوافعي لزيارته في بيته صباح ذلك

اليوم تختلف عما كنت أصرح به لنفسي.. ربما كنت فقط أخضع لشروطه لعدم تمكني من البعد عنه.. نعم.. لا أدري.

روائح الحياة اليومية تفوح من هذه البناية العتيقة. تخيلت سامي في هذا الإطار، يعود إلى البيت من عمله مرتقيًا نفس هذه الدرجات. أفتح له الباب.. لا.. يجب أن أطرد هذه الصورة من ذهني.. حتى السطح، حيث يسكن، هناك أربعة أدوار.. عدت لأتخيل ابني الصغير وتراءى لي وهو يحبو نحو باب البيت في الوقت الذي يعود فيه أبوه من العمل.. آه.. لماذا تعذبني الذكريات؟ لماذا تسرقني وتضعني في مكان آخر.. في عالم آخر لا أريد التفكير فيه؟ وصلت إلى السطح أخيرًا. كان هناك بابان متقابلان فأيهما أطرق؟ انتقيت أحدهما، وطرقت عليه. انتظرت للحظات رهيبة كان قلبي خلالها يطرق بشدة وكنت أسمع نبضه بأذني. تمنيت أن يفتح الباب حتى أدخل بسرعة وأغلقه ورائي، ثم تمنيت لو أن لي جناحين كي أختفي من هذا المكان بأسرع من لمح البصر. أدركت بعد دقائق أنني انتظرت طويلاً ولم يجب أحد. جربت الباب الثاني بعد تردد. كنت قد هدأت قليلاً وبدأت أتخيل من سيفتح لي الباب وماذا سأقول له... ولكن يبدو أن كل الأبواب مغلقة في وجهي اليوم.

عدت أدراجي إلى البيت.. فكرت طويلاً فيما فعلته اليوم.. فكرت أكثر بسامي.. ترى أين هو؟ ترى ماذا كان

سيحصل لو وجدته؟ لا أستطيع أن أتخيل الآن، أريد فقط أن أصل إلى البيت وأنسى ما حدث.. كنت متعبة وتعيسة وشعرت بالجبن.

* * *

بدأ الطقس يميل إلى البرودة، وآذنت الغيوم ببدء موسم الأمطار وموسم الدموع. أخذت أمي تخطط لتنظيف البيت وإعداده من أجل الشتاء. لم أنتظر أن تطلب مني مساعدتها، فأنا مرغمة على طلب إجازة من عملي في كل مرة تنوي فيها تنظيف إحدى الغرف. أخذنا نعيد فرد السجاد ونفرشه في أماكنه. أذكر كل نقشة في هذا السجاد! كم لعبت عليه وأنا صغيرة، وكم استلقيت فوقه كي أكتب وظائفي وأنا طفلة، وكم من المرات وضع ورفع منذ أن وعيت على هذه الدنيا!

كنت ألبس ثوبًا قديمًا، وكانت يداي مبلولتين بمياه التنظيف، ووجهي قد أحاله الإرهاق والملل إلى هيئة مزرية، عندما رن جرس الباب بإلحاح. طلبت أمي أن أفتح بصوت عال؛ فقد كانت مشغولة بترتيب بعض الصناديق التي أنزلناها من السقيفة. لم أعرف المرأة التي كانت تقف وراء الباب وقد نفد صبرها قبل أن تدخل. تأملتها جيدًا من وراء العين الساحرة، وأحسست أنها تشبه مخلوقًا قريبًا من قلبي.

فتحت الباب قليلاً ونظرت إليها وأنا أرسم أجمل ابتسامة على وجهي تسمح بها ظروفي الحالية. قالت بصوت هازئ:

- مرحبًا.

- أهلاً وسهلاً.

- هل تسمحين لي بالدخول؟ أنا أم.. أنا خاطبة.

وفجأة استعدت صورة سامي، بقامته الفارهة واستدارة وجهه ولون خديه. تلعثمت وتراجعت.. ثم فتحت الباب ودعوتها للدخول، ومن خلال نظراتها المتأملة التي استهلكتني طولاً وعرضًا تنبأت برأيها. عرفت أنها أم سامي، وشعرت بأنها تكرهني مسبقًا، ولكن المفاجأة طغت على كل أحاسيسي وحاولت أن أكتم سعادتي. أجلستها في غرفة الضيوف. دخلت وأنا أركض إلى حيث كانت أمي، نظرت إليّ بدهشة وقالت:

- من كان بالباب؟

- إنها.. (وأنا أداري ابتسامة) خاطبة.

- آه.. يا لقلة ذوق الناس.. ألم يتعرفوا على اختراع اسمه التليفون؟ ماذا أفعل بكل هذه الأشياء المبعثرة؟

ثم استدارت نحوي وقالت قبل أن تدخل غرفتها:

- أعدي القهوة وسوف أدخل لألبس، وأخبري أختك أن تلبس هي الأخرى.. كيف سأقنعها بأن تدخل وتسلم على الخاطبة؟ بسرعة.. الله يرضى عليك..

- ولكن هذه المرأة جاءت لتخطبني أنا.
- ماذا؟ وما أدراك؟ هل تعرفينها؟
- لا.. ولكني أعرف من أرسلها.
- ولماذا لم تخبريني بذلك منذ الصباح حتى نكون مستعدين لاستقبالها؟
- لم أتوقعها اليوم!

أشرق وجه أمي فجأة، وتحمست وقالت لي:

- إذن.. أسرعي وغيري هذا الثوب الذي عليك، أما أنا فسوف أستقبلها هكذا.. ماذا نفعل إذا كانت قد أتت من غير موعد؟

ألقيت قطعة القماش التي كنت أستعملها في إزالة الغبار، ودخلت بسرعة البرق إلى غرفتي، وفتحت الخزانة وبدأت أرمي الملابس على السرير وأنا أفكر: ماذا ألبس؟ ماذا ألبس؟ أريد أن أبدو جميلة.. أريد أن أبدو جميلة!

لم أنتبه إلى أختي التي كانت تنظر إليّ، وقد استدارت عيناها من الدهشة:

- ما بك؟ إلى أين تذهبين؟ هل أنهيتم التعزيل؟
- لا.. لم ننه التعزيل.. بعد إذنك سنؤجله قليلاً.. جاءنا ضيوف!
- من الذي جاءنا.. الآن؟
- أم سامي.

- من أم سامي؟
- اهتمي بدراستك.. أنا أم سامي!

لأول مرة في حياتي أجد أمي تتلعثم في مجلس نساء. في البدء كان موقفها قويًّا، واسترسلت بالحديث عن أمور العائلة، وكانت بالكاد تصغي إلى ما تقوله الزائرة، ولكنها بعد مرور نصف ساعة أصبحت مترددة قبل أن تلفظ أي كلمة؛ فشخصية أم سامي كانت قوية، وتعليقاتها ذكية، استحوذت على اهتمام أمي وجعلتها تخاف، إنها توحي بالخطورة.. وأنا كنت جالسة على طرف الكنبة، أحاول لفت النظر إلي، لكن أمي استأثرت باهتمامها أكثر، ويبدو أنها انسجمتا أخيرًا، وبدأ وقع الحديث يتناغم بينهما، واتفقنا على بعض الأمور، وفجأة التفتت أم سامي إليّ وسألتني:

- متى تعرفت على ابني.. سامي؟
- أنا؟
- لا تخافي.. أنا امرأة واقعية.. لا أسألك من باب الاستفسار، بل المجاملة، أنا لا أتدخل في أمور أبنائي الشخصية، ولا أفرض عليهم اختياراتي، هذه الأمور تحدث كل يوم.. أنتما زملاء عمل كما فهمت، أليس كذلك؟

لم أجب، أصابني الذهول، لقد عدت إلى طور الطفولة، واختلطت الأمور علي. أخذت أتذكر وجه حماتي السابقة

عنـدما زارتنـا لأول مـرة وتعليمـات أمـي بـأن لا أتكلـم أبـدًا، وأجيب بنعم أو لا، أين لينا المتمردة.. اللامبالية؟ لم أجدها لا في وجه أمي المستعطف، ولا في وجه أم سامي الهازئ، تصرفت كأنني عذراء بعمر السادسة عشرة. عادت أم سامي لتقول:

- نحـن عائلـة عصـامية.. كـل منـا يعمـل ليحصـل علـى المـال الـلازم لـه.. أنـا عـدت إلى الدراسـة مـؤخرًا... تصوري بعد كل هذه السنين التي أمضيتها في رعاية البيت والأولاد حصلت على الشهادة الثانوية مع ابنتي الصغرى! وأنت يا لينا ماذا درست؟
- لينا حصلت على شهادتها الإعدادية وتوظفت، لكنها تكمـل في البيـت لتنـال الثانويـة، وخصوصًـا بعـد أن تخلصت من كل مشاكلها..
- مشاكلها؟
- نعـم لقـد تعـذبت مـع زوجهـا الأول كثيرًا.. الله ينـتقم منه.. ويريه أيامًا أسوأ مما أرانا..
- هـل أنـت مطلّقـة؟ أوه عـذرًا.. ولكـن سـامي لم يـذكر ذلك أبدًا.. هل عندك أولاد؟
- نعـم.. سـامي، عمـره الآن سنتان، لكنـه عنـد أبيـه. لم نقبـل حضـانته.. الأب مجبـور بأبنائـه، وابنـتي مازالـت صغيرة والمستقبل أمامها.
- المستقبل أمامها؟ نعم.. أستأذنكم.

- لا، مازال الوقت مبكرًا، ابق قليلاً لقد أحببتك من كل قلبي..
- لا أستطيع، عندي نزلة إلى السوق وأعمال أخرى، نحن نسكن بعيدًا..
- أستودعك الله يا ست لينا.

رافقتها إلى الباب فهمست لي:

- هل أنت مطمئنة الآن أكثر؟

وجاءت أمي تحمل صحن الشوكولاه، فرفعت صوتها بالقول:

- أرجو أن أراكم مرة أخرى.
- إلى اللقاء يا أم سامي.
- إلى اللقاء.

وما إن أغلق الباب حتى أمسكتني أمي وقالت:

- هيا احك لي كل شيء عنه.
- ماذا أقول؟ لا أعتقد أنها ستعود.

بعد زيارة أم سامي ازداد اهتمام أمي بي، وشعرت في قرارة نفسها أن هناك أملاً في إعادة تزويجي، وأحبت خروجي إلى العمل كل يوم صباحًا، طالما أنه يمكن أن يراني أحدهم وألفت نظره، وصارت تدعو لخالي الذي سعى لي بهذه الوظيفة، وتذكرني به، وكأن أفضاله هي التي جلبت لي الحظ أخيرًا. أقسى ما في الموضوع أنها لا تتخيل أي دور لي في ما

يحدث حولي وكأني شخص بالزائد، يجب إيجاد حل له، ولكن اللعبة الجديدة أعجبتني.. أعجبني اهتمامها بي، وفكرت أن أعذبها.. أن أقول لها كل ما دار بذهني وما أخطط له حاليًا.. فكرت أن أصدمها.. وأن أنتقم منها، لكنني لا أملك الشجاعة الكافية لمواجهة نظراتها.

كنت في واد سحيق.. تدور فيه كلمات أم سامي في ذهني، وهي لا تحتمل أكثر من تفسير. لقد فكر سامي في طريقة "تطمئنني" إليه. كان إحساسي إذن في محله، كان يريد جسدي، وبأي طريقة.

عدت إلى الواقع المر بعد أن جعلتني زيارة أم سامي أحلّق في سماء أحلامي العزيزة على قلبي.. لينا المتمردة عادت، وعاد الانتقام يفور في داخلي مرة أخرى.

وهكذا وجدت نفسي وقبل أن تنتهي مدة إجازتي أتوجه إلى بيته. كالعادة كان الوقت عصرًا، ولكن الطقس كان يميل إلى البرودة. تسلقت الطوابق الخمسة بإصرار شديد، ولم أكن أصغي إلى الأصوات التي تخرج من وراء الأبواب المغلقة هذه المرة. كنت منفعلة وغارقة كليًا داخل أفكاري. رننت جرس الباب ولم أكن أدري إذا كان بابه أم لا، ولكنه فتح هذه المرة، وراقبت دهشته وفاجأني شعوري بالاشتياق الشديد إليه. مثل كل مرة، فاجأني بريق عينيه وبراءة وجهه. ما هو هذا الذي أشعر به؟ أهو الحب؟ أم الرغبة؟

وأعطيت سامي كل شيء، أعطيته ما كان يطلبه ويحلم به منذ أن خطط للقائي، وبأسرع مما كان يخطط له بالفعل. وخرجت بسرعة من الغرفة الضيقة وأنا أهرب منه، ومن نفسي. كنت نادمة، نادمة، نادمة.. ولكني سعيدة. وعدت إلى البيت وأنا أشتم روائح غريبة في داخلي. كل ما حصل في الغرفة التي يسكنها أيقظ في جسدي مشاعر جديدة. الحب بطعم جديد، طعم لم أذق له مثيلاً من قبل. لكن الإحباط الذي رافقه طغى في النهاية على كل شيء، وأخذ الشعور بالذنب يتملكني شيئًا فشيئًا كلما اقتربت من المنعطف الذي يؤدي إلى حارتنا. ونظرت إلى الأشجار فاستغربت وقوفها بكسل راخية ذؤاباتها، واستغربت وجود كل شيء في مكانه. الدكاكين تصدر أصواتًا مختلفة، والأجراء ينظرون إلي نظراتهم المعتادة. بقال الحي يرش أمام دكانه الماء ورائحة الحي تعبق حتى السماء.

ألم يعلم الجميع ماذا فعلت اليوم؟ كنت أتساءل في نفسي فيما إذا كان وجهي لا يعكس شيئًا مما حدث في الغرفة الصغيرة. فتحت أمي الباب. كنت خائفة من نظراتها، ولكنها أعفتني منها وما إن رأتني حتى أشاحت بوجهها، ودخلت تكمل حديثها مع جارتنا. دخلت مباشرة إلى غرفتي، كانت تنتابني رغبة شديدة بالنظر إلى المرآة. ولا أدري لماذا بقيت أحدق فيها أكثر من نصف ساعة. أزلت كل المساحيق التي تغطي وجهي ونظرت إليه مرة أخرى. كنت متأكدة من شيء

واحد، لقد أنهيت بنفسي اليوم كل أوهام الحب. هذه الفكرة كانت تملؤني بالتعاسة، ولكنني ولأول مرة رضيت عن شكل وجهي في المرآة، ولم يقابلني وجهي القبيح الاعتيادي. كانت عيناي جميلتين مع أنهما ضيقتان. وكان فمي الممتلئ يضج بالشباب والنضارة.. كنت جميلة.

نمت نومًا كابوسيًّا، كنت أرى نفسي تارة بين مجموعة من الناس وأنا عارية أحاول أن أتوارى خلف الكراسي والطاولات في مقر عملي. وتارة أرى سامي يلعب النرد مع مطلقي. واستيقظت في الصباح وأنا لا أرغب إلا في البقاء في سريري. لم أكن أريد الخروج ولم أكن أريد الذهاب إلى العمل.

ومع ذلك فقد خرجت، لا أستطيع أن أصمد أمام نظرات أمي. أردت الهروب منها كي لا أرمي نفسي عليها وأبكي وأعترف بكل شيء، وتوجهت إلى الوزارة كما كل يوم.

تمنيت طوال الطريق أن أراه.. فكرت في رد فعله.. تصورته سيهرب مني ويداري نظره جانبًا عندما يلمحني، ومع ذلك تمنيت أن أراه.

لقد انتقمت من نفسي عندما ذهبت إليه، ولكن مازلت مقتنعة أنني فعلت الصواب. أنهيت هذه العلاقة العاطفية السخيفة، وأفهمته أنني أعرف نواياه. هذه طريقتي بالانتقام والتمرد. إذن لم أنا مترددة؟ في اللحظة التي ظننت فيها أنني أهزأ من الدنيا كلها، اكتشفت أنني كنت أهزأ من نفسي. وماذا

يهم الآن؟ أنا مطلقة.. مستهترة.. وقد حكم الناس علي بهذا الحكم من قبل.. ظلمًا.. أنا الآن – على الأقل – لست مظلومة.

أراحتني هذه الفكرة، وسيطرت عليّ بشكل شيطاني، ولا أدري لماذا شعرت أن كل الرجال الموظفين في وزارتي يعرفون عني كل شيء. لقد قال سامي للجميع، وشعرت أن الجميع ينظرون إلي بشكل مختلف اليوم، ولم أهتز لذلك أبدًا. لم تعد آراء الناس تلعب بأعصابي كما تشاء، ولم تعد تصرفاتهم تضرب أعماقي وتزلزل كياني وتتركني ليأسي وقلة حيلتي.

جلست وراء مكتبي الصغير وبدأت أسلم على كل من حولي بصوت واضح، وأخذت أسأل كل واحد عن أحواله وأضحك بصوت عال، وأضحك وسط ذلك من نفسي.

لكنني عندما أخذت أرتب الأوراق التي سأطبعها، كنت أفكر فيه وأتمنى أن أراه. كان نهاري طويلاً، وأحسست بالتعب الشديد وأنا أنهض من الكرسي الجلدي، واكتشفت أنني لم أتركه منذ جئت في الثامنة صباحًا. انتهى الدوام، وتأجل احتمال رؤيته يومًا طويلاً آخر؛ فامتلكني الشعور بالتعاسة واليأس.

يوم الجمعة أستيقظ متأخرة.. أحاول أن أغير عاداتي قليلاً لأشعر بالعطلة، سهرت طويلاً ليلة أمس. جلست أرتب أوراقي

القديمة في الخزانة الملاصقة للسرير، وهي مع سريري كل ما أملكه وأسيطر عليه في هذا البيت. شاهدت صوري القديمة، وبكيت عندما رأيت صور ابني، ولا أدري في أي ساعة أطفأت الأنوار ونمت. كنت في الغرفة وحدي؛ فأختي شاركت أمي سريرها لأن أبي مسافر، وهذه عادة قديمة اتخذتها أختي من الصغر وبقيت معها حتى الآن.

شعرت بيد أمي تلمسني وبصوتها يهمس لي في الصباح:

- لينا.. لينا.. قومي.. سامي يريد أن يكلمك على الهاتف.

صحوت فجأة وفتحت عيني وقلت وأنا أركض باتجاه الهاتف:

- هل هو في دمشق؟ من أحضره؟
- من هو؟
- سامي.
- ليس ابنك.. أقصد سامي.. زميلك في العمل.

كنت قد وصلت إلى غرفة الجلوس والتقطت سماعة الهاتف، ورفعتها وبدأت أدرك. ماذا يريد مني؟ جاءني صوته قويًّا.. أشعرني بالدفء، يا ربي ما هذا الإحساس؟ لن أنسى ما حييت كلماته الذاهلة التي اندفعت كالطوفان من السماعة:

- لينا.. أحبك.. أريد الزواج منك.. هل توافقي على ذلك؟ نتزوج فورًا.. لا تبال بالظروف.. كل شيء سوف يتحسن في المستقبل.. المهم الآن أن لا تفلتي من يدي.. وغدًا ترين.
- كلا.. لقد فقدت عقلك.. هذا طبيعي.. أقصد في ظرفك.. واستشر أمك قبل أن تتخذ قراراتك المصيرية، فهي تعرف مصلحتك أكثر منك! ألم تطلعها على آخر التفاصيل بعد؟!
- لينا.. مازلت غير فاهمة.. ما حدث بيننا لن يغير شيئًا.. أعرف لم فعلت ذلك.. أعرفه جيدًا..
- أنت لا تعرف شيئًا.. والهاتف ليس وسيلة للتفاهم على كل حال..
- نعم.. أدرك ذلك.. أرجوك.. أريد أن أراك..
- هذا غير ممكن.
- أرجوك، أريد أن أراك حالاً.

صمت، كنت متعبة حقًّا وأخذت ألتقط أنفاسي. عندما حطت يد أمي على كتفي، كنت قد نسيت حتى الآن أنها بجانبي، نظرت إلى وجهها فوجدتها تومئ برأسها وتنظر إلى السماعة. دهشت لتصرفها، أغلقت موضع مكبر الصوت بيدي ونظرت إليها باستفهام، فقالت بصوت منخفض:

- أعطيه موعدًا.

ترددت فعادت تقول:

- نتكلم بهذا الأمر لاحقًا، أعطيه الآن موعدًا وبسرعة.

وجدت نفسي أقول له:

- حسنًا.. نلتقي اليوم.. الساعة الرابعة والنصف مساءً.

- أين؟

- في نفس المكان.

كان موقف أمي صريحًا، دفعتني إلى مقابلته. لقد نسيت تزمتها وأفكارها وعاداتها وبدأت تكيف نفسها مع وضعي الجديد؛ بهدف الفوز بزوج آخر لابنتها يخلصها من عقدتي الجاثمة على قلبها كالسرطان. من يدري ربما لو صارحتها بما حدث فعلاً لتقبلته أيضًا. وكنت أنظر إليها جيدًا وهي تنصحني وأتصور الانقلاب الذي يمكن أن تحدثه كلماتي على سحنتها الوقورة الناضجة..

وأحيانًا كنت أسرح مع كلماتها وأتخيل الموقف في تصورها، شاب في متقبل العمر ذو مستقبل يلاحقني، أسايسه فيتزوجني، وعندها لا يهم وضع أهله، إذا كان (آدميًّا) و(ابن حلال) فلن يتخلى عني وخصوصًا إذا كبلته بالأولاد.. وهكذا أحظى أخيرًا بمكانة اجتماعية تغسل عني عار طلاقي، وتنسى الناس ماضيّ وحاضري المخجل، ولا يهم أي شيء آخر.. الحب الذي في

رأسي وشعوره نحوي وكل الوساوس التي تقلقني وتقض مضجعي لا تشغل بالها؛ لأنها مفترضة انعدام إحساسي.

"إذا تدخلت أمه فقولي لها: أنا لن أطلب منه أن يتركني.. إذا تركني بنفسه فهو حر..".

يبدو أنها فكرت جيدًا قبل أن تصل إلى نتيجة.

في المساء كنت في طريقي إلى بيته. تجري الأمور ببساطة متناهية. لقد خرجت من البيت بمباركة من أمي، وهكذا فإن ضميري مستريح للغاية. أما سامي فقد استوعبت موقفه جيدًا. إنه يريد أن يستزيد من جسدي قدر الإمكان، ولم لا؟ سوف أعطيه ما يريد فأنا أحبه ومن أجدر منه بهذا العطاء؟ المرة الثانية أسهل من الأولى بالتأكيد. خرجت باكرًا من البيت وقررت أن أتوجه إليه مشيًا على الأقدام. لم يكن موقع بيته بعيدًا، وكنت أتلذذ بتعذيب نفسي.

وصلت إلى قمة البناء وأنا ألهث، رننت جرس الباب بعد أن أخذت استراحة قصيرة، ولما لم أجد ردًّا نظرت إلى ساعتي. كانت الساعة الرابعة فقط. لم يخطر ببالي ألا أجده في هذا الوقت من النهار. هل خرج ليتناول غداءه خارج المنزل ولم يعد حتى الآن؟ ربما.. لماذا جئت باكرًا؟ لا أحب أن يخرج أحد من سكان البناء ويراني. استدرت وأخذت أنزل الدرجات ببطء شديد. ولم أكد أصل إلى ثالث درجة حتى سمعت صوت الباب يفتح، استدرت فوجدت رأسه يخرج من فتحة الباب وهو

يسأل: "من هناك؟" وعندما رآني دهش وقال: "لينا؟ تفضلي، تفضلي، كنت أهيئ نفسي للخروج، صوت مجفف الشعر جعلني لا أسمع جرس الباب".

دخلت الردهة بصمت ومنها إلى الغرفة الداخلية، وكان سامي يتبعني.

- إلى أين تنوي الخروج؟
- إلى موعدنا، خرجت منذ قليل من الحمام..
- لقد اختصرت عليك الوقت، وجئتك إلى هنا فورًا.

عاد وجهه يحمل ذلك الانطباع المخيف، ذلك الاستياء المرعب الذي يحزنني ويدهشني في نفس الوقت. رمى بنفسه جالسًا على السرير، ورميت نفسي على كرسي وجلست عليه.

قال بعد فترة صمت:

- إذن فلقد جئت إلى هنا تقصدين الاستمرار بالعبث.. لماذا تفعلين ذلك؟ أنا لم أخطئ في حقك.. لقد تصرفت بشكل طبيعي. في المرة السابقة لم أقصد ما فعلت، ما حصل كان بسببك، لقد دفعتني إلى ذلك، لا تنكري، والآن تريدين أن تكرري الخطأ، وتقولي إنني فقدت عقلي. حسنًا.. هناك شيء واحد أعرفه، أنا أحبك وأقدر حبي لك جيدًا، وأشعر أنه شيء حقيقي، طبيعي، وأريده أن يستمر طويلاً.. طوال

العمر، وصورة هذا الاستمرار في خيالي هو الزواج.. ولأنك تحملين هذه العقدة من الزواج، كنت أريد أن أفهمك أنه شيء جميل، شيء لا تعرفينه أنت حتمًا؛ لأنك عشتيه بشكل خاطئ، والآن ها أنت تغلقين كل الأبواب.. أنا لا أريد الاستمرار بهذا الشكل، لقد تعبت.

تجمدت في مكاني.. كلماته جعلتني أفقد توازني. نظرت إليه، كان يضع رأسه بين يديه ويبكي مثل الأطفال. شعرت أنني شيطان يقتحم معبده فيحطم المحراب ويطبق بيديه على عنق المصلي.

قام من مكانه، لبس حذاءه ثم أمسكني من يدي حتى قمت أنا الأخرى ودفعني إلى خارج البيت، وأغلق الباب وراءنا ونزلنا سوية.

على درج تلك البناية العتيقة بدأ التحول الكبير في داخلي، داخل نفسي كانت هناك برار عذراء وشمس ساطعة، وخيل تركض في مدى واسع لا ينتهي.

توحدت داخلي الأحداث والأفكار في لون واحد أبيض، جسر قوي خرج لي من صلب الأرض ومد لي لأمشي إلى الأمام. شعرت بالقوة لأول مرة في حياتي.

ما سيحدث بعد الآن لا يهم في شيء، ما سأفعله مع سامي وما سنقرره وما سنصل إليه في النهاية، سعيدة كانت أم

حزينة، لا يشكل أي تأثير، أصبحت منذ الآن إنسانة طبيعية، وهذا هو شعوري البسيط والوحيد.

كبرت وبلغت سن الرشد في ومضة من الزمن.. كنت بحاجة لهذا الإنسان حتى أدرك ذلك.. كنت بحاجة لهذا الحب كي أنضج حقًّا.

والآن أمامي الدنيا التي لن تهزمني بعد اليوم.

أبيض وأسود

واحد

القمر مازال هناك في مكانه فوق قبة السماء السوداء من حوله... كل يوم ينزاح إلى الشمال قليلاً، وكل يوم يكبر قليلاً. شيء غريب... القمر هنا منفتح نحو الأعلى مثل نون كبيرة، وهناك محفور من الأسفل مثل قبة بيضاء صغيرة. لم تخطر بباله مثل هذه الأفكار طوال عمره. ربما لم يكن لديه الوقت للتفكير في القمر.

ومع ذلك فالقمر يواصل كل يوم رحلته الـمُسلِّية، وينظر إلى الناس بهدوء مريب.

الشرفة واسعة والسهل يعكس أمامه بانوراما رائعة في ضوء القمر. كل شيء حوله يدعو إلى الاسترخاء، لقد لهث وراء السعادة طويلاً إلى أن وصل إلى هنا... العالم الأبيض الذي حلم به من بداية وعيه. الدنيا جنة حقيقية من حوله، ولكنه متعب وخائف من النوم. كل الكوابيس تنتظر وراء جفنيه لحظة إغلاقهما. لن يدعها تسيطر عليه. سوف يظل مستيقظًا حتى الصباح وليكن ما يكون. فنجان قهوة واحدة ويطرد بقايا النعاس من رأسه المثقل.

اتجـه إلى المطـبخ... أضـيء النـور لحظـة دخولـه تلقائيًّـا، عكست الزوايا حزمًا ضوئية بوفاء نادر المثيل، والتمعت الأواني الحمراء والبيضاء. أحس براحة داخلية لأنه اختار اللونين الأحمر والأبيض لمطبخه، وللحظات نسي كل أفكاره السابقة وأخذ يستمتع بصنع فنجان قهوة نظيف في آنية نظيفة في مطبخ نظيف. الناس هنا يحبون الألوان الهادئة، الألوان الغريبة التي لا طعم لها. وفي بادئ الأمر كاد يستسلم وينتقي لنفسه مطبخًا بلون بنفسجي يميل إلى الزهر الفاتح، إنه لونهم المفضل ورمز الذوق في العالم الأبيض. لكنه حسم الأمر بعد أن أحس أنهم لن يتخذوا منه أي موقف لأنه انتقى اللون الأحمر. إنه العالم الحر... وسوف يمر وقت طويل قبل أن يشعر بالانتماء إليه ويتخلص كليًّا من عقد عالمه السابق. ربما كانت الكوابيس جزءًا من عملية التأقلم هذه، آه لو كان الأمر بهذه البساطة، إذن لارتاح جسده المتعب.

كـم هـي رائعـة الحريـة! مـن حسـن الحـظ أنـه تريـث قليلاً بالزواج، لا يستطيع أن يتخيل سوء الوضع لو أن معه الآن من تراقبه وتجبره على ارتياد عيادة الأطباء النفسيين، حتى ولو كانت هذه الواحدة هي ليديا زميلته وصديقته... مهما كان الأمر فهي لن تقدّر شعوره أو تشعر بمعاناته.

وطالما أنه يعيش وحده في البيت فهو حر.

جلس يتأمل السائل البُني المائل إلى السواد وهو يتدفق من فم الجهاز ورائحته ملأت المكان وملأت رأسه، ما أجمل هذا الشعور! ولكن...

عاد إلى الشرفة، القمر انزاح قليلاً إلى الشمال، أدار مقعده باتجاهه، إذا صح أن نسمي هذا الشيء مقعدًا. إنه سرير وزنه خفيف أو لنقل إنه شيء ما يتخذ شكل الجسم كيفما أردت أن تشكله، فكلما تحرك داخله تشكل وراء ظهره مخدة وتحت أرجله مسندًا، ويمكنه أن يوفر أرائك لليدين وتكييفا حارًّا أو باردًا تبعًا للطقس. إنه جهاز ما لخدمة الجسد، لو كان يستطيع اختراع آلة تريح روحه المعذبة.

هل فكر في الروح؟ لا... هذا خاطر بدائي... يقصد لو كان هناك آلة تحرر النفس... الشخصية... نعم تحرر الشخصية من الأفكار الشيطانية الخاطئة...

عاد يذكر الشيطان، فليعترف لنفسه أن كل شيء ليس على ما يرام. الاعتراف بالمرض هو أولى الخطوات للتخلص منه. سوف يعترف بذلك لنفسه، ولن يدري أحد شيئًا. وغدًا عندما يشفى من هذه الحالة سوف يضحك كثيرًا. سوف يضحك من عارض التخلف الذي أصابه. أراحته هذه الفكرة كثيرًا. إنه قادم من العا لم الأسود، ولا بد أن يكون هذا هو السبب في مرضه، الإنسان ضعيف، ويومًا ما سوف يبتكرون دواءً ينسي الإنسان ماضيه وذاكرته الرجعية. ليتهم

يخترعون هذا الدواء الآن لأنه بأمس الحاجة إليه!

لا يدري كيف أغفى، مع أنه تقصد أن يتخذ وضعًا في جلوسه لا يشبه وضع النائم أبدًا (يده اليسرى تحت ذقنه واليمنى تسند اليسرى من الكوع، قدماه متجاورتان في وضع غير مريح على الأغلب). ولكن النوم أتى على الرغم من فنجان القهوة ومن وضعية المفكر...

كابوس رقم 1

كان جالسًا في بيت حقير، الجدران إسمنتية غير مدهونة، الأرضية مغطاة بمربعات بلاستيكية قديمة برتقالية اللون، في عدد من الزوايا انفصلت المربعات عن الأرضية بطريقة مائعة والطبقة المنفصلة مغطاة بالتراب، الأرضية المكشوفة تشبه الجدران: إسمنتية خشنة.

كان جالسًا بوضعية المفكر على كرسي خشبي صغير ليس له مسند للظهر. كان جسده صغيرًا جدًّا، جسد طفل في الثانية، لكن عقله كان مدركًا تمامًا. أمامه جهاز تليفزيون ملون. الجهاز يعرض صورة رجل أنيق، وجهه قاس، لكن تعابيره توحي بالثقة، الرجل يمشي بين حشود لا حصر لها. الرجل يبتسم للحشود ويلوح بيديه. الحشود تصفق. تغيب الصورة للحظات. يظهر المذيع معتذرًا، يبتسم مرتجفًا من الخوف ويقول: آسف.. عطل فني.. ونواصل الإرسال...

وصل الرجل إلى قاعدة عسكرية، صار لباسه عسكريًّا، نزل من السيارة، جموع من العسكر بانتظاره، لوح لهم، رفعوا بنادقهم الرشاشة وصاحوا بصوت واحد، الكلمات غير مفهومة. خطب الرجل فيهم محمسًا، عاد العسكر يصرخون، الكلمات غير مفهومة ولكنها تخرج من شفاههم وكأنها طلقات. إنها طلقات بالفعل تتجه نحو الشاشة. بدأ التليفزيون بالاحتراق. الغرفة امتلأت بالدخان. سوف يختنق. يجب أن يستيقظ بسرعة قبل أن تصل النار إلى قدميه. لا يستطيع أن يتحرك من مكانه. لا يستطيع أن يصرخ.. ها هي النار تلسع فخذيه...

استفاق.. القهوة قد انسكبت على ثيابه. مازال هنا على شرفة منزله والسهل ممتد أمامه. مازال في الجنة ولن يقصيه عنها أي شيء. يدخل الإنسان الجنة مرة واحدة ولا يخرج منها، هكذا قالت له أمه. إذن لم الخوف؟

أمه... لقد ماتت. لن يضطر إلى التفكير فيها. ماتت وحدها. لا أحد مسؤول عن الموت في العالم الأسود. أصابتها طلقة ما في حرب ما. كان ممكن أن تموت من سوء التغذية، من البرد أو حتى من القهر. أسباب الموت متوفرة بكثرة. عملت أمه طوال حياتها القصيرة على دفعه للخروج بأي طريقة، يجب أن يركز على التفكير أنه الآن في عالم آخر وأنه سعيد، سعيد، سعيد...

سوف يبدل ثيابه التي اتسخت من القهوة. غدًا يوم جديد. غدًا يتجه إلى عمله وكأن شيئًا لم يكن. قد يبدو عليه الإرهاق قليلاً؛ فهذه ليلته الثانية بدون نوم. يومان من العطلة لم يكفياه لأخذ قسط من الراحة، وهو الذي كان يتذمر من طول فترة العطلة الأسبوعية، لكنه لم ينم منذ خمسين ساعة، مع ذلك لا شيء يهم...

اثنان

اليوم وفي تمام التاسعة صباحًا يعقد مجلس العلماء.

المبنى البسيط للمجلس يتوسط إحدى القرى الجميلة. الإجراءات الأمنية شديدة ولكن لا يبدو حول هذا المبنى أي جندي مسلّح، أو فوهة مسدس، أو حتى عدسة تصوير.

يصل العلماء تباعًا وسط. حركة السير المعتادة في الشارع المحيط. بالمبنى. عالم الأحياء يستخدم دراجة هوائية، يصل، يضع دراجته في الموقف، يحرر بعض الأوراق من السلة المربوطة وراء مقعد السائق، يعدل وضع نظارته الطبية. يدخل المبنى مبتسمًا لعدسات مصوري الإعلام، يقف الحارس فيرد عليه بانحنائة تهذيب.

الحارس بواب عادي ويقوم بكل أعمال البوابين العاديين، وإن كان مظهره أنيقًا، فهو ليس أكثر أناقة من أي بواب آخر في العالم الأبيض.

يصل العلماء تباعًا. وسائط النقل الفردية المستعملة أشبه بدوابّ لطيفة. تتراوح أحجامها بين العربة ذات المقعد الواحد، وبين السيارات الفارهة التي لا يضاهيها في الذوق والرفاهة

أفخم القصور. لكل عالم شخصيته المميزة التي تتجلى بانتقاء سيارته. تقف السيارات في مكان مكشوف، يستطيع أي مار أن يعرف من وصل ومن يجتمع في الداخل.

ليس هناك أي شيء غير عادي في هذه القرية جعل الرأي العام في العالم الأبيض ينتقيها لتكون مقرًا لمجلس العلماء الحاكم. كل القرى الأخرى مشابهة لها في الدعة والرفاهية. العالم الأبيض يشمل تجمعات سكنية تمتد على مساحات واسعة. لا يسمح لأي تجمع أن يتجاوز مساحة معينة مقدرة علميًّا، ولا أن يتجاوز عددًا معينًا من السكان. هناك استثناءات تقررها بعض المجالس الحاكمة المحلية، ولكنها استثناءات على أي حال. ومع ذلك فلكل قرية طابع مميز، وتجري دراسة ذلك في بدء توسع القرية، وينظم التوسع على أساس ما. قد يكون الأساس قصة محلية أو أثرًا محليًّا، أو حتى أفكارًا شخصية محلية لها احترامها. ومن هنا ينتج تنوُّع غريب يجعل السائح يشعر أنه يتنقل بين لوحات متنوعة لفنان يهوى المفاجآت.

وغالبًا ما يجري انتقاء مواقع المباني الحساسة اعتمادًا على معطيات مختلفة، تتراوح بين تركيز الأهمية على موقع غير مشهور، وبين لفت نظر المواطنين إلى موقع غير مأهول.

غرفة الاجتماعات دائرية. كل ما فيها يتخذ الشكل المستدير، رمز التعادل ورمز الديمقراطية. المساحات الدائرية

متداخلة ومنسجمة وتعطي انطباعًا بأنها عشوائية. الهدوء والنظافة هما فقط. العاملان اللذان يضفيان رهبة على جو المبنى الداخلي. لا شيء يثير الأعصاب في ألوان وأثاث المبنى. لا شيء يمكنه أن يجعل الغضب والارتجال يأخذان طريقهما إلى نفسية أي عضو من أعضاء المجلس الحاكم.

الجلسة سرية، غرفة الاجتماعات معزولة عزلاً تامًّا عن بقية المبنى وعن بقية العالم بأجهزة إلكترونية معقدة. العلماء اكتمل نصابهم. ها هم يبدؤون الاجتماع عندما دقت الساعة التاسعة تمامًا.

موضوع الجلسة: متابعة مناقشة تقرير من عالم البيئة قدم في جلسات سابقة. التقرير قدم نتائج بحث بدأ فيه منذ سنوات عديدة لدراسة حالة انخفاض حرارة الجو النسبية فوق العالم الأبيض.

لقد بدأ انخفاض الحرارة النسبي يشكل خوفًا حقيقيًّا عند مسؤولي العالم الأبيض. وعلى الرغم من أن هذا الانخفاض لم يشكل بعد أي نتائج عملية على أي صعيد، إلا أن ملاحظة أن درجة حرارة البحار انخفضت بمقدار عشر درجة مئوية، وحافظت على هذا الانخفاض لمدة ثلاث سنوات متلاحقة خلق شيئًا من الذعر وعدم الأمان بين المواطنين. وخلال شتاءين متلاحقين عانى العالم الأبيض من موجتين من الصقيع لا تتكرَّران بشكل طبيعي إلا مرة كل ثلاثين عامًا.

لقد بدأت الدراسات تتلاحق حول هذا الموضوع. وتراكمت التقارير على اختلافها فوق مكاتب العلماء - الحكام، وأصبحت هذه المشكلة لغز الساعة.

اسْتُقْرِئَتِ البحوث المقدمة، واسْتُخْلِصَت النتائج، وأُوجِزَتِ المشكلة، وتلخَّصت التبريرات في الأذهان. وقدّم التقرير على الصورة التالية:

"إن الظروف المناخية التي يعيش فيها العالم الأبيض تتعرّض إلى تغيير سببه ميل أشعة الشمس. إن الزاوية التي تستقبل بها أراضي العالم الأبيض الشمس هي زاوية غير مناسبة لاستمرار الحياة. ومن الآن فصاعدًا سوف تبدأ درجات الحرارة بالانخفاض تدريجيًّا. وخلال بضع عشرات من السنين فقط سوف تصبح الحياة مستحيلة في بعض البقاع المتطرفة في أقصى الشمال.

وأما في معظم أراضي العالم الأبيض الأخرى، فسيسود مناخ منخفض الحرارة قد يؤثر بشكل منظور على نشاط السكان. وقد يتبع ذلك ضررٌ في مصادر الطاقة الطبيعية، ونقصٌ في مخزونها. وهذا يجعل العالم بحاجة إلى مصدر طاقة خارجي خلال فترة لا تزيد عن خمسين عامًا، مع الأخذ بعين الاعتبار كل مخزون الطاقة المتوفر حاليًا، وذاك الذي يمكن توفيره خلال الفترة القادمة قبل حدوث النقص.

ومقابل ذلك سوف يؤثر هذا الانحراف في زاوية الشمس

تأثيرًا معاكسًا على الطرف الآخر من الكوكب، وسوف تزداد الحرارة بشكل قد تحدث معه تطورات خطيرة.

هذا الطرف من الكوكب وهو غير مأهول حاليًا بسبب كونه مشكلاً من بحار وجزر بركانية متفرقة سوف يصبح بدوره أكثر توحشًا ورفضًا لكل أشكال الحياة من ذي قبل، ولكنه سوف يؤمن توازنًا مناخيًّا يقي الكوكب من كارثة طبيعية شاملة.

يبدو أن سلوك أشعة الشمس قد درس بحسابات فلكية معقدة، خرج منها الاختصاصيون أنه لا خوف على توازن المجموعة الشمسية - على الرغم مما سبق - إنما يجب مواجهة الظروف الجديدة، واعتبارها حتمية بالنظر إلى كل ما ظهر من تغير مناخي حتى الآن.

ويبدو أن هناك مكانًا واحدًا يمكن أن يؤمن استمرار الحياة بشكلها الحالي لسكان العالم الأبيض. إنها الأراضي التي تمتد عليها دويلات العالم الأسود بشكل عام، وباستثناء بعض البقع المتطرفة التي تمتد ضمن الشريط الذي سيتعرض لانخفاض الحرارة التدريجي.

أراضي العالم الأسود تمتد مثل حزام في منطقة سوف تستقبل أشعة الشمس بالزاوية المثلى.

المناخ، مصادر الطاقة الطبيعية، توزع كتل اليابسة والبحار، كل ذلك سوف يستفيد بشكل أمثل من مصدر الطاقة الكوني: "الشمس".

كابوس رقم 2

الفراش قاس تحت جسده، الليل بارد، قارس البرودة، يحاول أن يركز تفكيره في تمرين رياضيات استعصى عليه حله قبل النوم. يحاول أن يتذكر معطيات التمرين، عبثًا، لا يدري في أي مرحلة دراسية هو. فجأة يصرخ جرس الباب وسط هدوء المنزل النائم، يجد نفسه وراء أمه وهي تفتح الباب. الإضاءة خفيفة جدًّا، لا يكاد يميز الأشياء. امتلأ الفراغ الضيق بالبساطير والبنادق الرشاشة، رفع رأسه قليلاً، الخوذ العسكرية تغطي أعينهم، انزاحت أمه إلى اليمين بتأثير لكزة من بندقية، انزاح لا شعوريًّا متفاديًا ضربة كانت موجهة إلى رأسه.

الجنود انتشروا في كل أركان المنزل الضيق، قلبت الكراسي، فتحت الخزائن، مازال الضوء خفيفا جدًّا ومن الصعب تمييز الأشياء، لكن أمه كانت أمامه لم يتغير مكانها منذ بدء الهجوم، كانت تهمس في أذنه عبارات مقتضبة لكن تأثيرها عليه كان ساحرًا. كانت كلما همست له بكلمة شعر بأنه اقتلع من هذا المكان، وأن الأنوار أضيئت، وأن كل شيء على ما يرام رغم أنف الجنود.

البيت ضيق أصلاً، ولكنه بدأ يضيق أكثر. الجدران تقترب من بعضها، الجنود في مكان ما في المطبخ يرمون القدور على الأرض محدثين ضوضاء رهيبة. الضوضاء أصبحت مرتفعة ولم يعد قادرًا على تحمل المزيد...

استفاق من نومه بقفزة واحدة، المنبه الملحق بالسرير يعزف لحنًا انتقاه بنفسه لإيقاظه في الصباح. لم يشأ أن يسكته كالمعتاد، بل عاد وتمدد وأخذ يستمع إلى اللحن محاولاً إعادة ضبط نبضه الذي كان يدوي كالطبول في رأسه، ثم قرر أن الوقت صار مناسبًا للنهوض، رفع صوته قائلاً:

- لقد استيقظت من النوم، شكرًا.

يجيب الصوت بنبرة لا إنسانية:

- هل أنت متأكد أنك لن تعود إلى النوم؟
- نعم، شكرًا.
- نبرة صوتك ليست كالمعتاد... تأخرت في الرد عن وقتك المعتاد... قد تكون بحاجة إلى مراجعة طبيب... إذا لم تتحرك فورًا لن تلحق بالعمل في موعدك... هل تريد أن أتصل بطبيبك لأنظم لك موعدًا؟
- لا شكرًا.

ترك الفراش بسرعة ليسكت الصوت اللاإنساني، فهو لن يتوقف عن العمل طالما بقي في السرير، حتى المنبه الآلي شعر بتعبه. لن يدع القلق يتسرب إلى نفسه منذ الصباح، فأمامه يوم عمل شاق. كان يرغب في الاغتسال بالماء. دخل إلى الحمام وسيتأخر لذلك قليلاً عن موعد عمله ولكن لا بأس. أجرى الماء الدافئ على جسده، إنه عادة يدخل إلى جهاز التنظيف

بالإشـعاع اختصـارًا للوقـت، ولكـن لا بـأس إنها حالـة طارئة.

تـرك المنـزل شـاعرًا بأنـه ولـد مـن جديـد، رائحـة صـابونته الخاصـة تحـوم حولـه مثـل سـحابة شـفافة، ألا يبـالغ قلـيلاً في استعمال العطور؟ سوف يدرس هذا الموضوع فيما بعد.

السيارة تنتظر بهدوء تحت ضوء المرآب الخافت، شعر بأنها تبتسم له، يلوح بيده أمام لوحة التعرف الإلكتروني على طرف المرآب، يرتفع البـاب بلزوجة ثعبان مسربًا أشعة شمس صباحية دافئة، هـذا طقس يذكره بصباحات بلاده، لماذا غمره السرور من هذا الخاطر؟

ثلاثة

افتتحت الجلسة. لا أثر لأي انفعال على الرغم من خطورة الوضع. العلم يحل كل المشاكل أو على الأقل هذا ما يؤمن به الجميع. لم يسبق لأحد أن اشتكى من أي عارض إلا سمعت شكواه في حينها وفضت، ويبدو أن كلمة "مصائب" فقدت كثيرًا من فحواها. وهكذا بدأ الاجتماع بشكل روتيني أكثر من أي وقت مضى.

- أيها السادة، أنا جاهز اليوم للاستماع إلى الحلول التي اقترحها كل منكم عبر كمبيوتره. المطلوب عدم الإبطاء في اتخاذ القرار المناسب.

كان المتكلم هو رئيس المجلس الذي ينتخب من قبل الأعضاء لفترة محدودة من الزمن، وذلك حسبما يقترحه الكومبيوتر من الأسماء، والذي ينتقي الأشخاص في كل فترة زمنية تبعًا لحجم إنجازاتها ومدى ما تقدمه من اكتشافات، وأيضًا تمشيًّا مع دورة نشاطها العاطفية والحياتية ومدى استقرارها النفسي.

السيد كبير علماء النبات:

- كل ما عندي يؤكد كبر حجم الخسائر الناجمة عن الظرف الجديد، وقد اقترح الكومبيوتر عدة حلول لتعويض الفاقد الحراري الكبير. رأيي الشخصي عدم جدوى هذه الحلول من الناحية الاقتصادية، وعلى أي حال أدرج لكم قائمة مجدولة زمنيًا، وألفت النظر إلى إمكانية عدم تحقق تكافؤ زمنيّ بين الحلول والتغير المناخي، وبالتالي توقع فترة زمنية يحدث فيها بعض التقشف...

صوت ما طنّ في أرجاء القاعة الصامتة دون أن يحدث صدى، صوت لا إنساني منبه لكنه غير مزعج، إنه المنبه الذي يستخدمه الأعضاء عندما يحتاجون إلى المقاطعة. استدارت الرؤوس نحو الرئيس الذي استطرد قائلاً:

- اقترح أن يتضمن تقريرك تحديدًا رقميًا للنقص في الغلال الزراعية في الفترة التي تتوقع فيها حدوث التقشف تسهيلاً للمقارنة.

بدأ الرجل اتصاله فورًا مع الجهاز أمامه محاورًا إيّاه بالأحرف المطبوعة؛ حتى لا يزعج الآخرين بالصوت، ومتلقيًا الردود عن طريق سماعات ألصقها على أذنيه في حين انتقل الحديث إلى عالم البيئة.

- أيها السادة، التقرير الذي بين أيديكم يستعرض بالتفصيل ما سيلحق بالطبيعة المحيطة بنا من أضرار،

والحل المقترح لتفاديها في حينها، ولا أخفي قلقي عنكم؛ فليس بوسعي في المستقبل السيطرة على الأمور مهما فعلت، ففي اللحظة التي تبدأ فيها البيئة فقد توازنها، فليس باستطاعة أي كائن استرجاع الصورة الحالية، إنما من الممكن الحصول على بيئة أخرى مختلفة بغض النظر عن مجموعات نباتية وحيوانية لن تكون موجودة، وما يلحق ذلك بالنسبة لفقدان الرفاهية البشرية.

- الجميع اليوم متفقون على إرعابنا بكلمة التقشف وفقدان الرفاهية. تفضل... السيد كبير علماء الطاقة والثروات الطبيعية...

- بالنسبة لي، هي كلمة واحدة، كل ما يقترحه السادة من حلول غير منسجم مع أكثر التقديرات تفاؤلاً بالنسبة إلى مخزن الطاقة المتوفرة لدينا، وهذا يشمل كل المصادر التي نستقي منها، أقصد: الوقود السائل، الطاقة الشمسية (مع اعتبار النقص التدريجي)، الطاقة النووية والطاقة الإشعاعية (وهي الأخرى في نقص تدريجي). يبقى لدينا ممتلكات العالم الأسود، وهي في معظمها عبارة عن وقود سائل، المستثمر منه حاليًا لا يكفي لتعويض النقص، وغير المستثمر لا يمكن تقدير كمياته إلا بالاستناد إلى التاريخ الجيولوجي. وعمومًا

فالتقديرات المحسوبة على هذا الأساس ليست موثقة علميًا. ولقد توصلت شخصيًّا إلى حل مبدئي لا بد من مواجهته حاليًا: سوف نكون مضطرين في جميع الحالات إلى وضع اليد على كل مصادر الطاقة في العالم الأسود. اختصارًا للوقت أحيل البت في الأمر إلى كبير علماء الإنسانية لتقرير ما يمكن عمله.

- السيد الرئيس... السادة العلماء... لم أكن منذ البداية أتوقع خلاف هذا الحل، وكما تعلمون جميعًا لقد ضمنته في أغلب التقارير التي قدمتها للمجلس خلال الفترة الماضية. وضع اليد على مصادر الطاقة في العالم الأسود، قد يكون تعبيرًا غير علميّ على الإطلاق، ما يصح قوله هنا الاستيلاء على هذه المصادر، وأنا أضيف لاختصار الوقت أيضًا (حسب تعبير السيد كبير علماء الطاقة) أن الاستبلاء على العالم الأسود ككل هو الحل الأمثل لمشكلتنا. لا أريد أن أتدخل في اختصاص غيري، ولكن المحافظة على حضارتنا العظيمة تقتضي أولًا المحافظة على الظروف المحيطة بنا، وإلا لن نحصل على المدى البعيد نفس المنجزات.

رن الصوت اللاإنساني...

- أيها السادة، التقرير الذي طلبه السيد الرئيس أصبح جاهزًا، سأضع المطبوعة بين أيديكم.

تداول العلماء الصفحات المطبوعة فيما بينهم، وأخذ الجميع يقرأ بهدوء.

مرت لحظات، وقف بعدها الرئيس بحركة انفعالية قل أن يأتي بمثلها، تردد قليلاً وهو يتابع النظر في الأوراق أمامه، ثم قال:

- أيها السادة العلماء، لقد تأثرت كثيرًا وأنا أقرأ هذه الأوراق. أصدقكم القول لقد مرت فترة طويلة على آخر مرة شعرت فيها بهذا الشعور. أشعر أنني وإيّاكم وشعبنا العظيم في ورطة حقيقية. لا أستطيع أن أحمل الناس فوق طاقتهم، هذه مسؤوليتنا جميعًا، كيف نواجه الناس وقد أولونا كل ثقتهم؟ ألسنا الأمناء على حضارة فنيت أجيال عديدة في بنائها؟ أنا لن أقف أمام الشعب لأعلن له أن حضارته عجزت عن ضمان استمرار حياته السعيدة المرفهة، ولو كان وراء ذلك أعقد الظروف. ونحن أولاً وأخيرًا لم نكن المسؤولين عن خلل جغرافي بحت.

- لا مفر من الاستيلاء على العالم الأسود في غضون شهور، وإعادة بنائه وفقًا لنماذجنا الخاصة قبل أن ننتقل جميعًا إلى هناك.

- أيها السادة، هذا رأيي النهائي... لن أؤجل القرار في هذا الأمر فترة أخرى. فهل تسمحون بإجراء الاقتراع من فضلكم؟

أربعة

المطر يهطل منذ الصباح، اتخذ الطريق الصاعد إلى مأواه في الجبل القريب، الماسح الآلي لزجاج السيارة يعمل بسرعة لا يستطيع معها تمييز مساره، ويبطئ أحيانًا عندما تخف غزارة المطر المنسكب فوقه. القائد الآلي يشق طريقه عبر المنحنيات التي تتسلق الجبل متبعة انحداره الطبيعي. لاح له بيته الصغير بين سحابات المطر الشفافة وكأنه يتراقص، ارتفع غطاء المرآب في اللحظة التي بدأت السيارة فيها تبطئ سرعتها استعدادًا للتوقف. توجهت السيارة إلى مكانها، ترجل بهدوء بينما أضيئت الأنوار من حوله.

صعد السلم الداخلي ودفع الباب ليجد نفسه في صالة المعيشة وقد أشعلت النار في الموقد وأضيئت الإنارة. لقد رفع بنفسه مستوى الإنارة في البيت، فما إن تظلم الدنيا بعد الظهر حتى تتلألأ كافة أشكال وأنواع المصابيح الكهربائية، لكنه اليوم يريد مشاهدة المطر. بدأ يخلع ملابسه ويعلقها بهدوء في الخزانة، عاد إلى غرفة المعيشة، أطفأ كل الأنوار وضغط على أحد المفاتيح؛ فأخذت الستائر تنزاح ببطء عن بلور الواجهات الزجاجية التي تشكل معظم الجدارين المواجهين للموقد، كاشفة

بانوراما تمتد حتى الأفق لمدينة تنام على سفح جبل صغير، وقد تشعبت المساحات الخضراء من حولها، لا يحدها سوى صفحة الماء في البحيرة القريبة وقد اتخذت لونًا رماديًّا كلون السماء. عاود المطر هطوله بعد استراحة قصيرة، وتراجع نحو مقعد وثير فألقى بنفسه عليه دون أن يحول عينيه عن النوافذ، وبدأ المساء يهبط بهدوء، وكلما دمست الظلمة في الخارج ازداد تألق ألسنة النار أمامه بضوء متراقص برتقالي...

كابوس رقم 3

البيت معبد خلفه الأقدمون، السقف مرتفع وبعيد جدًّا، أضواء الشموع تتراقص مطيعة في كل لحظة تيارات هوائية غير مرئية تغير اتجاهها بسرعة جنونية. الأرض الصلبة تحت البساط الرقيق الذي يجلس عليه مع أمه باردة... باردة جدًّا، أصوات انفجارات متتالية تصل من الخارج، وهجها الأصفر يضيء بشكل خاطف المكان؛ فتظهر خيالات أعداد هائلة من البشر قد التجأت إلى هذا المكان أملاً أن يكون أكثر أمنًا، أصوات طائرات تقترب بسرعة وأصوات ابتهالات توشوش أذنه. أصوات الطائرات ترتفع وأصوات الابتهالات تتشعب وكأنها تأتيه من عدة مصادر، يحاول الالتصاق بأمه، تضمه بقوة، يشعر بالراحة قليلاً، ثم يشعر بالغبطة لكن الأصوات لا تتوقف، ويبدأ القصف، ويقترب السقف البعيد هاويًا تجاهه...

يسـتيقظ بحركـة مباغتـة، يكـبس مفتـاح الأنـوار بجهـاز التحكم، تسبح الصالة بالضوء، يتنهد غير مصدق أنه هارب من حلم، مجرد حلم. في الخارج تخيم الظلمة، المدينة تبدو أبعد من المعتاد تحت ستار المطر الليلي، أضواؤها الخافتة سرابية تمامًا. أغلق الستائر وهو يتابع بنظره نقطة ضوء متحركة ربما تكون لأحد الزوار الذين يستقبلهم جيرانه على إحدى التلال حوله.

يفكر بإعداد عشاء دسم والتهامه أثناء متابعة التليفزيون، صوت ينبه إلى سيارة تدخل حدود ملكه، يضغط زر التحكم بالشاشة الإلكترونية؛ فتظهر ليديا وراء مقودها ملوحة بيديها الاثنتين وقد أنارت وجهها ابتسامة عريضة. يفتح باب المرآب ويركض لاستقبالها مستغربًا قدومها بلا موعد مغتبطًا من فكرة قضاء سهرة مع الفتاة دون تخطيط... هو تأثير المطر... كما يحلو له دائمًا أن يفسر الأمور... فلتتأجل الكوابيس بضع ساعات أخرى... مبارك أنت أيها الجو المطير!

أخذها من يدها وأجلسها على كنبة في مواجهة الموقد، واتخذ مكانه مقتعدًا الأرض مواجهتها وقد استند بذراعيه على كرسيها، وبدا يتأملها شاردًا. عيناها تلتمعان بمكر غريب، لقد حددت طرفيهما بلون غامق، ووجهها يتفجر رونقًا، وشعرها أطلق من عقاله فجاء يهاجم صفحتي وجهها وكأن خصلاته تتسابق لتظهر كل واحدة لمعانًا أشد من الأخرى.

- كم أنتِ جميلة! يخيل إليّ أنني أراك لأول مرة.
- ما أشد سذاجة الرجال! يكفي أن تقف الواحدة قليلاً أمام المرآة حتى يكتب كل منهم فيها قصيدة. لم تسألني ما سبب مجيئي هكذا دون موعد! ألم أثر فضولك قليلاً؟!
- لا وقت للفضول، أقصد أنا سعيد لأنك أتيت، وهذا يكفي.
- عندما رأيت البيت من بعيد ظننت أن عندك احتفالاً، فالأنوار كلها...

قاطعها وهو يقف بحركة واحدة مشيراً بكفه:

- انتظري لحظة... إنه عيد ميلادك... آه كم أنا فاشل! لقد ترقبت هذا اليوم طويلاً وعندما أتى نسيت المناسبة... انتظري هنا أنا عائد... لا تتحركي...
- تعال... إلى أين تذهب الآن؟

ولكنه اختفى في طريقه إلى غرفة النوم تاركها في حيرة، بينما بدأت تتلفت متأملة تفاصيل البيت الحميمة التي تثير في نفسها القلق مثلما تثير النشوة. عاد حاملاً لفافة حمراء كبيرة، وضعها قربها، نظرت إليه متسائلة بعينيها.

- هذه هديتي إليك... كنت أنوي إعداد حفل كبير، لا أدري...

- أنت تعلم أنني لا أحب الاحتفالات، لقد هربت من بيتي لكي لا يتصل بي أحد، كان الأحرى بي أن أدعوك لو أردت أن أحتفل.
- لماذا لم تفعلي؟
- أردت أن أمضي معك هذه الليلة، أشعر أنها الوسيلة الوحيدة التي ستسعدني.

خمسة

كابوس رقم 4

النساء يصلن، الواحدة تلو الأخرى، البيت ضيق مثل عادته وهو في كل كابوس يضيق عن سابقه، من يعلم أين ستجلس كل النساء؟

النساء يجئن بشكل متواصل، وهو طفل صغير لكنه في كل مرة يتجه فيها ليفتح الباب للقادمات يكبر قليلاً. النساء اجتمعن في مكان واحد، غرفة واحدة، لم تقبل إحداهن أن تجلس في الغرفة الأخرى. أمه في مكان ما تهيئ الطعام للجمع الغفير، قرر أن يتجه إليها، ضاق صدره فجأة بالكثرة. أمه تهيئ الطعام لكنها سارحة في ملكوت آخر، اكتشف أنهما لا يقفان في مكان واحد، لكنهما متفاهمان على مستوًى ما، اطمأن قليلاً.

عاد ليجد أن النساء مازلن هنا، أصواتهن مختلطة لدرجة أنه لا يميز سوى كلمات متفرقة لا رابط بينها، بدأ يحدق بهن، إنهن متفاهمات بينهن. حاول أن يصغي جيدًا لكنه لم يتوصل إلى شيء. شعر بالإعياء، غاب عنه كل شيء، ثم عادت

الصورة تظهر، النساء حول الطعام ولم يعد يسمع أي شيء غير همهمات. الطعام كثير، المائدة كانت ملأى، لكنه لم يعد يرى إلا الفتات. عادت النسوة إلى الحديث وكان بوسعه أن يرى الطعام داخل أجوافهن. نقل عيناه بينهن وهو ينظر إلى أجوافهن، كان الطعام يثير اشمئزازه وهو يتحرك بلزوجة داخل بطونهن. فجأة شعر برغبة شديدة بالتقيؤ، ازدادت الرغبة، واستيقظ...

هذا ما كان يخشاه حقًّا. لقد نام هذه المرة على المائدة وهو ينتظر وصول ليديا خلال فترة استراحة الغداء. نظر حوله، يبدو أن أحدًا لم ينتبه إليه. تنفس الصعداء.. رأى ليديا تدخل المطعم وتبحث عنه بعينيها فأومأ إليها بيده. اتجهت نحو طاولته وجلست. كانت كعادتها معتدلة المزاج، مشرقة الطلعة. كم يبهجه التطلع إليها! ليست جميلة ولكنها مريحة إلى أقصى الحدود.. تريحه صحتها ولون بشرتها، يريحه هدوء عينيها، تريحه قسماتها التي تعودت على الابتسام فقط، تعودت أن تكون راضية منذ ولادتها. شيء ما في وجهه جعلها تشعر بما يجول في خاطره.

- لماذا تنظر إلي هكذا؟ أكاد أشعر بالخجل.
- أنا آسف.
- أين طعامك؟
- سوف آتي به حالًا. ماذا تأخذين؟

- مثلك تمامًا.

- أنا ذاهب لإحضاره.

وقـف ينتقـي الأصـناف آمـرًا الطبـاخ الآلي بإعـدادها، وخـلال الثـواني القليلـة الـتي يسـتغرقها إعـداد الطعـام السـاخن، انتقـى مشـروبه مـن عصـير البرتقـال الطـازج. مـن الطـرف الثـاني للطبـاخ الآلي تنـاول صـحيفتين وضـع علـى كـل منهمـا كأسًـا، وعـاد إلى ليـديا الـتي كانـت تبتسـم لـه مـن بعيـد. بـدأ بالطعـام بصـمت. كـان هادئًـا ومطمئنًـا علـى عكـس أحوالـه في الأيـام الأخيرة، وفجأة خرج صوتها خفيضًا مشوبًا بحيرة وتردد:

- أريد أن أقول لك شيئًا يخصك.

- تفضلي.

- أنت متعب ولا أدري سببًا لذلك. ألست أقرب الناس إليك؟

- لماذا تسألين سؤالاً تعرفين إجابته؟

- لأنـني حـائرة.. أشـعر أنـك بعيـد عـني.. بعيـد وكأنـك تعيش في عالم آخر..

قاطعهـا بعصـبية وهـو يكـاد يصـرخ: - لا تقـولي ذلـك.. أرجوك!

ذهلـت الفتـاة.. هـذا الرجـل قـادم فعـلاً مـن عـالم آخـر، ولكنهـا تنسـى هـذا التفصـيل، عاطفتهـا نحـوه جارفـة. هـا هـو يخيفها اليوم، وهي تريد أن تساعده لا بد من ذلك مهما كلف

الأمر. إنها تجهل كثيرًا حياته، وهو لا يحب الحديث عن ماضيه، قد تكون هذه هي النقطة التي تعذبه وهو إنسان في النهاية مهما كان مستوى ذكائه، كيف تبدأ معه؟

- أنا آسف، الحق أني متعب، ولا أكاد أنام من الليل إلا قليلاً.
- لماذا؟
- توقعت أن تكوني عارفة بالإجابة. أنا مشغول البال بشكل مستمر، لا أستطيع منع نفسي من التفكير في هذا البحث الذي نطوره، الباكتيريا تلتهم كل شيء... أليس هذا مذهلاً؟
- ألم نكن نعمل لنصل إلى هذه النتيجة؟ كنت سأذهل حقًّا لو أننا بعد ثلاثة أعوام من العمل المتواصل في تطوير السلالات لم نتوصل إلى شيء.
- أدري... كنت أفكر في رفع تقرير لكبير علماء البيئة بشأن هذا الأمر.
- رفع تقرير في غير الموعد المحدد؟ مازال أمامنا وقت قبل البدء بإعداد النتائج.
- إنه تقرير استثنائي بشأن مشكلة انخفاض الحرارة. أقصد الحل المطلوب اقتراحه في النداء الذي وجهه إلينا كبير العلماء منذ عشرة أيام.
- بماذا تفكر بالضبط؟ لا أكاد أفهم!

- أفكر بطلب معونة لمساعدتنا على تحويل الباكتيريا إلى نوع من السم، يمكنه أن يحلل الجسد الآدمي تقريبًا. لقد طلبت معلومات تكنيكية من الكومبيوتر، وسوف يوافيني بها قبل أن ننتهي من غدائنا هذا.
- لم يخطر ببالي شيء مما يدور في ذهنك... أليس هذا غريبًا... ونحن لا نكاد نفترق؟
- ذلك أنك مبرمجة كليًّا. كنا نعمل في اتجاه معين، أقصد كنا نحاول تطوير السلالة من أجل ما تعودنا أن نسمّيه "المبيد الحي"، وبالتالي أنت لا تفكرين إلا في هذا الأمر. أما أنا...
- أنت من عالم آخر، ولا تقاطعني، لم تكن علومك التي تلقيتها موجهة ولا مخصصة، وبالتالي فقد اطلعت على أشياء كثيرة لم تكن بحاجة إليها. أفهم ذلك.. أكبر ما اكتسبته من تجربتك هو القدرة على التعميم. وأكبر ما خسرته هو تبديد وقت طويل قبل أن تصبح فعالاً. ها نحن شريكان في عمل واحد مع أن الفرق بين عمرينا عشر سنوات.
- هل أنت غاضبة؟
- أبدًا لم أغضب.. كنت أقرر واقعًا.
- ذلك أنني لم أكن أحب أن أفعل شيئًا دون أن أطلعك عليه فنحن شريكان.

- أنا التي دفعتك لتطلعني عليه.
- لأنني أحب أن تسأليني قبل أن أبوح بنفسي، أحب أن تشعري بي.

نظرت إليه بإعجاب. إنه يستخدم عاطفتها في التأثير على منطقها، لكنها كانت راضية عن طريقته. ها هو يهرب كعادته ويفاجئها بعرض جديد.

- وهل يتطلب التفكير بهذا التقرير كل هذه العصبية؟ أم إنك متردّد ولم تصل إلى قرار بعد؟
- بالعكس، لقد وصلت إلى القرار، وبدأت فعلاً بسؤال الكومبيوتر عن الدعم والتطوير.
- وصلت إلى قرار ومازلت متعبًا.
- الآن لم أعد متعبًا؛ لأنني كما أسلفت: بحت لك بكل شيء.
- أنا مسرورة لذلك، وأتمنى أن تنام جيدًا هذه الليلة.

ابتسم لها بهدوء وابتسمت له بحب، إنها تحبه ولولا ذلك ما سكتت وتظاهرت بالرضى. نهضا بحركة واحدة واتجها نحو المخبر، عشهما المتعب كما يحلو له أن يسميه، وكل منهما قد بدأ يستجمع أفكاره الخاصة.

أخذ يتلقى سيل المعلومات التي أفضى بها الكومبيوتر، وأخذت تراقبه من وراء مكتبها وهو يحاول كعادته أن يستوعب كل شيء دفعة واحدة. بعد ربع ساعة تقريبًا ترك مكتبه حاملاً

مجموعة أوراق اختارها بعناية. تناول الأوراق بصمت، تصفحها بينما استدار نحو النافذة متأملاً الحديقة الخلفية. ما أجمل هذا المنظر وما أحراه بالاحتفاظ بهذه السعادة طويلاً، طوال العمر، عمره وعمر أولاده من بعده! لا بد من تحرير هذا التقرير بأسرع وقت ممكن.. أسرع وقت.. قبل أن يغير رأيه.. عاد إلى مكتبه وبدأ يحاور شاشته...

السيد كبير علماء البيئة:

تعقيبًا لندائك الأخير بشأن جمع الآراء حول الحلول المقترحة للتخلص من العنصر البشري بطريقة مريحة في العالم الأسود، ألفت نظركم إلى ما توصلنا إليه أنا والسيدة ليديا كنتيجة للبحوث التي نجريها من أكثر من ثلاث سنوات على الباكتيريا المسماة...

ستة

كابوس رقم 5

الوقت قبل مغرب الشمس، كان عائدًا من المدرسة يتأبّط كتبه، على مقربة منه تمشي دانا بثوبها المدرسي الرث، الدنيا شتاء والمساء ينذر بأن يكون قارس البرودة. يمر رجل بلمح البصر قائلاً: "عندي وقود للمدافئ، اللتر بخمسين". يناول كتبه لدانا ويسرع للحاق به، ليقوده إلى مخزن قديم جدرانه مشققة، يفتح بابًا خشبيًا ويدخله إلى غرفة غير مضاءة، عيناه ترياه في الظلام جيدًا، الرجل يفاوضه على ثمن الصفيحة التنكية التي صب له فيها السائل المخضر، يقسم له أنه لا يحمل سوى الخمسين التي أعطاه إياها، الرجل يسب ويلعن هذا الزمان، وهو يحاول استرضاءه عبثًا. بدأ يرجوه بأن يقبل ساعته رهنًا لحين عودته بالنقود، الرجل لم يعد يسمعه وكان مشغولاً بمعالجة الأقفال وراءه، الرجل يدفعه إلى الخارج وهو يفكر أنه لا يريد أن يمضي ليلة أخرى بلا تدفئة. فاجأه شعور بالنقمة العارمة، تذكر صوت أمه: "لا تقاوم أحدًا، اعمل لنفسك، اعمل على الخروج من الجحيم فحسب، المقاومة لا تجدي عندما يكون

عدوك كل الكائنات الحية الأخرى، تصبح عدو نفسك.. عدو نفسك.. اهدأ قليلاً، لكن قبضته المكورة خانته، وجد نفسه يرفعها ويهوي بها...

- اهدأ، اهدأ...

صوت ليديا بعيد وقريب، رفع إليها عينين منهكتين، استغرب وجهها الهادئ وسرعان ما تذكر كل شيء، الآن ما عساه أن يفعل؟

سبعة

مكتب رئيس العلماء. الوقت ظهرًا، وبالتحديد استراحة الغداء، الرئيس جالس وراء مكتبه وقد اختفى وجهه الصغير وراء صحيفتين مندمجًا بالقراءة، وكبير علماء الإنسانية يراجع كتيبًا صغيرًا بين يديه على المقعد المحاذي للمكتب. ارتفع صوت الرئيس متسائلاً:

- استمع إلي جيدًا، أنا لا أحب التعامل مع هذا الصنف من البشر... ألا يمكننا أن نحل المشكلة دون الرجوع إلى المسؤول العسكري؟
- لا أدري.. الحل المقترح وافق عليه المجلس بالإجماع، وليس التنفيذ مسؤوليتي على كل حال.
- نعم، ولكن ألست صاحب فكرة الاتصال بالعسكر؟
- أليس هذا ما يفعله الناس عندما يفكرون بالاستيلاء على ممتلكات الآخرين؟
- لا أرغب بأي حال في التورط في حرب.
- لن تكون حربًا... إنه اعتداء فحسب.
- وهل تظن أن الأمر يمكن أن يحسم بهذه الطريقة؟

- هـذا يتوقـف علـى الخطـة الـتي سيضـعها المجلـس العسكري.
- لـن أوافـق إلا علـى خطـة تضـمن لنـا السـلامة. لقـد وصلني هـذا التقرير، إنـه يتحـدث عـن نـوع مـن السـم يستطيع تحليل الجسد البشري كليًّا.
- مذهل! كيف يعمل؟
- انظر جيدًا، يبدو أنه يجب تناوله عن طريق الفم، يحدث الموت خلال ثوان نتيجة توقف عملية التنفس، ثم تعمل الباكتيريـا الداخلـة في تركيبـه علـى التهـام الجسـد بسـرعة عجيبة. إنها باكتيريا تم تطويرها خلال ثلاث سنوات.
- وبعد؟ ماذا يحدث للباكتيريا؟
- تتجمع في مستعمرات ضخمة على شكل خميرة، ويتم التخلص منها بمبيد كيميائي.
- مبيد كيميائي؟ هل جسدنا بهذه الهشاشة يا عزيزي؟
- ها هو التقرير أمامك.. اقرأه..

تناول الورقتين وأخذ يقرأ بهدوء. ثم قال مهمهمًا:

- مـع ذلـك يجـب أن يضـع المسـؤول العسـكري الخطـة الملائمة.
- هذا السم يسهل عليه الأمور.
- قل إنه سيقوم بالمهمة بدلاً منه. سوف تكون عملية نظيفة.

ثمانية

هناك شرفة ضيقة كان يحب أن يطل منها على البحر أمامه. حمل فنجان الشاي وخرج من الباب ووقف مستندًا إلى السور الزجاجي الأنيق. ألوان الأخضر المتدرجة ومن ورائها الكورنيش المزين بالورود ثم البحر المنسفح الأزرق مكملاً عمق اللوحة، كل ذلك أوحى له أنه موجود في إطار ضيق.

البحر في بلاده متسع أكثر ويعطيه إيحاءً باللامحدودية، ربما كان هذا التأثير بسبب بدائية الطبيعة هناك. أما هنا فكل شيء موضوع في اللوحة ضمن حيزه الخاص. أعاد النظر في الحديقة، أخضر، بُني محمر، زيتي، الورود بكل درجات الأحمر، البحر أزرق. رفع رأسه إلى السماء، لماذا تبدو السماء قريبة؟

شعر بالاختناق مرة أخرى...

يجب أن يعود إلى الداخل فالطبيب بانتظاره.

إلى متى يستمر في اللعب ضمن هذه المسرحية الصعبة؟ منذ فترة طويلة بدأ العذاب النفسي يتحول إلى لعبة. الطبيب يحاول أن يغير أسلوبه في كل مرة. إنه في الحقيقة يستلذ بمتابعة التفكير ومحاولة قراءة أفكار الطبيب وإعطائه أجوبة منطقية لا

علاقة لها بشعوره الخاص. يجب ألا يشعر الطبيب بما يجول في ذهنه المتعب.

في البدء كان اختراعه الذي أراد تقديمه إلى مجلس العلماء، والخدمة التي أراد بها التعبير عن امتنانه لهذا العالم الذي أعطاه الأمان، ثم حصل شيء ما جعله يتراجع وجعل حياته تنقلب، جعل طفولته وشبابه كوابيس يومية يراها في كل لحظة. لا يريد الاعتراف بأنه يكنّ أي عاطفة لهذه الفترة من حياته التي تجرع فيها الحرمان والتعاسة وحصد منها الذل.

إنه يقترب شيئًا فشيئًا من حل مشكلته بنفسه. فلماذا يصرون على ملازمة هذا الطبيب له؟ لماذا لا يتركونه وحده؟ أو حتى يسمحون له بالاقتران من ليديا؟ ربما كان إصرار الطبيب هو الذي أوصله إلى هذه النتيجة. يجابهه الطبيب بالأسئلة فيجيب نفسه... ولكن الطبيب لم يعد يفهم شيئًا بعد أن تاه ضمن لعبته المنطقية. لقد أصبح يشعر بارتياحه عندما يطلب منه مهلة للخروج إلى الشرفة الضيقة.

هذه الشرفة الضيقة المطلة على شاطئ البحر أمامه تشبه فوهة زجاجة العطر، منها تخرج الروائح، ومنها يحاول أن يستنجد بالأحلام، ولكن المنظر أمامه محصور مثل العطر في زجاجة العطر، ومعلّب مثل العطر في زجاجة العطر.

تسعة

كابوس رقم 6

كان الوقت ضحًى. وقد وقف في ظل البناء الإسمنتي المنخفض، كلما تقدمت الشمس كان يزداد التصاقًا بالجدران الوسخة. ألقى بنظرة على الدرجات المكسورة الأطراف وعلى شجرتين قد ذبلت أوراقهما. أخذ الوقت يمر بلزوجة عجيبة. مر شرطيان وسخان أمامه، سمع الحديث المتناثر بينهما، حكى أحدهما عن استعراض للكلاب البوليسية، عن حيوانات تشم رائحة الأشخاص فتتعقبهم حتى تحت الأرض. حكى الثاني عن مسابقة للأبطال، كل منهم يستطيع أن يأكل لحم الثعبان وهو حي.

ازداد تقززه. وصلت سيارة بيضاء تلتمع من الجدة والنظافة. كان وجودها غريبًا وسط كل هذه الديكورات المهلهلة، توقفت أمام باب البيت تمامًا. نزل منها الضابط المسؤول بسرعة، أعطى أوامر مبهمة وكان مستعجلاً بالولوج إلى الداخل. فتح الرجال صندوق السيارة الخلفي وأخرجوا منها صناديق كرتونية. استطاع أن يرى بعض المواد التموينية،

وصندوقًا من التفاح. تفاح صغير الحجم. تفاح قديم لونه يميل إلى البني. نقلت الصناديق إلى سيارة "جيب" كانت متوقفة من قبل. أخذ الرجال بعض ثمار التفاح ووضعوها في جيوبهم، وفي أكياس صغيرة وسخة أخفوها بطريقة ما، وبعضهم أخذ يقضمها بتلذذ. حزم أمره وحمل الأوراق وعاد يحاول الدخول إلى البناء العتبق. استوقفه شرطي له عينان غير متماثلتين، إحداهما صفراء. حاول أن يشرح له أنه متعب، وأنه ينتظر منذ الصباح. لم يسمح له بالدخول إلا بعد أن أعطاه ورقة نقدية. بحث بعينيه عن أحد الأبواب. إنه يأتي منذ أشهر، كل يوم في الصباح ويدخل إلى هذه الغرفة ويقابل الرجل ويشرح له كل شيء...

استفاق من نوم عميق، تناهت إليه أصوات العصافير الصباحية، تذكر بيته القديم، عالمه القديم، لا يدري ماذا ذكره به، أهو صوت العصافير؟

على الرغم من الجوع والقهر، كانت العصافير تجد لنفسها مأوًى ورزقًا في العالم الأسود، من أين كانت تأكل يا ترى؟ والقطط التي كانت تتراكض في كل مكان، القطط التي كانت تتقاسم مع الناس الملاجئ النادرة في ذلك التجمع الذي لا يكاد يعثر فيه على ملجأ؟ اجتاحه حنين غير محدد الملامح لا يدري أهو حزن أم غبطة، لم يتبق لهم هناك سوى طقسهم الرائع، ويبدو له أن هذا الطقس لم يعد من حقهم، وليس من

حقهم المقايضة عليه حتى للفوز بحياتهم... على هذا الحساب فحياتهم لا تساوي شيئًا.

وماذا تساوي حياة الشخص هنا؟ تساوي كل هذه الرفاهية التي صار انتقاصها مأساة تستدعي موت الآخرين.

"من أجل سلالة بشرية متفوقة" ما أجمل هذا العنوان لحملة القضاء على الصنف البشري المتدني الذي ينتمي إليه! يجب أن يسجل ذلك في مكان ما. يجب أن يبدأ فورًا بالتأريخ للأعراق والأنساب التي سوف تمحى من وجه الأرض بباكتيريا آكلة للحوم طورها بيديه هاتين.

ها هو يفكر بطريقته المتخلفة بالآخرين، إذن فالتخلف الذي يحمله في جيناته لم يُمْحَ منه خلال العقد السابق الذي عاش فيه مع المتحضرين. وهو قد ينقله إلى أولاده من بعده، لماذا لم يفكر مجلس العلماء الذي يحسب حساب كل شيء في ذلك؟ هل التفوق ثمين إلى هذه الدرجة؟

دار بعينيه في الغرفة الواسعة. غرفة المستشفيات تشبه القلاع القديمة، واسعة ولا أحد يدري لماذا خصصت هذه الفراغات الكبيرة الخالية، كأنها تنتظر أن تملأ بشيء في يوم من الأيام. هب من السرير بسرعة وخرج إلى الشرفة الضيقة، أخذ نفسًا عميقًا... ما أجمل الحياة! فكر بكابوس الأمس قليلاً، ثم بدأ يعد الأيام التي نام فيها في الليل حتى الآن... هذه سادس

ليلة.. هل بدأ يتماثل للشفاء؟ عليه أن يفكر قليلاً قبل أن يأتي طبيبه، تحت الشرفة وفي الحديقة المتدرجة الألوان أشارت إليه فتاة... إنها ليديا، فكر بسرعة... هل فك الحصار؟ أو أن ليديا جاءت من تلقاء نفسها لزيارته؟

- هل لحالتك علاقة بعملنا؟ أقصد السم الذي طورناه؟ أقصد إشارتك إلى مجلس العلماء باستعماله لحل مشكلة التخلص من الأحياء في العالم الأسود.

كان ينظر إليها ويتابع كلامها دون أن يجيب على أي شيء، لقد اعتاد في الأيام الأخيرة على تلقي الأسئلة بهذا البرود ليجد لنفسه الوقت الكافي للجواب. لعبة الطبيب والمريض... حتى مع ليديا. قال بصوت هادئ:

- تعلمين... منذ أتيت إلى هنا وأنا أنتظر هذا السؤال من الطبيب، وأفكر في إجابته، وعندما سمعته منك شعرت بالاستغراب الشديد، وكأني أفكر فيه لأول مرة.

رفعت إليه عينين عاشقتين يلتمع فيهما الاقتناع بأي منطق يقترحه حتى قبل أن يقال.

- هل ستجيبني على سؤالي؟
- أنا لا أعرف الجواب.
- إذن قد يكون الجواب نعم.
- لا أدري لماذا لا يسألني الطبيب هذا السؤال.

- لأنه يجب أن يساعدك دون أن يستجوبك. هل ترتاح أكثر لو أنه واجهك بأسئلة من هذا النوع؟

- لا أدري.. لماذا تسأليني أنت إذن؟

- لأنني أحبك، وأهتم بك، وأعرف أنك لن تتضايق مني.

- السم الذي اكتشفناه يحل مشكلة التخلص من الأحياء في العالم الأسود. هل عندك أي مشاكل تكنيكية في العمل؟ حدثيني عن مخبرنا...

- السم أصبح جاهزًا تقريبًا.

- هل أخذه منك مجلس العلماء؟

- ماذا تقصد؟ كيف يأخذونه؟ هل وافقت على إعطائهم نتيجة أبحاثك؟

- لقد أرسلت لهم أن لدي الحل، وشرحت لهم كل شيء.

نظرت إليه بدهشة شديدة:

- هل تعتقد أن لهم الحق بالتدخل في عملنا؟ أنت مريض فعلاً. اسمع... إذا كنت مترددًا في إعطائهم السم فأخبرني.

- لا... لست مترددًا أبدًا. وماذا عنك؟

- أنا لا أجد أي مانع من التعامل معهم، أجد أن هذا هو الحل المناسب فعلاً للمشكلة، ولا يغيب عن ذهني

كيف سبقتني إليه. ولكن تذكر أن لك كامل الحق في الامتناع عن تسليمهم السم. لا أحد يجبرك على ذلك. فكر في الأمر بهدوء.. أرجوك من أجلي.

ما أجمل هذا اللا منطق! أنا وأنت في الجنة لا أحد يخرجنا منها. الكابوس القادم سوف يكون عن ليديا وهي مسجونة معه في الجنة. السجن سجن، ولكن الجنة لا تقاوم وخصوصًا إذا لم يكن بإمكان أحد أن يخرجك منها.

عشرة

القمر يتوسط قبة السماء فوقه، سرح بنظره في الوادي الأجرد، خط الأفق تقطعه خيالات مبهمة، اقترب أكثر، إنها بنادق متجهة نحو السماء وخوذ مقببة، هذا ما كان يتوقعه. بدأت رجلاه تترددان وأخذ رأسه يلتفت إلى الوراء. ها هو تردده يقوده نحو الهاوية... العالم الأسود... العالم الأسود الذي تخيل أنه لن يراه مرة أخرى...

"عندما تدخل الجنة... لا أحد يستطيع إخراجك منها".

صوت أمه قريب جدًّا منه، إنه يقترب منه أكثر في كل خطوة.

تصور نفسك بين الجنود، الجنود لا يريدون أن يفهموا شيئًا، الجنود لم يتعودوا استعمال عقولهم.

الجندي تربى وفي يده بندقية، وفي يده حياته كلها، إذا وضع البندقية من يده فالأجدر به أن يموت. الجندي يتكلم بالبندقية، بعقبها أو بزنادها، حسب الظروف، وهو يشير بها ويأكل برفقتها، وهو يخرج معها، وحتى إن صوره بعد الإظهار

تخرج على شكل بندقية تبتسم، وهو لا يحاول أن يبحث عن نفسه؛ لأنه يعرف تمامًا أن كيانه الحقيقي هو هذه البندقية.

تصور نفسه يحاول إقناعهم وهو الأعزل أنه هارب من بلاد بعيدة، وآت عليهم ليخلصهم من الكارثة القادمة لا محالة. تصور أنه يحاول إقناعهم بأنه بطل صغير، بدون بندقية.

تصور أنهم لن يفهموا شيئًا؛ لأنهم لم يتعلموا استعمال عقولهم، وربما لأن أحدًا لم يعلمهم شيئًا. تصور أنهم سوف يقتلونه قبل أن يعرفوا ماذا يريد، وأراحته هذه الفكرة كثيرًا. استمرّ في المشي بطيئًا حتى انضم إلى الجنود.

يوميات مستفِزّة

في صباح يوم عادي

تتـزاحم الأفكـار في رأسـي وأنـا أركـض باتجـاه موقـف الميكروباص. ترى بماذا أخطأت اليوم (وعلى العموم كل يوم) ليغدو هذا الرجل مستفزًّا من الصباح، ها هو الميكرو يتجاوزني، أنظر إلى الساعة، لم يتبق كثيرٌ من الوقت وإذا لم يسعفني الحظ بواحد آخر وبسرعة سوف أتأخر عن الدوام كالعادة.

عندما استفقت في الصباح كان جالسًا على نافذة غرفة الجلوس المطلة على الشارع العام، يحتسي قهوته التي أعدها لنفسه بكل لؤم دون أن يحسب حسابي. لم أعد أعاتبه على مثل هذه الأفعال لأنني اكتشفت أنه يستغلّ هذا الموقف لصالحه، إن لم يكن يرتكبه أصلاً لافتعال المهاترات. دخلت إلى المطبخ فأعددت سندويتشات المدرسة لكل الأعمار مراعية قدر الإمكان أنواعهم المفضلة، أقصد قدر ما تسمح به الميزانية، ثم وضعت قهوتي على النار وركضت إلى الداخل أستحث الكبير على النهوض من سريره، وأحسست أنه يتحوَّل إلى شبيه لأبيه في كل يوم وخصوصًا نظراته. أما ابنتي فقد استفاقت من نفسها عندما سمعت الأصوات. أما الصغير فقد

أغراني منظره بالهجوم عليه، وإغراقه بوابل من القبل تلقاها بابتسامة راضية ثم استدار وأعطاني ظهره واستغرق في النوم من جديد. تركته وركضت نحو المطبخ لأحضر قهوتي ثم عُدت مرة أخرى، فوجدت الكبير يتمطى فاستبشرت خيرًا بقرب نهوضه، أما البنت فقد انتهت تقريبًا من وضع ملابسها واقتربت من الصغير لتساعده على النهوض. أحضرت ملابسه ريثما يستعمل الحمام وعندما عاد بدأت أنا وهي نلبسه بسرعة. قبلتني على جبيني وقالت لي سأضع سندويتشاته في حقيبته ونحن خارجون. شعرت بكل حنان الدنيا يغلف قلبي وتمنيت لو آخذها بين ذراعي وأضمها لكني لم أفعل، اكتفيت بالابتسام لها واكتفت هي بإرسال قبلة أخرى في الهواء وهي تقود أخاها من يده وتتجه نحو المدخل.

دخلت إلى غرفتي وبدأت أرتشف القهوة وأتهيأ للخروج وسمعت صوته يصبّح عليّ، توجست شرًّا وحاولت قدر الإمكان ألا أظهر ذلك وأنا أجيب: صباح النور يا حبيبي (أخ لماذا قلت يا حبيبي؟) وبدأ البرنامج اليومي أبكر من المعتاد؛ لأننا في سياق الأيام حاولنا أن نتجنب بعضنا قبل التوجه إلى العمل اختصارًا للضغوط.

- حبيبي؟ هل قلت حبيبي؟ هل أنا المقصود بهذه الكلمة؟
- أرجوك لقد تأخرت عن موعد الوظيفة.

- وماذا تفعلين طوال يوم العمل؟ تسجلين الصادر والوارد في ديوان مديرية لا أحد يتعامل معها؟ منذ متى كان آخر كتاب سجلتيه؟ على العموم اطمئني عندما تتم أتمتة الوزارات لن تجدي ما تكتبينه على دفاترك العتيقة.

وهنا تم استفزازي.

- وماذا تقترح عليَّ أن أفعل وقتها؟ هل أنضم - ربما - إلى مجموعة الموظفين الذين يعرقلون المعاملات؛ لأنه لا عمل محدد لديهم يفعلونه؟
- أنا أعرقل المعاملات؟ كيف تجرئين على التفوه بهذه العبارة؟
- ألست أنت الذي تردد طوال اليوم ما يتهمك مديرك به؟
- هل تجرئين على استغلال أزمتي مع مديري أيضًا؟ أنت فاجرة، طوال عمرك فاجرة...

الآن لن أستعيد كل عباراته فهي مؤلمة حقًّا، ولكنني بالفعل تأخرت كثيرًا. لم ألبس القميص الجديد الذي اشتريته البارحة لأنني لبست التنورة والبلوز الذي ألبسه كل يوم بسبب تشتت أفكاري، ولم يعد عندي وقت لأضع بعض الزينة على وجهي (أحسن أوفِّر قليلاً من المساحيق) وأشعر أن قلبي رازح تحت حمل ثقيل..

أين ريم؟

أخرج إلى الشرفة للمرة العشرين، أمد نظري إلى أقصى الشارع من اتجاه ثم من الاتجاه الآخر، أنتظر قليلاً، ثم أدخل إلى الغرفة ويصدمني الدفء الذي نشرته الموقدة الصغيرة، كم الطقس بارد اليوم، هذا الشتاء لن ينتهي، أين ذهبت صغيرتي في هذا البرد؟

أنظر إلى ساعة يدي للمرة الألف، لقد تأخرت البنت عن موعد عودتها من المدرسة ساعتين، أمسك سماعة الهاتف وأعاود الاتصال بالمدرسة، لا أحد يجيبني، أعاود الاتصال بمنزل زميلتها ترد علي الآلة: نحن لسنا بالمنزل الآن.. أقطع الاتصال قبل أن أسمع البقية، ثم يخطر ببالي الخروج إلى الشرفة مرة أخرى، لقد عدت من العمل فلم أجدها في البيت تناولت غذائي وأنا أهيئ في ذهني ماذا سأقول لها حين تعود، دخل زوجي ليأخذ قيلولته وبقيت أنتظرها معللة نفسي أنها ربما تأخرت على الطريق مع زميلتيها، أو أنها مرت على بيت إحداهن لإحضار كتاب، ولكنني الآن أشعر أنه لم يعد هناك مجال لأن يكون تأخيرًا عاديًا.. مازال الشارع مقفرًا.. من يخرج في هذا البرد؟ والآن

يجب أن أفعل شيئًا.. عدت إلى غرفتي، فتحت الخزانة فأصدرت صريرًا رهيبًا، تناولت ملابسي التي علقتها من ساعة، وسمعت شتيمة لم أحسب حسابها وأنا أضرب في ذهني الأخماس بالأسداس، التفت إليه فوجدت أنه يشتم دون أن يتحرك من وضعيته الأصلية تحت الغطاء.

- البنت لم تعد حتى الآن، أنا ذاهبة لأبحث عنها.
- ... أنت وابنتك.
- ماذا تقول؟ البنت تأخرت ساعتين، ولا أحد يجيبني في المدرسة ولا عند صديقتها، أنا خارجة لأبحث عنها.

انتفض من تحت الغطاء.

- ماذا؟ لم تعد حتى الآن؟ أين ذهبت؟ أين ستبحثين عنها؟ هل أنت مجنونة؟ أين ذهبت ابنتك؟ هيا أجيبيني، لا تديري لي ظهرك كالعادة، هذه نتيجة تربيتك أليست حبيبتك وكاتمة أسرارك؟ أين ذهبت؟ هل تعلمين عاقبة هذا الأمر؟ أنا لن أسكت عليك بعد الآن..

بماذا أجيبه؟ وهو كعادته يسأل الأسئلة التي لا إجابة عليها. خرجت بعد أن استكملت وضع ملابسي علي ولأول مرة شعرت بتعب شديد، وأحسست كم أنا ضعيفة ووحيدة ولكن خوفي كان يمدني بالأدرينالين اللازم للاستمرار، قبل أن

أخرج، جربت آخر مرة رقم منزل صديقتها، سمعت بيأس شديد أول وثاني طنَّة، ثم كليك، ارتفعت السماعة.

- ألو..

ابتلعت ريقي وأجبت:

- نعم، أنا أم ريم، صديقة دانية، لو سمحت هل أستطيع أن أكلم دانية لأسألها عن ريم؟
- دانية لم تعد حتى الآن من المدرسة، لديها تدريب على مهرجان رياضي لا أدري ما هو.. أليست ريم معها في المهرجان؟
- أوه ريم، نعم. ربما تكون معها، هي غالبًا معها، إنهما لا تفترقان أليس كذلك؟

هويت على الكرسي دفعة واحدة، كانت الأم على الطرف الآخر تثرثر ولا أكاد أجيبها، شعرت بألم حاد في كتفي الأيمن ولم أعد أشعر بركبتي، تحسست مكانهما بكفي فإذا هما موجودتان..

- والآن عِديني أنك سوف تزوريني مع ريم في أقرب فرصة، أنا أحبها كثيرًا، اسأليها عني.. أشعر أنها صديقتي أكثر من كونها صديقة ابنتي.
- شكرًا لك، هل تصدقيني إذا قلت لك إن هذه المكالمة أعادت الروح إلى قلبي؟
- يا حبيبتي نعم أصدقك.. كل من يعرفني يقول عني أنني أجلي الهم عن القلب.

- نعم بالضبط.. لقد انجلى الهم عن قلبي. أستودعك. لا بد أن نتقابل. سوف أتصل بك قريبًا.
- إلى اللقاء يا حبيبتي.
- إلى اللقاء.

احتويت وجهي بين كفيّ، وأخذت أدلّك جفني بأصابعي.. ماذا دهاني؟ هل أخبرتني ابنتي عن التدريب ونسيت؟ أم إنها نسيت أن تخبرني أصلاً؟ لم أعد أذكر شيئًا؟ أين ذهبت ذاكرتي التي كانت من حديد؟

عندما بدأت أخلع حذائي، ظهر وهو ما زال في ثياب النوم، أين اختفى في الدقائق الماضية؟ في الحمام غالبًا، جاء ليواجهني بضمير مرتاح:

- اسمعي، تذكري، هل قالت لك شيئًا محددًا في الصباح؟ أقصد شيئًا أحسست أنه مختلف. مثلاً سألتك عن عنوان، أو..
- إنها في المدرسة، تتدرب على المهرجان الرياضي.
- أي مهرجان؟ لم تذكري أمامي شيئًا عن المهرجانات.
- ها أنا أذكر أمامك.
- اسمعي، هذه الحيل لا تنطلي عليّ. مهرجان يخلق فجأة هكذا..
- أنت اسمع الآن. عندما تعود ابنتك تفاهم معها، وأحذرك أن توحي إليها بأي من الإيحاءات التي

تفوهت بها أمامي، إنها على أكثر تقدير قد نسيت أن تستأذن للسماح لها بالتأخير اليوم، هل تفهم تمامًا ما أقوله لك؟

- لا ما رأيك أن تفهميني كيف أربي ابنتي؟
- لا معاذ الله أنت مرجع في كل العلوم. ومع ذلك أنا أحذرك.
- وماذا ستفعلين إذا خالفت التعليمات؟

تجاهلته وقمت لأنزع عني ثيابي وأستريح قليلاً.. لكنه لحق بي وهو ما يزال يتكلم بوتيرة عالية، كنت مرهقة وتعيسة، وكالعادة ليست عندي إجابات على أسئلته، لا بد أنه يفكر كثيرًا إذن لماذا لا يشعر بي؟

أنا وحيد

استيقظ قبل الأوان اليوم، نظر إلى جانبه فوجدها تغط في نوم عميق، التفت نحو الساعة، إنها السادسة، غير اتجاهه وحاول العودة إلى النوم. مرت دقائق طويلة، يبدو أنه لا جدوى من المحاولة، نظر إليها، مازالت تغط في نوم عميق، تثاءب بصوت عالٍ، لم تتحرك، استجمع أنفاسه وأطلق واحدة من تلك التثاؤبات الكفيلة بإيقاظ دب سيبيري من سباته الشتوي، ثم أتبعها بزفير مفخم يليق بصوته كمدخن مدمن منذ ثلاثة عقود، عندها نهضت بوثبة واحدة وصاحت برعب:

- ما هذا؟
- ماذا؟ أنا أتثاءب في سريري الخاص.
- كل هذا كان تثاؤبًا؟
- لا تؤاخذيني، هل خدش صوتي العالي سمعك المرهف؟ عودي إلى النوم.

وفي ذلك الصباح كانت تريد أن تصدقه، فأغمضت عينيها واستعادت آخر مشهد من حلمها [كانت تلبس ثوبًا من أيام مراهقتها، تعجبت كيف جاء على مقاسها ولم يكن

يزعجها عند الخصر والورك، وكان قماشه يهفهف حولها ويلفت إليها الأنظار. وفجأة أصبح الثوب ضيقًا جدًّا، والتفتت فوجدت أن المعجبين اختفوا وبقي منهم واحد فقط أمعنت النظر فيه فإذا هو زوجها]. ارتعبت واستيقظت من النوم بقفزة نوعية، اكتشفت أنها رد فعل السرير على القفزة النوعية التي أدّاها الزوج برشاقة غير اعتيادية. أيقنت أن العودة إلى النوم أصبحت مستحيلة.

بعد أن تأكد أنها استفاقت ونهضت للقيام من السرير، شعر برغبة شديدة في الوحدة، اتجه إلى المطبخ وملأ دلة القهوة بالماء وأشعل تحتها النار. تقدمت نحوه بخطوات ثقيلة وسألت:

- هل تريد بيضًا على الإفطار؟
- ما أسعدني! لقد حباني الله بأذكى امرأة في العالم.
- أجبني أرجوك.
- أريد أن أشرب قهوتي بمفردي.

وكان صادقًا في شعوره رغم كل ما حصل.

بقية خلق الله

إنه يوم الجمعة، ما أجمل هذا اليوم! إن الرب يحبه بدليل أن كل أيام الجمعة تأتي بطقس رائع، مثل اليوم. نظر إلى قطعة السماء التي تظهر من شباك الغرفة، وحاول مط رقبته قليلاً وهو يلصق رأسه بالشباك، وقرر فجأة أن يخرج للسيران(*) مثل بقية خلق الله يوم الجمعة.

كانت في المطبخ، سمع أصوات بعض الأواني المعدنية تصطدم ببعضها، اتجه فورًا إليها، وقدر أن الحصول على موافقتها يتطلب الدخول مباشرة في الموضوع، لذا لزم أن يبدأ بمقدمة نشعرها بتقصيرها الذي وصل إلى حدود لا معقولة، مثل هذا التنظيف العميق الذي تمارسه الآن في المطبخ بينما بقية خلق الله يتمتعون بهذا اليوم الربيعي الجميل منذ الصباح.

لقد بدأ الحوار على الشكل التالي:

- ماذا كنت تفعلين البارحة طوال اليوم؟

لا جواب، فقط همهمة ونظرة شك قاتلة شملته من الرأس إلى القدمين، وفي الحقيقة أن النظرة كانت أطول من اللازم

(*) السيران: اسم النزهة في الهواء الطلق بلغة أهل دمشق.

بحيث إنه نسي موضوعه الأساسي وهو يحاول أن يجيب عليها بنظرة أشد وقعًا وإيلامًا:

- أقصد تحديدًا عندما ذهبت إلى الحلاق وانتظرت دوري أربع ساعات كاملة؟
- تعني أن تعود لمناقشة عدد الأشخاص الذين - مثلك - يغيبون نصف النهار عند الحلاق؟ مثلما فعلت البارحة وجعلتني ألغي زيارتي لبيت خالتي؛ لأنني لا أريد ترك الأولاد وحدهم في البيت؟
- لا، أقصد لماذا لم تستفيدي من الوقت وتنهي ما عليك تنظيفه في المطبخ؟
- تريدني أن أنظف بقايا الإفطار قبل أن يحدث الإفطار باثني عشرة ساعة؟
- ... (هذا سباب لا يليق بمستوى المقال لكنه يتكرر في كل حوار بينهما).

ترك المطبخ وهو يشعر بالإهانة، هذه المرأة لم تترب في بيت محترم، ومن يلام على ذلك؟ هو شخصيًا لأنه انتقاها، كان بوسعه التريث قليلاً قبل أن يقدم على الزواج منها. لقد أجبرته كعادتها على شتمها بينما كان في نيته اصطحابها لترفه عن نفسها، إنه يشعر بالظلم الشديد، إنه لا يحب أن يستعمل هذه الكلمات البذيئة في بيته. آه.. كم بوسعه أن يكون حساسًا في مثل هذه المواقف!

كرامتي تؤلمني

طوال طريق عودته من عمله كان يسترجع الموقف الذي حدث صدفة، ولكنه سيؤثر عليه البقية الباقية من أيامه.

هذه أول مرة يتطاول فيها عليه مديره، ولكنها - وهو متأكد - لن تكون المرة الأخيرة. شعر بمرارة الذل تحت لسانه، ترى كيف كان يجب أن يتصرف؟

راودته مجموعة من الحلول لمشكلته، يمكنه أن يقدم استقالته غدًا صباحًا، أو يمكنه أن يدخل إلى غرفة المدير فيقول رأيه فيه بصراحة، وقبل أن يفتح فمه بكلمة يلقي الاستقالة في وجهه ويخرج.

عندما جلس إلى مائدة الغداء رفع وجهه فجأة إليها، كان وجهًا يختلط فيه الحزن العميق بالأنفة والكبرياء، وهناك مسحة خفيفة من التصميم والجدية التي ترافق عادة مثل هذه المواقف البطولية، ولكنها بإحساسها المنعدم منذ فترة طويلة لم تميز أيًّا من هذه التعابير عليه، وبادلته بنظرة فيها استغراب يشوبه الحذر وقالت:

- هل أنت - لا سمح الله - ممغوص؟

- لا.
- هل هي السلطة؟ إنها حامضة قليلاً، آنا آسفة.
- لا، ومن يأبه للسلطة الآن؟ أريد أن أبلغك بالقرار الخطير الذي اتخذته للتو ولن أتراجع عنه مهما حصل.
- انتظر لحظة، لا تقل لي بأنك تريد غدًا صباحًا تقديم استقالتك.
- أنت إنسانة غبية.
- نعم، ومتبلدة المشاعر.
- هل تعرفين ماذا تجرّأ وقال لي اليوم؟
- نعم. كما يقول لك كل يوم.
- أنت حقيرة.
- انظر لنفسك وراقب ما تقوله لي أنت كل يوم، وأنا حتى لم أفكر بتقديم اعتراض بسيط على سوء أخلاقك وطول لسانك.
- من الطبيعي أن تفكري في مصلحتك أولاً، أين ستذهبين إذا تركت هذا البيت؟
- إلى نفس المكان الذي ستذهب إليه بعد أن تقدم استقالتك.

انتباه جميعًا جاءت أختي

هو يدخل ويخرج إلى البلكون الصغيرة المطلة على الحارة مترقبًا وصول عائلة أخته وكأن النبي سوف يزورنا اليوم. والآن أعتقد أنه بدأ يتوتر لأنه يقلب صحون السجائر ويمسح بإصبعه الطاولات مفتشًا عن غبار، ليبدأ بتفريغ شحنة توتره علي. لقد طال صمته، لا أعتقد أنه لم يجد شيئًا يعترض عليه.. هذا غريب جدًّا.

- هيه أنت! أين أنت؟

أنا في المطبخ منذ أكثر من ساعة أحضر التبولة.. ورائحة تقطيع البقدونس قد فاحت في معظم أرجاء حارتنا؛ لأن أفراد عائلة أخته قد وصل إلى ثمانية، وعندما يتعلق الأمر بإطعامهم مضافًا إليهم خمسة أفراد - نحن - فهذا مشروع مطعم صغير، وعندما يصبح حساب التكاليف مرهقًا للأعصاب كما هو الحال هذه الأيام، فالتبولة أهون الشرور وليست أهون الحلول.

- هيه أنا أنادي.
- ماذا تريد؟

- تعالي إلى هنا بسرعة.

(هذا يعني أنه وجد غبارًا في ركن ما).

- سوف أعيد مسح الغبار عندما أنتهي من التبولة، لا تقلق. على أي حال - وبدون أن أمسحه - لن يكون بيتنا أقذر من بيتهم.

- ... لا جواب...

لا يزال غريبًا أنه لم يشتمني حتى الآن، وبما أنه لم يشتم فلم تنته المشكلة بعد.

عدت إلى التبولة. وضعتها في طشت كبير وأخذت أخلط محتوياتها بيديّ العاريتين. سمعت وقع خطواته ورائي قبل أن أسمعه يقول:

- أنت الزوجة المثقفة الواعية المثالية، كيف تقارنين نفسك بأختي الجاهلة؟ وتقارنين مستوى نظافة بيتك بنظافة بيتها؟ هه وتخلطين السلطة بيديك؟ أليس عندك ملعقة؟ (هذا هو زوجي).

- نظافة البيت لا علاقة لها بالتعليم، وكوني مثقفة لا يجعلني أقارن نفسي بأحد، وهذه تبولة وليست سلطة، وأصول خلطها باليد ويدي نظيفة.

- وماذا سنأكل مع التبولة المعجزة هذه؟

- لا شيء.

- لا شيء؟ هذا أكل لا يشبع.

- عندما تنتهي الزيارة المعجزة، ادخل إلى المطبخ وكل حتّى تشبع.
- أنا لا أتكلم عن نفسي.
- عمّن تتكلم إذن؟ عن جيش أختك؟
- عندما زرناهم آخر مرة وضعت لنا العشاء.
- لقد أحضرت صحنًا من الحمص من السوق، وربطة خبز ووضعتها أمامنا، ومنعت أولادها من الاقتراب من الأكل وهي تردد: الأولاد تعشوا قبلنا، حتى ابنتك استحت أن تترك ابنة عمتها ولم تقترب من الأكل.. كل ذلك حتى لا تتعب وتحضر شيئًا.
- مسكينة، مع ستة أولاد، ماذا تريدين منها أن تحضر؟ إنها لا تكاد تلبي طلبات بيتها.

ما أجمل ذلك! كل النساء - ما عداي - يتعبن، أما أنا فمطلوب مني أن أعمل حتى بعد الظهر، ثم أعود إلى البيت فأحضر الغداء وأنظف (كما ينظف المتعلمون وليس الجهلة)، ثم أتابع تدريس أولادي؛ لأنني مثقفة وأثناء ذلك هناك رجل في البيت يعرف كيف يشجعني على الاستمرار.

- نعم مسكينة مع ستة أولاد وبيت، ما رأيك أن أذهب وأساعدها في أوقات فراغي؟ مثلاً بعد العصر، عندما أعود من العمل وكلي نشاط وحيوية؟ أو بعد أن أنهي تقديم العشاء في التاسعة، أو أستيقظ قبل السادسة

صباحًا لأمر عليها وأرى إذا كانت بحاجة..

- الحمد لله أنها ليست بحاجة لأحد مثلك، إنسانة حاقدة على الدنيا بأكملها، ألم تجدي سوى أختي البسيطة لتصبي جهنم لسانك عليها؟ تريدين أن أكرهها لأنها قادمة لتزورنا؟ تريدين أن نقطعيني على كل من أحبهم؟ هل تتصورين أنني لا أعرف كل مخططاتك؟

(عدنا إلى الكلام الذي لا جواب عليه، ماذا أقول له الآن؟).

سهرة عائلية

- الفرق بين الرجل والمرأة شخصي وليس جنسيًا.

عندما تجلس بين الناس وتبدأ بالحديث عن القضايا العامة ينتابني ضيق في التنفس لا أدري لماذا..

تلفظت العبارة وهي ترفع حاجبيها عاليًا وتنظر أفقيًا كأن كل من حولها لا يليق بالمناقشة، ثم صمتت قليلاً تريد أن تردف بعبارة أخرى أحكم من السابقة، وجدت أن من واجبي أن أنهي هذه المهزلة، كما أفعل دائمًا لأنقذ المواقف، فتدخلت بفطنتي وقلت:

- ذكريني أين سمعنا هذه العبارة من قبل؟
- لم نسمع معًا شيئًا منذ فترة لا أذكرها. أقصد أننا لا نمضي وقتنا معًا فمواعيدنا متضاربة.
- ومن السبب في ذلك؟
- الظروف طبعًا.

شعرت هذه المرة بألم في يدي اليسرى، وعادت هي لتتابع بنفس الحماس السابق:

- أعرف رجالاً يحبون الثرثرة أكثر من النساء، وأعرف نساء لا يتكلمن إلا إذا اضطررن لذلك.

من تقصد بهذا التلميح؟ الآن طاب الموت. سوف أعلمها الأدب الذي لم تسمع به من قبل.

- ... (سباب لا يليق بمستوى القارئ).

الموقف في هذه اللحظة متوتر جدًّا، وأعرف أنه سينتهي نهاية لا تريحني، وفي البيت سنستعرض نوبات بكاء هيستيري، ولن تعترف أبدًا أنها هي التي استفزتني.

upgrading

اليوم نحن مدعوون على العشاء، وهي فرصة لأفعل شيئًا مفيدًا وأستفيد من الوقت، اليوم خميس وعادة في مثل هذا الوقت أكون متوترة؛ لأن الأولاد يحلمون بالخروج إلى مكان مسل، وأنا ليس باستطاعتي تحقيق مثل هذه الأحلام بإمكانياتي المتواضعة، وهو يكون متوترًا لأنه يحلم بالتخلص مني - هذا ما أشعر به على الأقل - وفي يوم الخميس لديه الوقت الكافي للأحلام. وعلى العموم عنده في كل يوم وقت كاف للأحلام، ولكنه لا يبذل جهدًا لتحقيقها. آه لو يعمل بعد الظهر، آه لو معي قليل من المال، أقصد مالاً ليس له مصرفه، أقصد مالاً يمكن ادخاره، ليس لأدخره ولكن لأفعل به شيئًا مختلفًا، ها قد بدأت أنا بأحلام اليقظة؛ وهذا ليس من عادتي ولكن اليوم عندي وقت فراغ، إنه يوم الخميس ونحن مدعوون، أنا وزوجي وحتى الأولاد، هذا يعني لا عشاء لأحضره، ولا أطباق أغسلها، ولا حتى تحضير لسهرة طويلة مملة على التليفزيون وما يصاحبها من قشور البزر في كل مكان، بقع في الصباح على الأرائك من تقشير البرتقال، والعيون مسلطة على الشاشة، وكؤوس مبقعة بآثار الشاي ومنسية في أماكن مختلفة ابتداءً من غرفة

الجلوس وانتهاءً بالبلكون، مرورًا بغرف النوم وعلى طاولة الهاتف..

وفي الصالون الفخم لبيت زميلتي العائدة حديثًا من الخليج، جلس وهو يضع رجلاً على رجل، نظر بطرف عينيه إلى المكان، ثم عاد ليطالب للمرة الثالثة بمتابعة مباراة فريق كرة السلة المحلي الذي يشجعه.

- هل تمارس الرياضة بشكل منتظم؟ (يسأله بسخرية مضيفنا وزوج زميلتي).
- لا، ولكني مشجع منتظم.
- وتتابع المباريات في البيت أم في الملعب؟
- في البيت.
- في الخليج يتابع الشباب مباريات كرة القدم بهوس، أثناء المباريات تقفر الشوارع، وبعد انتهائها من الجنون أن تفكر في الخروج من بيتك.
- لماذا؟
- لأن المجانين يقطعون الطرق بسرعات جنونية، أو يتجمعون في أماكن مختلفة للاحتفال، أو يغضبون لخسارة فريقهم فيستفزون المارة..
- تشجيع الرياضة مظهر حضاري يا أستاذ.
- الحمد لله الذي جعلني أعود إلى هنا لأتعلم الحضارة من أهلها. (ويرفع صوته): العشاء، يا سيلفا (خادمة

شرق آسيوية)، العشاء بسرعة.

يقوم الرجل ونلتقي به بعد ذلك على مائدة العشاء، وحتى ذلك الوقت لم تتح لزوجي فرصة متابعة المباراة؛ لأن المضيف لم يبد أي اعتبار لمطلبه. كانت المائدة فخمة والطعام غزيرًا، والضيافة كريمة (بغض النظر عن الحوار السابق، فالمضيف كان على المائدة بحالة استمتاع، وكان يدعو كل واحد باسمه لتذوق كل صحن على حدة)، وهكذا مرت فقرة الطعام بنجاح منقطع النظير، حتى إن مزاج زوجي تغير كثيرًا وبدأ يطري أنواع الطعام.

- لماذا لا تتعلمين من زميلتك؟
- نعم معك حق. يجب أن تعلميني صنع هذه الأصناف، كم هي لذيذة، شكرًا لك.
- لا تغيري الموضوع كعادتك، أريدك أن تأخذي ورقة وقلمًا وتسجلي الوصفات المختلفة بدقة، و(ملتفتًا نحو زميلتي): أي تغيير في المقادير يخرب الطبخة أليس كذلك؟

وتجيبه المضيفة وقد شعرت أخيرًا بفائدة دعوتنا:

- بالطبع يا أستاذ. الطبخ صنعة دقيقة، ولكنه أيضًا نفس، بمعنى أنني يمكن أن أسجل كل شيء أفعله بدقة، وعند التنفيذ تكون النتيجة مختلفة؛ لأنني لم أطبخه بيدي.

- صحيح.. رحم الله والدتي.. كانت لتقول نفس هذا الكلام. كانت عندما تطبخ الكبة ينحني والدي أمامنا ويقبل يدها.
- أوه كم هذا شاعري، هل سمعت؟ ما أجمل ذلك يا عزيزتي!

وأجيب وأنا أبتسم:

- نعم وزوجي يشبه والده كثيرًا.

ويتابع مستطردًا:

- ولكن طبخك لا يشبه طبخ والدتي.

وتتدخل زميلتي:

- لا يا عزيزتي، يجب أن تركزي أكثر في الأكل؛ فالطريق إلى قلب الرجل معدته.
- شكرًا على النصيحة.

كان الزوج يوزع ابتساماته ببلاهة، وشعرت أنه متشوق لخروجنا من بيته بأقصى سرعة، حتى إنه بدأ يتثاءب وينظر باتجاه ساعة الحائط، ولكن زوجي كان قد بدأ يستمتع بالسهرة ويبدو أنه نسي أمر المباراة، وقد راقه حديث التحقير الأخير بمشاركة زميلتي فبدأ يستزيد من خبرتها في الحياة.

- وهل أنت زميلة زوجتي في الجامعة أيضًا؟
- نعم.

تدخلت في الحوار:

- لم تكمل دراستها لأنها تزوجت عندما كنا في السنة الثانية، أليس كذلك عزيزتي؟
- نعم، لقد اضطررت للسفر، ثم جاء الأولاد، واحدًا تلو الآخر..
- للأسف، لم يكن قد بقي الكثير لتنالي شهادتك.

تدخل زوجي في الحوار:

- لا تأسفي على ذلك، أشهد لك بالتفوق، من ينجز هذه المائدة ليس بحاجة للشهادات.
- أشكرك على لطفك.

تدخلت مرة أخرى:

- هل تسمحون لنا بالانصراف؟ لقد تأخرنا.

هنا دبت في زوجي فجأة روح الفكاهة:

- زوجتي تريد الانصراف، لم يعجبها هذا الحديث.

ضحكة جماعية شاركت فيها وأنا أشعر أن هناك شدًّا يحدث قريبًا من ناحية القلب، وعرقًا باردًا يتسرب باتجاه رقبتي ومصدره غير معروف.

أنا رجل

كنت جالسًا وبيدي كتابي المحبب أقرؤه وأستمع إلى صوت المطر يطرق بنقرات خفيفة زجاج النافذة وراء رأسي مباشرة، وعندما يشتد فضولي وأشتاق لمنظر الخير المنهمر من السماء، ألفت رأسي وأملأ عيني من صورة آلاف القطرات التي ملأت الدنيا، لأعود من جديد إلى كتابي المفضل، إنه كتاب شعر وهو مختارات من ديوان المتنبي، صحيح أني قرأته عدة مرات ولكنه من النوع الذي لا يشبع منه الإنسان.

أنا مللت

ها هو يمسك كتابه ويتخذ وضعية الباحثين، الجو اليوم كئيب والمطر لا يريد أن يتوقف عن الهطول، الشمس غائبة منذ الصباح والآن – يعني قبل المغرب بقليل – صار لون الدنيا قاتمًا بطريقة تذكر بالنهايات المأساوية لأبطال الروايات، أنا مازال عليَّ بعض العمل لم ينجز ولكنني أشعر بضيق شديد، أفكر بالاتصال بجارتي علها تدعوني إلى فنجان قهوة، أخرج فيه من حالتي المزاجية لأتمكن من الاستمرار في العمل المنزلي.

... أنا رجل

إنها تتجه نحو الهاتف، سوف أخمن ماذا تريد أن تفعل، لنرى.. تتصل بجارتها التافهة وتشرب معها فنجان قهوة وتعود من عندها بأخبار أقربائها الأثرياء، وبعض الجيران المنعمين وقد أقاموا مأدبة وحفلات باذخة نسمع بها سمعًا ونتخيلها ولم نرها قط.

انتهت المكالمة بسرعة، اتفقت معها على الموعد غالبًا.. الآن سوف تدخل إلى غرفتها لتغير ثياب البيت وتلبس ثوبًا أقمأ منها. دخلت.. بعد ذلك سوف تتجه نحو باب البيت وتقول لي وهي خارجة: أعود بعد قليل.

أنا الذي جعلت من نفسي نصف رجل في هذا البيت لأنني - على مدى سنين - سمحت لها بالقيام بأفعال لا تليق؛ لأنني لا أحب أن أنزل إلى مستواها، والآن صارت هذه العادات حقوقًا مكتسبة، كأن تترك زوجها جالسًا وحده في البيت، وتخرج بدون عذر مهم.

أنا مللت

هذه الحمقاء مشغولة، لنرى، سوف أنهي ما علي في هذه الغرفة ثم أخرج لتحضير العشاء، كنت أرتب خزانتي وبقي القسم العلوي منها، إنه رف أضع عليه بعض المناديل الحريرية، وهي آخر ما تبقى لي من ذكريات جهاز العرس، وهناك علبة

موزاييك فيها أوراق وصور وبطاقات معايدة و.. رسائل منه عندما كنا مخطوبين. أحتفظ بها لأنه ليس عندي مصوغات ثمينة أضعها في علبتي، ولا أموال مدخرة أخبؤها بين الأوراق لأخرجها وأنفقها في المناسبات.. فقط بطاقات ورسائل سوف أطلع ابنتي عليها في الوقت المناسب، هذا إذا لم تكن قد قرأتها هي وأخوها دون أن أدري وضحكا علينا، أرجو أن يكونا قد ضحكا، أما أنا فذكر هذه الرسائل يجعلني أقرب إلى البكاء.

انتهى الترتيب، أنا عندي وسواس النظافة والترتيب، أعلم ذلك، ولكنني لا أستطيع أن أغير شيئًا في نفسي، أسمع وقع خطواته وأنا أغلق باب الخزانة بالمفتاح.

... أنا رجل

- أنا لست برجل إذا سمحت لك أن تخطي خطوة واحدة خلف هذا الباب.

وأشرت بإبهامي إلى باب البيت بحركة قوية.

- أنت سيد الرجال قاطبة، وأنا لن أخرج من ذاك الباب.

وأشارت بإبهامها إلى نفس الباب وهي تقلد حركتي بابتذال لم يعجبني.

- ولماذا تصرخين؟ لم يعجبك التصرف، أليس كذلك؟

كنت أنوي الليلة أن أحسم أمرًا مهمًّا مرة وإلى الأبد.

- بالله عليك، عد الآن فورًا إلى المتنبي، وأفسح لي الطريق لأحضر العشاء.
- قبل العشاء أجيبي على سؤالي.
- دائمًا تسألني أسئلة لا جواب عليها.
- لم يعجبك أن أمنعك من الخروج، أليس كذلك؟
- لم أكن خارجة أصلًا.

بدأت بالمناورة وسوف تنتهي بها. صحيح أنني كنت مستغرقًا بأشعار المتنبي ولكنني رأيتها بأم عيني تواعد جارتها.

- ... (سباب) ألم تتواعدي مع أم وائل على الهاتف؟
- لا جواب. همهمة وبكاء مكتوم.

عم الظلام واقتربت ساعة العشاء وفيما بعد الاسترخاء على التليفزيون، هذا أفضل للجميع، لم يعد هناك شعور رومانسي عند البعض وشعور بالاكتئاب عند البعض الآخر، توحدت المشاعر تجاه طنجرة الشوربة التي فاحت روائحها في البيت، واجتمعت الأسرة حول مائدة متواضعة لكنها مشبعة. ثمة شعور بانقضاء فقرة مزعجة يحاول الجميع نسيانها، لكن شيئًا ما بقي عالقًا في الجو يهدد في كل لحظة بالانفجار.

لا يسلم الشرف الرفيع

تعالت أصوات من الشارع، كنت قد نصبت طاولة الكوي قبالة التليفزيون، وأخذت أعد العدة لإنهاء كومة من الثياب المغسولة وقد طال عليها الأمد في سلة الكوي.

نظرت من النافذة المطلة مباشرة على الشارع، فإذا رجلان تعرفت على أحدهما وهو جار في نفس عمارتنا ولم أتعرف على الآخر، وهما يمسكان بخناق بعضهما، تراجعت عن النافذة وناديته:

- أبو غازي يتشاجر مع أحدهم..

تراكض الأولاد وتزاحموا حول النافذة وقد وصلتهم أصوات الشجار، أما هو فقد بدا عليه الوقار وهو يبعد الأولاد عن النافذة ليتمكن من التطلع من أقرب نقطة، ولكنهم تدافعوا ولم يستطع أن يتخذ وضعًا مريحًا؛ فصرخ بهم صرخة وصلت إلى المتشاجرين وجعلتهما يرفعان رأسهما نحو النافذة، وهنا صاح أبو غازي مستنجدًا:

- إليَّ يا جار، يكاد الرجل أن يخنقني..

تراجع عن النافذة مذعورًا وهو يفكر في هذه الورطة، شعرت أنه متوتر فعلاً ووجه إليَّ نظرات مستغيثة، أشفقت عليه

وقررت أن أتصرف بسرعة، رفعت سماعة الهاتف وطلبت رقم شرطة النجدة، بعد أن رد علي الرجل وأخذ معلومات عني أكثر من المعلومات عن الحادثة قلقت، وأخذت أدعو أن تطول المشاجرة قليلاً كي تصل سيارة الشرطة، ولا أكون أنا قد بلغت بلاغًا كاذبًا.

والحقيقة أن المشاجرة طالت واشترك فيها أكثر من طرف، ونزل زوجي ليتفرج كيف ستتطور الأمور، وأخذت أراقبه وهو ينظر إلى المشهد نظرة العارف ماذا سيحدث، وابتسم بخبث حين سمع صوت صفارة الشرطة، وهرب شاب كان قد انضم إلى المعركة بجانب جارنا، وابتعد العدو عن الجار وقد نفاجأ من وصول الشرطة، وبدأت الأصوات تتخافت ويعلو صوت الضابط وهو يسأل بصوت عال والناس يجيبون بأصوات هامسة، وفجأة سمعته يقول:

- ومن منكم "حكمت التميمي"؟

ها هو اسمي يصدح في الشارع وقد ظنني الضابط رجلاً.

عاد الضابط يصيح ساخرًا:

- أجيبوني من منكم حكمت بيك؟

وقعت في حيرة من أمري، ماذا أفعل الآن؟ هل أجيبه من الشباك؟ وزوجي واقف لا يبدو عليه أنه سيتدخل. هنا صرخ الضابط:

- من منكم يسكن في الشقة رقم 3 الطابق الأول من هذه العمارة؟

التفت الجميع إلى زوجي فنظر إليه الضابط وقال:

- لـمَ لم تجبني من ساعة وأنا أسأل عن اسمك؟ هات هويتك لنقفل المحضر.

اقترب زوجي منه وأخذ يحاول أن يهمس في أذنه الحقيقة المرة، ولكن الأخير لم يكن في مزاج يسمح بالهمس أو الأحاديث الودية.

- مالك يا رجل؟ كلمني كما أكلمك.. أليست معك الهوية؟

تبرع ابني (الصغير وليس الكبير بالإجابة نيابة عنه):

- عمو الشرطي هذا اسم أمي.

- ماذا؟ اركض وآتني بهوية أمك لنقفل المحضر.

- حاضر عمو.

ركضت وأحضرت هويتي من حقيبتي ووقفت وراء الباب وأعطيته الهوية بسرعة، وبذلك فاتني بقية المشهد في الشارع.

لم تنته القصة كما تعتقدون، لقد بدأت الآن عندما عاد الجميع إلى البيت. كان وجه زوجي أصفر مائلاً إلى الزرقة، دخل وهو يلوح بالهوية ويقول:

- أظن أنك الآن ارتحت. ها قد أصبح اسمك ورقم هويتك في قسم الشرطة.

- لماذا تقول ذلك وكأنني ارتكبت جرمًا؟
- لا ينقصك إلا ارتكاب الجرائم. أنا، زوجتي أنا، يذكر اسمها في المحضر؟
- ألم أجر المكالمة أمامك؟
- عذر أقبح من ذنب. من طلب منك إجراء المكالمة؟
- لا أحد، ولكنني أحسست أنه التصرف المناسب.
- التصرف؟ ولماذا تصرف؟ أليس في كل هذا الحي غيرك يحسن التصرف؟ شرطة النجدة؟
- هذا ما خطر ببالي، لا أدري، لقد كنت خائفًا وأردت أن أساعدك.
- تساعديني أيضًا، ومما كنت خائفًا؟ أخبريني بالله عليك.
- من استنجاد الجار بك.
- أنا أخاف من مشاجرة تافهة؟ ولم؟
- لا أدري.. كنت ترتجف ولم تعرف كيف تتصرف.
- فتصرفت أنت.. ونعم التصرف!
- ماذا دهاك؟ ما الذي حصل لتفعل هذا بنفسك؟ لقد بلغت عن مشاجرة وكتب ذلك في محضر الشرطة، هل خربت الدنيا؟
- نعم، بالضبط، خربت الدنيا، عندما أصبح أضحوكة في الحي تكون قد خربت الدنيا، وسوف أخربها على

رأسك أنت قبل أن تخربيها على رأسي. هل سمعت ذلك جيدًا؟ لست أنا من يردد اسم زوجتي في الحارات وأقسام الشرطة.

غباء متأصل

لم يبق عندي صديقات لأروي لهن همومي اليومية، فقدت صلتي بأغلب زميلات الدراسة، ومن أتصل بهن الآن أشعر أن عليَّ أن أجمل صورتي أمامهن. لماذا يا ترى؟ هل الدنيا معقدة إلى هذه الدرجة؟ لم تكن كذلك فيما مضى، كان كل شيء بسيطًا، وكان من البديهي أن ألتقي كل يوم بصديقة وأروي لها أدق تفاصيلي بدون أي تفكير جانبي.

أما في العمل، فلا شيء يوحي بالثقة، على الرغم من أنني أقضي معظم يومي الوظيفي وأنا أتشاغل لأبدو منهمكة، فأنا أراقب الجميع والجميع يراقبني. أحيانًا تنفتح قريحتي أمام موظفة جديدة عينت مؤخرًا، ولكن كل ما أقدر عليه هو إعطاؤها نصائح عن مضار الاختلاط بالآخرين والحكي الزائد، وهي تستمع إليّ والخوف يملأ تعابيرها، وها قد بدأت من يومين تطبق النصيحة علي. فهي تتحاشى الاجتماع بي، ولم تلب دعوتي إلى فنجان قهوة متعللة بالمرض.

هل بلغت منتصف العمر فجأة؟ يجب أن أجد صديقاتي وأعيد ترميم علاقاتي، وهناك ابنة خالتي التي تربيت معها، لماذا

لم نعد نجتمع كعائلتين معًا؟ كنا منسجمتين تمامًا، بدأت أتخيلها وهي تجرب قلمًا من حمرة الشفتين أخذته من طاولة أمي، وتذكرتها في يوم عرسها عندما اختبأت أربع ساعات تحت سرير والديها؛ لأنها كانت خائفة ومتوترة من إجراءات يوم الزفاف، كانت دائمًا تسليني بحركاتها العفوية. أنا بحاجة لأحد يتصرف معي بشكل عفويّ، هل أتصل بها الآن؟

بدأت بتشكيل رقمها وعند وسطه ترددت، لماذا لا تذكرني كما أذكرها؟ وتذكرت أنني في كل مرة أبادر بالاتصال بها، وفي كل مرة تتعمد أن تذكرني بأنني أنا التي اتصلت، ما عدا أن زوجها ثقيل الدم ولا يتخير عن زوجي. أما ابنها فقد أصبح شابًّا بشاربين، ومع ذلك تحمله على جنبها أينما ذهبت وكأنه طفل رضيع، ويجلس قبالة ابنتي ولا يرفع عينيه عنها، حتى إنها من ضيقها تهرب إلى غرفتها وتحبس نفسها فيها حتى يرحلوا. أما التوأم الذي أنجبته مؤخرًا فلا حول ولا قوة إلا بالله منه، لا شيء يقف في طريقه، وغير مسموح بالتعليق على تصرفاته؛ لأن كل ما يصدر عنه دليل ذكاء وتفوق، ومن يقول عكس ذلك يكون حاسدًا والعياذ بالله.

أحسست بضيق في صدري مع أنني لم أتكلم معها بعد، ولِمَ أنا متضايقة؟ أعدت سماعة الهاتف إلى مكانها، ومسحت عليه بكفي أنظفه من طبقة خفيفة من الغبار قد غطته، وخرجت إلى الشرفة أسلّي نفسي بمراقبة المارة على الرصيف.

إذا كبر ابنك

وضعت عبر السنين التي مضت لنفسي قواعد ذهبية أتبعها لأضمن سلامتي، وإذا كان بعضها معلنًا بل موجبًا، خصوصًا بين أولادي وزوجتي طبعًا عندما تكون راضية ونادرًا ما تكون كذلك، فإن بعضها الآخر سري للغاية. وأنا اليوم أشعر أنني مهدد فعلاً؛ لأنني تجاوزت إحداها - بدون قصد - وأنا أثرثر مع أحد زملائي في العمل، وأقرر أن أنضم إلى رحلة ترفيهية نظمها هو في يوم العطلة. كنت متوترًا وفي نفس الوقت سعيدًا، متوترًا لأنني لا أحب مخالفة القواعد الذهبية والانفتاح على زملاء العمل، ونصفهم ممن يتكسبون من كتابة التقارير عن بعضهم، وأنا لا أريد بحال من الأحوال أن أثري مخيلتهم بمواد دسمة عني، وسعيدًا لأنني اتخذت قرارًا في يوم سعدي هذا، وأنا لم أتخذ قرارات منذ قررت أن أتزوج بها.

- غدًا صباحًا سوف أشترك مع الشباب في رحلة إلى القلعة.
- بابا خذني معك أرجوك.
- وأنا أيضًا، أرجوك بابا، لم نذهب في رحلة كهذه أبدًا.

نظرت بحنان إلى ابني وابنتي، لقد أصبحا شابًا وصبية، كم أنا فخور بهما! توجهت إلى الصغير:

- وأنت، ألا تريد أن ترافقني؟
- لا.
- لماذا؟
- لأنني سأبقى مع ماما.
- ما.. ما؟

غصصت بلقمتي وسعلت سعالاً حادًا جعلها تناولني قطعة من الخبز، ونظرة اشمئزاز مرسومة على وجهها، واستأنف الصغير الحوار:

- سلامتك يا بابا.
- هل خفت علي؟
- نعم كثيرًا.

وهذا الصغير، ياه... كم هو حنون! أحبه من كل قلبي، وأشعر أنه يشبهني في كل شيء، صراحته وطيبة قلبه، ذكاؤه وأريحيته في التعامل مع الأشياء. أنا محظوظ لأن الله وهبني ثلاثة أولاد أصحاء ومؤدبين. وأخيرًا قررت هي التنازل والاشتراك بالحديث بعد أن هدأت نوبة سعالي فقالت:

- أي قلعة نويتم الذهاب إليها؟
- قلعة الحصن، أنا والشباب في العمل.

- هل هناك شباب حولك في العمل؟ كلكم كهول على وشك التقاعد.
- وأنت كم تبقى لك حتى تتقاعدي؟
- أنا أصغرك.
- نكغّولك، أصغر مني بسنتين يحق لك التفاخر.
- بيني وبينك خمس سنوات وها هي هويتي (قالتها وهي تفتح أصابع يدها الخمس في وجهي في حركة لا تهذيب فيها) وأمام الأولاد هذه المرة؟ لكل شيء بداية، غدًا ترفع يدها عليّ.

كنت متوترًا وكان يجب علي التصرف بسرعة، قفزت من مكاني وراء الطاولة وبحركة واحدة صرت وراءها، فاجأني منظر شعرها المحمر من الأصباغ من الوراء، كم أكره هذه اللون! لم تلتفت إلي وبقيت مثبتة رأسها إلى الأمام وكأنني لم أتحرك من مكاني، قبضت بيدي على شعرها وشددته إلى الوراء، سمعت صرخة امتزج فيها الألم بالدهشة، وتفاجأت بضعفها وعدم مقاومتها، ولكن ما آلمني بحق هو نظرة الرعب التي كانت على وجه الصغير، وقبضة الكبير الفتية الرياضية على ذراعي، أرخيت يدي عن شعرها وأنا أشعر بألم حقيقي الآن وابني لم يزل يضغط على ذراعي.

أدارني ابني (كم أنا فخور به!) نحوه وكأنني طفل صغير، نظر داخل بؤبؤ عيني وقال:

- إياك أن تفعلها مرة أخرى!

شعرت أنني غريب وسط قبيلة همجية مترابطة تمامًا فيما بينها. لم أحاول أن أعرف رد فعل ابنتي، لقد استحييت أن أنظر نحوها، انسحبت إلى غرفة نومي دون صوت، كنت متفاجئًا مثلهم، ولكنني أعرف في قرارة نفسي أنهم لم ولن يفهموا شعوري..

عندما استلقيت على سريري، كان ألم ذراعي يزداد حدة، أحسست أنني ربما لن أتمكن من النوم كما خططت لأهرب منهم، فكرت بالاستغاثة ولكنني لم أفعل، أخذت أتقلب في السرير، والألم يرعبني والقلق يعتصرني، كنت أريد أن ألغي رحلتي وأقضي يوم العطلة في الاستلقاء والاستمتاع بمطالعة ديوان المتنبي، أنا لا أحب الرحلات وخصوصًا مع الغرباء.

وأخيرًا دخلت إلى الغرفة وأغلقت الباب وراءها، لدهشتي شعرت بالارتياح لأنها قررت أن تعالج الموقف كما قدرت، فجلست نصف جلسة في السرير، وأنا أنظر باتجاهها مستسلمًا هذه المرة. كنت صامتًا وحاولت أن أجد كلمة مناسبة فلم أتوفق، ثم قررت أن أنتظر مبادرتها بالكلام. توقعت أن تطلب مني الاعتذار وكنت مستعدًا له، فأنا لم أقصد أن أؤذيها. استمر صمتها طويلاً هذه المرة، ليس من عادتها استجماع شجاعتها وفصاحتها فهي متوفرة دومًا. صمتت دهرًا آخر حتى

كدت أبادرها بالاعتذار ولكنني لم أفعل، ثم جلست على طرف السرير وهي مازالت صامتة، وأسندت رأسها براحة يدها متخذة وضعية التفكير.

بداية سفر الخلاص

كنت قد فكرت بهذا القرار منذ زمن بعيد، وعلى فترات متقطعة يتخللها فترات أخرى من التوازن غير المستقر، ولكنني لم أكن أجد الجرأة لأتخذه.

اليوم وبعد أن شدني من شعري أمام كل الأولاد وبدون ذنب يذكر، صار واضحًا في ذهني مدى استحالة التفاهم معه، والشعور الأقسى هو أنه لم يبق في قلبه ذرة مودة تجاهي، ومع ذلك مازال عندي خوف شديد من اتخاذ قرار.

لقد تبلّد شعوري بعزة نفسي منذ أن وقعت عيني لأول مرة على وجه مولودي الأول، كم كنت فخورة به، وكم كان هو وقتها فخورًا بنفسه! كنت دائمًا أبرر تصرفاته، وعندما تجاوزت مرحلة الضعف ووقفت على رجلي من جديد بعد حمل طويل، ومخاض مؤلم، وفترة انتقال عسيرة ومتعبة؛ اكتشفت أنني كنت طوال الوقت وحدي، وفي المرات القليلة التي كان فيها إلى جانبي كانت عنده أفكار سامة يعرضها بحيوية عليَّ.

لقد قررت يومها أن لا أنجب من جديد مهما حصل، وكان بالي مشغولاً جدًّا بـ (الثديين اللذين ترهلا لدرجة تذكره

بالأبقار)، و(الوجه الذي أصبح مليئًا بالبقع، ونصيحته ألا أخرج أمام أحد إلا إذا غطيته بطبقة معتبرة من الصباغ)، و(الشعر الذي فقد نصفه - حتى الآن - ولا ندري ماذا يخبئ لنا المستقبل).

ثم اكتشفت أن جمالي بشكل عام - أو بشاعتي - هو آخر اهتماماته، لذلك أنجبت طفلين جميلين ولم أندم لحظة على إنجابهما، وأعرف في قرارة نفسي أنه سوف يأتي اليوم الذي سأتعرض فيه لهذا الموقف، وأنا غير مستعدة له لا ماديًّا ولا معنويًّا.

ليس عليَّ أن أفكر كثيرًا، وكل شيء واضح بيننا، هو لن يتصرف، لأنه ببساطة لا يستطيع أن يتخذ أي قرار، ولكنه لم يعد يحتمل الحياة معي، وما يفعله الآن هو التعبير عن ذلك بطريقة حقيرة تتناسب مع نفسيته الحقيرة.

وأستطيع بكل بساطة أن أتحمل هذه الحياة بمرِّها الشديد؛ لأنها حياتي وليس عندي بدائل لها. ومن الآن فصاعدًا نضيف الضرب إلى قائمة الانتهاكات الأخرى.

مسحت على رأسي بكفي وقررت أن أقوم إلى واجباتي المنزلية؛ لأنني إذا لم أبدأ بذلك فورًا فلن أنجز شيئًا اليوم.

الياسمينة

خرجت إلى شرفة البيت أستنشق الهواء، هذا اليوم هارب من الصيف، استقبلتني نسمة برائحة الربيع وكأنها ترحب بي، ثم تبعتها نسمات مماثلة غمرتني بشعور نشوة مفاجئ، أخذت بعدها أتفقد أصص النباتات التي تدّعي أنها (مثل أولادها)، كان معظمها أجرد بفعل الشتاء الطويل هذا العام، ولكن - مهلاً - سوف تعيد إحياءها عندما يصبح الطقس مناسبًا، ولا أحد في مثل فراستها بالنسبة للطقس، فهي ما شاء الله، تعرف في الصباح هل ستمطر في المساء، وتعرف كم ستدوم العاصفة، وتعرف ما هي الملابس المناسبة لكل مناسبة، ولكن لا أحد يقدر مواهبها العديدة التي كبتت في هذا البيت المتواضع الذي لا يتناسب مع إمكانياتها.

لقد تعكر مزاجي الآن، بعد أن كنت قد بدأت بالاسترخاء، ووقع نظري على نبتة الياسمين.. يا للهول من الذي كتفها بهذا الشكل كأنها مقادة للاستجواب؟! أعني، أستغفر الله، أقصد أنها مهانة بطريقة مقصودة، من الذي فعل ذلك يا ترى؟ يا للهول! اقتربت من الشتلة المسكينة وأخذت

أفكـك سـيقانها وأطلقهـا، وكلمـا تحـرر جـزء شـعرت بالارتيـاح وكأنني أفك قيودًا في داخلي، ولما انتهيت من المهمة، تراجعت قلـيلاً ونظـرت إليهـا، هـا هـي تعـود إلى سـيرتها الأولى، لقـد أحضرتها بنفسي قبـل يـومين مـن المشـتل، على أمـل أن أثـري شـرفتنا الغنـاء وأرفـع مـن مسـتوى هـذا المنـزل المتواضـع في كـل شيء.

لم أكـن أشـك في مـن يجـرؤ علـى فعـل ذلـك، لا.. بـل ويقصـد أن يتـدخل فيمـا يخصـني ويحـاول إفشـالي بكـل الطـرق والوسـائل، هـل تحـب اليـاسمين؟ أبشـر.. سـوف أقضـي علـى الياسمينة بطريقتي الخاصة.

دخلت مثل الطوفان إلى البيت وبحثت عنها فلم أجدها، كان ابني البكر يضع قدميه بكامل حذائهما الرياضي (ومقاس حذائـه 44) علـى طاولـة الوسـط في غرفـة الجلـوس، في نفـس المكان الذي أضع عليه عشائي كل يوم، ويقلب قنوات التلفاز بسرعة أولمبية دون سبب محدد، شعرت أنني أريد أن أقتل أحدًا وبالتحديد هي، هي التي تدافع دائمًا عن هذا المخلوق الذي لم تحسن تربيته.

- أين أمك يا ولد؟
- من، ما.. ماذا؟

بالكاد أحس بوجودي..

- أين أمك؟

- في الحمام

اتجهت فورًا إلى غرفة الحمام وبدأت أصرخ من وراء الباب المغلق، وخبطت عليه عدة مرات بقبضة اليد لتأكيد ما كنت أقوله. كان كلامي يصلها حتمًا ولكن يبدو أنها اتخذت أساليب جديدة للدفاع عن نفسها منذ أن شددت لها شعرها، أفهمتها رأيي بها وبأهلها عامة، خصيت أمها بمقطع منفرد، وأبديت بصراحة امتعاضي من سوء تربيتها وأخلاقها، اختتمت بنصيحة (أقرب إلى الأخوية) بأن لا تحاول الاقتراب مما يخصني في هذا البيت، وذلك إذا أحبت أن تستمر معي، وإلا فلكل حادث حديث.

اذكروا محاسن موتاكم

عندما بدأ بالصراخ من وراء باب الحمام، ظننت أنه بدأ مسلسله اليومي مع ابنه؛ لأنه اعتاد في الآونة الأخيرة أن يشحن ابنه كل يوم بمحاضرة أخلاقية من طراز تراثي ثقيل تجعل كليهما في نهاية الأمر يصرخ بحقد شديد، والحقيقة فقد أذهلني بتنوع موضوعات المحاضرات وثرائها بالتجارب وذكريات الطفولة.

لكن ضرباته المفتعلة على الباب أيقظتني وجعلتني أركز أكثر، وبين صوت المياه وأذنيَّ اللتين سدتهما طبقة سميكة من رغوة الصابون. لم أتمكن من تحديد ماهية الشتائم هذه المرة، والحقيقة أنني لم أكن مستعجلة، ولم أكن أستغرب شيئًا، وكما توصلت إلى أن قرار التخلص من هذه الحثالة في يدي، توصلت أيضًا أن التوقيت يجب أن يكون في يدي، بالطبع إذا قدرت على الصبر.

أعترف أنني بعد خمس دقائق من الصراخ المتواصل بدأت أشعر بالفضول، هل نسيت الأكل على النار؟ لا.. لم أطبخ أصلاً. هل غيرت مكان ديوان المتنبي وأنا أمسح الغبار؟ لا.. أذكر تمامًا أنني أعدته إلى مكانه مع التبجيل، البيجاما نظيفة،

قهوته يجب إعدادها بنفسه، أقصد لا أحد يعرف كيف يعدها كما يجب. إذن ماذا؟

لففت نفسي بمنشفتي وفتحت باب الحمام ثلاثين درجة مئوية، نظرت في عينيه وقلت:

- ألا يمكنك تأجيل الموضوع عشر دقائق ريثما أخرج بالسلامة؟

- نعم، أؤجل كل المواضيع حتى تنتهي من الحمام الملكي، الذي لا ينتهي، وعندما ينتهي يأتي دور تخفيف الشعر وبعدها دور الصلاة وكل العبادات، ولا أدري من ستتصل أثناء ذلك وتفتح معك أحاديث لا تنتهي، أتمنى أن تعطيني القليل من وقتك الآن... الآن، لأن القضاء على نبتتي المفضلة جريمة سوف تدفعين ثمنها غاليًا، هل تسمعين؟ أغلى مما تتصورين..

ابتعد مشيحًا بوجهه وهو يخبط الأرض بخطوات صارمة، وأخذت أفكر: أظن، لا، أعتقد أنه يقصد الياسمينة، لقد جدلت أغصانها أمس لأن الرياح كانت شديدة، وخفت عليها لأنها مازالت صغيرة وضعيفة. ماذا أقول له الآن؟ كم أكرهه! لقد ذكر أمي أثناء صراخه، وأنا متأكدة أنه لم يذكرها بالخير، امرأة تحت التراب منذ سنين، ولا يرحمها من لسانه السليط، هكذا ببساطة شعرت أن مزاجي تغير، وتحول البرود إلى بركان مكتوم، شعرت بالرغبة في البكاء، ولم أبك.. مازال بوسعي التصرف.

أنا أصيلة

في المستشفى كنت شبه منومة، بدأ إرهاق اليومين السابقين يأتي بمفعوله، لم يعد الخوف أو القلق يستطيع أن يقيني مستيقظة لليلة ثالثة، وبدا واضحًا أنني سأغفو ولو واقفة إذا لم أتدارك الأمر وآخذ لنفسي قسطًا من النوم.

وبينما أنا أفكر في طريقة ما لأستلقي في هذا المستشفى الذي لا مكان فيه للزوار، ولا أمان فيه للمرضى، شعرت بأنه يتململ تحت أنابيبه، بل إنه أصدر صوتًا، قفزت واقتربت لأتأكد من الأمور، ففتح عينيه للحظة ثم أغلقهما. ركضت إلى الخارج بسرعة قياسية؛ نظرًا لوضعي وسني وناديت الممرضة والرجل الذي يقف وراء الكونتوار، والذي لم أعرف حتى الآن ما صفته، لكن بدا أنه المتصرف بأمره في هذا المكان، حتى إنه إذا مات مريض خلال غيابه يبدو موته خلبيًّا وغير حقيقي بالمرة.

بعد أن تأكدت الممرضة من صدقي وحسن نيتي وسمح المتصرف بأمره باستدعاء طبيب، أكد جميع المرضى وأقرباؤهم الحاضرون لي أن زوجي اجتاز مرحلة الخطر، ويمكنني أن أطمئن

عليه، حتى إن مريضًا مخضرمًا يبدو عليه أنه مختصٌّ بحالة زوجي طلب حلوانًا مناسبًا. كان الوضع كاريكاتوريًّا تمامًا، وعندما وصل الطبيب أيقظني الزملاء الزوار لأسمع رأيه، وكان عندي شعور حقيقي بأن رأيه ليست له أهمية قصوى.

خرجت من المستشفى وأنا أترنح، كنت مرهقة ولكن شعورًا بالارتياح والتحرر كان يغمرني، سمحت لنفسي باستقلال سيارة أجرة مع أن الميكروباصات كانت متوفرة. كان الطقس يميل إلى البرودة وكانت الساعة السابعة مساءً. في الطريق وقعت عيني على عداد سيارة الأجرة ولمت نفسي، كان بيتي بعيدًا، وكنت أصرف من المال الذي جمعه لي زملائي في العمل لإعانتي في هذه الأزمة، الله وحده يعلم ممّ حرموا أنفسهم وأطفالهم هذا الشهر لجمع هذا المبلغ.

لاحت لي العمارة التي أسكنها من آخر الشارع وكأنها الجنة، كانت الإضاءة في الشارع خافتة، أحسست بالامتنان للسائق لأنني وصلت، دفعت له ثروة صغيرة بالنسبة لأجرة الميكرو، وبدأت أصعد درجات الطابقين حتى شقتنا، استعملت الجرس؛ لأنني لم أجد في نفسي القوة لاستخراج مفتاحي من الباب.

فتح لي الصغير وهاجمني بضمة قوية شعرت بعدها بالغثيان؛ لأنه أصاب رأس معدتي برأسه وهو مشهور بالعائلة أن رأسه أضخم من الحجم الطبيعي، لأول مرة أيقنت أن هذا

حقيقـي، وأنـي كنـت طـوال الفـترة الماضـية أكـذب نفسـي وأكذبهم.

كـان الكبير متسمرًا أمـام التلفـاز يقلـب القنـوات بسـرعة غير منطقية كعادته، وكان رد فعله عندما رآني عاطفيًا جدًّا؛ إذ إنـه أدار رأسـه باتجـاهي وغمـزني، أخـذت الريمـوت مـن يـده وأغلقـت الجهـاز وأعلنـت بالصـوت العـالي لأسمع ابنـتي الـتي لم تخرج مـن غرفتهـا؛ لأن صـوت جهـاز تسـجيلها مـازال مسـموعًا من وراء الباب المغلق.

- لقـد اسـتفاق والـدكم والحمـد لله، وقـال الطبيـب إنـه تجاوز مرحلة الخطر.

ركـض الصـغير إلى غرفـة أختـه وفـتح البـاب وهاجمهـا بالأخبـار، فجـاءت تـركض ووجههـا مبتـل بـدموعها، ولكنهـا كانـت تلـبس (ظننـت لأول وهلـة أنـني أشـاهد كابوسًـا) بدلـة رقـص شـرقي مبتذلـة، لدرجـة أنهـا عنـدما رأت نظـراتي ونظـرات أخويهـا سـحبت غطـاء طاولـة الأكـل القريبـة رامية كل مـا عليهـا على الأرض، وغطت به جسدها العاري تقريبًا.

كنت متعبة، قمت إلى غرفتي وقلت:

- أريد فقط أن أنام.

تبعني الصغير وأخته وهي تتكلم وتبكي فأغلقت البـاب بوجهيهما، ولكن الصغير بدا أنه سيكسر الباب إذا لم أسمعه. فتحت الباب ثانية وقلت لها:

- أنت اغربي عن وجهي وانزعي القمامة التي عليك، وانتظري جزاءك، وأنت ادخل وقل لي ما تريده باختصار.
- أريد أن أنام معك اليوم.
- أنا متعبة وأنت ترفس أثناء نومك.
- نعم أرفس ولكن دون أن أقصد الرفس.
- ماذا تقصد إذن؟
- لا أدري.. لا أذكر شيئًا مما يحدث وأنا نائم.
- تقبرني.
- يعني أنك تسمحين لي؟
- لا، لا أسمح لك.. أريد أن أنام، أشعر بالدوار، لا أريد أن أمرض الآن.
- أرجوك لا تمرضي، سوف أخرج حالاً، حالاً.

كان مرتعبًا، لمت نفسي، سحبته من يده قبل أن يخرج وأخذت أضمه إلي وأقبله، ولم أتركه حتى شعرت أنه مل فعلاً.

قليلة الأصل

صحوت من غفوتي الكابوسية، فوجدت أمامي صورة وجه ظننته لأول وهلة وجه أمي. خفت قليلاً، أغمضت عيني وقلت في نفسي إن أمي ماتت من عشر سنوات، هل أنا معها في الجنة؟

ولكن الألم الذي هاجمني في صدري أعاد إلي ذكريات الأيام السابقة دفعة واحدة؛ فتجرأت وفتحت عيني من جديد وميزت وجه أختي، وهي جالسة على الكرسي أمامي تنظر أمامها والحنان يقطر من محياها، تأملتها قليلاً مستمتعًا بهدوئها واستسلامها، وبحثت عن زوجتي التي يقطر محياها عصبية وسما فلم أجدها. تخيلت أنها في مكان ما خارج الغرفة تعطي تعليمات لكل من يخطئ ويسلم عليها، وهذا ما أذكر أنها كانت تمارسه طوال الفترة الماضية، كنت أنام وأصحو على صوتها وهي تتكلم.

لقد أنقذتني هذه المرة عصبيتها وتصرفاتها الانعكاسية عندما فاجأتني نوبة قلبية وأنا أتصفح ديوان المتنبي. لا أعلم بالتحديد كيف تصرفت، ولكن النتيجة أنها دبرت لي هذه

العملية الإسعافية في مستشفى لا يدخله الناس إلا بالدور - إذا لم يفاجئهم الموت قبل حلول دورهم - ولكن أين هي؟

- أ.. أ.. (محاولة للكلام أصبت بعدها بنوبة سعال متوحش، ظننت بعدها يقينًا أنني سأسلم الروح)، ولكنني بقيت حيًا وتجمع حولي رجلان وامرأتان إحداهما أختي، وليس بينهم أي فرد من الطاقم الطبي.
- باسم الله عليك يا أخي لا تتكلم، استرخ، وتنفس من أنفك، حاول..

وتناول الرجل وعاءً من تحت السرير ووضعه تحت ذقني، ودفع ما وراء كتفي دفعة جعلتني أتقيأ.

- الحمد لله، ذهب الشر.

كنت أتساءل إذا كان الرجل ممرضًا متنكرًا بزي رجل عادي، ولكن الموقف لم يكن يتحمل الاستفهام، استلقيت منهكًا، وعاد الرجلان والمرأة إلى أماكنهما جانب الأسرة التي تخصهم، وبقيت أختي تنظر إلي بعينين دامعتين، وأخذت تتمتم بأدعية بصوت خافت، فشعرت بهدوء وصفاء يغمرانني وعدت إلى الإغماء من جديد.

أنا أصيلة

لقد بدا مشوار المستشفى كل يوم كابوسيًّا، نفدت إجازاتي كلها ولم أعد أستطيع البقاء فترات طويلة عنده. أما الأولاد فقد أثبتوا لي أنهم (عند المحن) يفضلون عدم الاعتماد عليهم. أما أخته وهي الفرد الوحيد من عائلته الذي مازال على صلة طيبة بنا، فهي لم تعرض علي أن تتناوب معي في السهرة عنده، وأنا لا ألومها، فوراءها بيت وأطفال صغار، وهكذا صار برنامجي اليومي، أن أنهي عملي في ديوان الوزارة، ثم أنهي عملي في المنزل قدر الإمكان؛ لأنه لا ينتهي، ثم أتوجه إلى المستشفى مع ابني الكبير وهو صامت لا أدري بم يفكر، أو ابنتي (بالدور) وهي لا تصمت أبدًا ومع ذلك لا أدري بم تفكر، أو ابني الصغير الذي لا يتوقف عن اللعب طوال الوقت، ويلهو بكل شيء يجده أمامه، ثم نبقى معه أطول فترة تسمح بها الزيارة، ثم أحاول أن أنام عنده علي أخدمه خدمة ما حتى الصباح؛ لأنه لا يوجد من يخدم في الليل، فإذا تمكنت من إقناع الممرضة المناوبة، فإنني أبقى عنده حتى الصباح، وأتوجه من المستشفى إلى العمل مباشرة.

اليوم كان دور الصغير، وهو -والحق يقال- كان مزعجًا تمامًا، لقد ركض ركضة واحدة من باب الدخول حتى غرفة أبيه في نهاية الممر في الطابق الثاني. أشعر أنه أيقظ كل النائمين، وقد يكون قد أيقظ المغمى عليهم، وقد يكون أنهى حياة بعض المحتضرين، ولكني لم أتمكن من اللحاق به ولم أستطع الصراخ؛ لأنني في المستشفى. لقد كظمت غيظي حتى وصلت إلى غرفة زوجي لاهثة، وعندما وصلت نسيت أمر الضجيج الذي سببه، فقد كان ابني مقبوضًا عليه، وكانت الأرض غارقة بسائل أرجواني لم أتعرف ماهيته، وطاولة الجنب لأحد المرضى واقعة على الأرض وقد أصيبت بكسر قاتل، وهي مصنوعة من معدن رقيق، وثمة شظايا زجاج ناعمة تلتمع كلما مد الإنسان نظره بكل الاتجاهات.

حاولت أن أمتص أولاً موجة الغضب العارم التي كانت تجتاح كل الموجودين، لقد هدأت من روع المرضى واسترضيت الأقرباء ووزعت عليهم علبة الحلوى التي كانت بحوزتي. أما الممرضة فقد وعدتها بإكرامها إذا ساعدتنا بتنظيف الأرض بسرعة، وذلك قبل أن يرانا المشرف ويغضب علينا. كان غضب المشرف هو الذي لا طاقة لي به؛ لأنني لا أعرف بالضبط ما هو عمله، والحقيقة أن الحادثة أخذت منا عملاً استمر أكثر من ساعة واستنزفت آخر نقود معي.

أما الصغير فقد حلفت أنها المرة الأخيرة التي يرافقني فيها إلى المستشفى، أما أباه فقد كان يتفرج على المشهد بهدوء مريب منذ البداية، لم يعلق بكلمة، كأن الأمر لا يعنيه، وقد عزوت ذلك في البدء إلى تعبه، ولكن بمرور الوقت بدأت أتوجس شرًّا ما؛ لأنه والحق يقال كان قد بدأ يتحسن منذ فترة، وبدأت أشعر بكرهه منذ أن بدأ يسأل عن أخته وهو يوجه إليَّ نظرات غير مريحة.

فحولة

لم أكن أريد لها هذه النهاية المؤسفة؛ فهي أم أولادي وظروفها صعبة، مات أبوها، ثم ماتت أمها، رحمهما الله، لم يقوما بتربيتها كما يجب، ولكن الميت لا تجوز عليه إلا الرحمة، وعندما تقاسمت مع أخويها تركتهم، اكتشفت أن البيت العامر الذي طالما تغنت بأيامه كان مستأجرًا، وأن الأرض التي كانت مسيرًا لنا وقبلتنا كل يوم جمعة في الربيع لم تكن ملكًا لهم، وإنما كانت ملكًا لخالها، رحمه الله هو الآخر كم كان سيئ الخلق. وإكرامًا للعشرة القديمة، كان المرابع الذي اشترى الأرض بعد موته يعامل العائلة معاملة المالكين. باختصار فإن تركتها السخيفة صرفت في حينها على تفاهاتها، وأعلم أنها بأخلاقها الحسنة لن تلتجئ إلى أحد أخويها، بل الأفصح أن أقول إن أحدهما لا يمكن أن يتحملها في بيته.

ولكنني بعد ما فعله ابننا في المستشفى، كان من واجبي أن أتصرف، لقد اكتويت بنار خجلي والناس تنظر إليَّ، كوالد لهذا العفريت من جهة، وزوج لهذه الفاجرة من جهة أخرى، ولم أتمالك نفسي وأنا أنظر إليها وهي تتحرك بسرعة، تارة تجمع

أشـياء تبعثـرت علـى الأرض، وتـارة تـتكلم بفصـاحة موجهـة تعليماتها وكـأن مـا حصـل لا يعـدو كونـه حادثـا بسيطًا علـى الجميع المساهمة بمحو آثاره، وأنـا أعـرف مـن خبرتي أنها قـادرة على احتواء المواقف، لم أتمالك نفسي من استذكار كل حياتي الماضـية معهـا بلحظـة، وخصوصًـا مـؤخرًا عنـدما تركـت أخـتي وحـدها تنتظـر صـحوتي - أو مـوتي - بعـد العمليـة، وذهبـت إلى شـؤونها ومشـاغلها، كـان هـذا الموقـف يحـدث نخـزة قويـة ناحيـة القلـب كلمـا تذكرتـه، ولـئن كنـت قـد أجلـت، أجـد نفسـي مضـطرًا، ولـو أمـام زملائـي المرضـى، أن أبـين أنـني رجـل هـذا البيـت، يجـب أن يعلـم زملائـي المرضـى مبـدئيًا، وكـل معارفنـا وأقربائنا فيما بعد، أنني كشفت أمر زوجتي من زمان طويل، وأن سكوتي عنها كان لأسباب تكتيكية.

عنـدما انتهـت عمليـة التنظيـف وعـاد الهـدوء النسبي يخيم على جو الغرفة، اقترب الصغير مني وجلس على الكرسي الخالي أمامي وقال:

- لقد اشتقت إليك.

شـعرت بعاطفـة شـديدة، وعـادت النخـزة ناحيـة القلـب، ولكـني عـدت فتمالكـت نفسـي وركـزت، أريـد أن أعلـن بصـوت مسـموع قـرارًا يتعلَّـق بكـل حيـاتي، اقتربـت مـني، وطلبـت مـن الصـغير أن يجلسـها علـى الكرسـي؛ لأنهـا كالعـادة هلكانـة مـن التعب، فقام الصغير وأصر أن تجلسه على حضنها، فلم تتردد،

وصار رأساهما تقريبًا على نفس الارتفاع أمامي، واكتشفت أنهما متشابهان تمامًا، حتى إن رأسيهما بنفس الحجم تقريبًا.

نظرت في عينيها، لأوّل مرة منذ فترة طويلة، كانت الحدقتان تعكسان آخر شعاع من شمس الغروب التي تسربت من الشباك المقابل، ووجدت فجأة عينين عسليتين تحدقان بي، كانت الهالات السوداء حول العينين قد تضاعف حجمها وقتم لونها، ولكن لون الحدقتين استوقفني طويلاً، لقد فوجئت بهما واكتشفت أنني لم أكن أعرف بدقة لون عينيها، وبعد أن عرفته الآن أخذت أتردد في الإفصاح عن قراري المصيري، مع أن هذا لا يتعلق بلون العيون بشكل عام، استجمعت بعض شجاعتي وسألت بصوت خافت جدًّا، خافت لدرجة أنها لم تسمعني:

- أين أختي؟

- انتظر لأقرب أذني من فمك..

صرخت بصوت جعل كل من في الغرفة يلتفت إلينا برعب:

- أقول لك أين أختي؟ هل سمعتيني الآن؟

تلفتت باستغراب وكأنها تعتذر للناس عن فظاظتي ثم أجابت:

- الصراخ يتعب قلبك، ظننت أنك تريد الكلام بصوت غير مسموع للآخرين.

- ولماذا لا تريدين أن يسمع الناس كلامنا؟ لكي لا تظهر حقيقتك أمام الآخرين؟ أين أختي؟ هل طردتها بعد أن تأكدت أنني لن أموت؟

بهتت تمامًا بعد هذا التصريح العلني، وأظن أنني الآن أصبحت سيد الموقف.

- هل ستجيبني أم إنك كالعادة ستتحججين بضيق الوقت؟ أريد أن أسمع القصة الكاملة من فمك قبل أن أتخذ أي إجراء.
- أفضل أن أتكلم بحضور المذكورة أختك.
- المذكورة؟ ال.. مذ.. كورة؟ هل تمزحين الآن؟

كان وجهها قد أصبح كحلي اللون، لا أردي لماذا، هل هو هبوط المغيب أم ضعف الإضاءة؟ ولا أدري لماذا لم أستطع تفسير التعبير الذي ارتسم على وجهها! على كل الأحوال انتظرت طويلاً، ولم أسمع أي رد، المفاجأة أن أحد أقرباء المرضى زملائي، ذلك الذي ظننته ممرضًا متخفيًا هو الذي أجابني:

- يا أخ، أنا لا يحق ربما لي التدخل بين زوجين، ولكنك غريب الأطوار فعلاً، هذه امرأة تخدمك بتفان منذ أسبوعين وكل الحاضرين شهدوا مواقفها في ظروف مختلفة، لماذا تقابلها بهذا الجحود؟ هل تعني ما تقوله فعلاً؟

- أنت من الذي نصبك محاميًا عنها؟ ألم تكن حاضرًا عندما أفقت من الإغماء فلم أجدها بجانبي؟
- نعم عندما ساعدتك..
- يا سيدي كثر الله من أمثالك.. لقد ساعدتني بالفعل، وأنا ممنون، سوف أردها لك قريبًا، بالطريقة التي تراها مناسبة..

جاءني صوتها الجهوري وهي تحسم الأمر:

- يا أخي لا تؤاخذنا، زوجي أعصابه متعبة قليلاً، وأنت تعرف كم المعاناة التي تعرض لها في الفترة الماضية..
- أنت لا تتدخلي في الحديث دون أن أسمح لك..
- أنت اسكت قليلاً، فالكلام لا يناسب وضعك..
- وهل يناسب وضعك أنت؟

عاد الرجل ليقول وهو ينظر باتجاهي بعينين مذهولتين:

- هذا الرجل غريب الأطوار.. حقًّا.

أظن أن تعاطف الرجل معها أعاد إليها قوتها، التفتت مرة أخرى باتجاهي وقالت:

- أختك بخير وهي تسأل عنك دائمًا، ولكنها لم تستطع أن تحضر العملية، ولكن عندما أخبرتها على الهاتف أنك أفقت تمامًا وتجاوزت مرحلة الخطر، استأذنت من زوجها وأمضت تلك الليلة معك، ولقد شكرتها لأنني كنت بأمس الحاجة إلى النوم والراحة. ومنذ ذلك

اليوم وهي تتصل وتسأل عنك، وقد وعدها زوجها بأنه سوف يسمح لها بالقدوم مرة ثانية.

- هذه هي آخر أقوالك؟
- نعم، بإمكانك إقفال المحضر. وأنا مسؤولة عن كل كلمة قلتها والله على ما أقول شهيد.

لمحت ابتسامة ماكرة على طرف شفة الرجل - الممرض، نظرت إليها بحنق شديد، كانت تنظر في الفراغ أمامها، وكان ابني ما يزال على حجرها، وقد بدا شاحبًا باقتراب موعد نومه. أظن أنها لن تقاتل لتمضي ليلتها معي، كان في وجهها إصرار يرتسم قبل اتخاذ القرارات الحاسمة، نسيت أمر قراري الحاسم وأخذت أفكر: ترى بماذا تفكر - هي - الآن؟

- هل ستحتاج إلى شيء محدد غدًا لأحضره لك؟

فاجأني خفوت صوتي مرة أخرى وأنا أجيب:

- لا.. ولكني مشتاق إلى أختي.
- نعم، أختك، سوف أكلمها الليلة، ربما تتمكن من المجيء غدًا بإذن الله.
- وهل أنت مستعجلة الآن؟ باقي نصف ساعة على موعد المغادرة.
- أنا لست مستعجلة، أنا أريد المغادرة، أريد أن أذهب إلى البيت.. لأستلقي.
- أنت متعبة كالعادة.

- لست في وضع يسمح لنا بالمناقشة، ولكني أعدك بالصبر والدفاع عن عائلتي حتى آخر قطرة في دمي.
- ها هي زوجتي تتخيل أنها تلقي خطابًا.
- أنا أعدك، وسوف أتصرف.
- أنا الذي سيتصرف.
- كيف ذلك؟

سمعت صوتي وهو يخاطبها وكأنه يأتي من إنسان آخر، شخص ما كان موجودًا ولكنه غير مرئي، كان يراقب منذ زمن كل المواقف بيننا ويقيمها ويتخذ إجراءات لا أقوى عليها، سمعت صوتي - صوته - يقول ببرود:

- أنت طالق.

غمرت الدهشة وجه المريض المستلقي بقربي، شعرت أنه استفاق قليلاً من إغماءاته المتكررة، واقترب الرجل - الممرض - من سريري وحملق بي وكأنه يتوقع كارثة أخرى يجب تفاديها، وسمعت حوقلات عقلانية بنبرات مختلفة لم أتبين من موقعي من هو مصدرها بالضبط، وكان كل ما تمنيته في تلك اللحظة هو نوبة بكاء هستيرية من زوجتي، واحدة من تلك النوبات التي كانت تتحفني بها لأسباب سخيفة مختلفة، وهذا ما لم أحظ به. لقد كان وجهها أخف حدّة من قبل، بل يمكن وصفه بالمائل إلى الهدوء.

أنا حرة

لقد صارت حياتي أكثر هدوءًا؛ ولكنني لا أستطيع أن أخرج من هذا الحزن الذي يسكنني صباح مساء. لماذا أشعر بالضعف؟ يبدو أنني كنت أستمد قوتي الخارقة من ضعف أبنائي وضعف شخصية زوجي.

ها هي الحياة تختبرني من جديد، وأقدر أنني يجب أن أنجح هذه المرة. تقدمت بي الحال في عملي، في المساء أذهب إلى عيادة طبيب نسائي تعرفت إليه أثناء وجودي في المستشفى، وأقنعته بالاستعانة بخبرتي في الملفات، ولا أدري تمامًا ما مدى اقتناعه بضرورة توظيفي بوقت كامل في عيادته؛ لأنني حاليًا أعمل على ذلك. هو يراهن على أنني جلبت له الحظ لأنه مبتدئ، وأنا أراهن على عملي المرهق وراتبي القليل، ولكن أشعر أنني أنجزت معه مشروعًا صغيرًا ناجحًا.

لقد أقنعت عددًا من مراجعات العيادة بتجريب الطرق الحديثة للإخصاب، وكنت أنسق مع مخبر قريب من العيادة (ليس قريبًا جدًّا) إجراء التحاليل اللازمة وأحيانًا غير اللازمة، حسب الحالة المادية للزبونات. نظمت الجداول الخاصة

بالعادات الشهرية، والأخرى الخاصة بجدولة ديوان الزبونات اللاتي يطلبن ذلك، ذرفت دموع الفرح لمن نجحت محاولاتهن ودموع الحزن لمن فشلت، وكنت في كل مرة صادقة إلى حد الملل بعواطفي، كنت أرى في كل حكاية حياتي، نجاحي وفشلي، وفي كل مرة كنت أبكي على نفسي.

كان هذا الحي الشعبي الذي وجد لي فيه رب عملي مسكنًا حقيرًا، يبعد عن منزل الزوجية كثيرًا، وهذا ما حز في نفس أولادي؛ فقد كان بيت خالهم الذي سكنته لبعض الوقت، في نفس حيهم، وكانوا يزورونني في اليوم مرتين وأحيانًا ثلاث مرات، وكانت زوجة أخي تفرح كثيرًا بهم لدرجة أنها تركت المنزل في أحد الأيام دون أن تقول إلى أين هي ذاهبة. لذلك أجد بيتي الحالي مريحًا من ناحية الحفاظ على الأمن العام في العائلة. أما مشكلة المواصلات واللقاء اليومي مع أبنائي فقد صار الأمر معقدًا ولكنه ليس مستحيلاً. مازلت أستطيع بطريقة أو بأخرى الخروج بإذن من عملي الحكومي للقاء ابنتي أو ابني في موعد الانصراف من المدرسة، بل أصبحت دعوتهما على الغداء تثير فيهما حماسًا لم أكن أعهده في طبعهما من قبل. كنت أعطي ابنتي تعليمات عن نظافة البيت وعن تحضير بعض الوجبات، وها هي بدأت تتجاوب معي. أما الصغير فقد صار يعتمد على نفسه كثيرًا، بل إنه يهتم بمظهره ليجعلني أطري عليه كل يوم.

أما ابني الكبير فإنه يقضي معظم لياليه في غرفتي. لم أعد أعرف أهي غيرة عليَّ أم تعلق بي، أم هروب من مواجهة أبيه الذي يبدو أنه يحمله مسؤولية الوضع الذي وصلنا إليه (أنا أستعير تعبيره). ولكن مبيته عندي لا يعني أننا متفاهمون على شيء، فمازال كما عهدته على غموضه، ودراسته في أقصى درجات التردي، وهو يعيد سنته الثانوية الثالثة للمرة الثالثة، وليس هناك أمل أن ينجح هذا العام، والأمر ينطبق على جميع أبنائي حاليًا.

أنا حر

لقد أصبحت الحياة أكثر جدية الآن وأنا أقوم بواجب الأم والأب معًا. أنا لم أستلق لقراءة ديوان المتنبي منذ شهور، ولم أعد أذكر متى كانت آخر مرة تفرجت فيها على التليفزيون، ثم شربت الشاي ورفعت قدماي لأكمل سهرتي دون أن آبه لبقايا العشاء على الطاولة، وللفتافيت على الأرض. كان بيتنا دائمًا نظيفًا، ويجب أن يبقى كذلك. وهذه العبارة على بساطتها كلفتني ساعات من العمل المنزلي الذي لم يؤت ثمارًا حاسمة. لذلك فقد رضيت بمستوى أقل من النظافة والترتيب، بل إنني أشعر بالارتياح أكثر هكذا. أصبحت ملابسي بمتناول يدي في الصباح عندما أصحو متأخرًا بعد أن اعتمدت لها كرسيًّا خاصًّا تكدست عليه، القمصان على مسند الظهر والسروايل على المقعد عرضيًّا، أما الجوارب فتبقى في مكانها (فردة في كل حذاء) حتى أقرر استبدالها.

أما الغسيل فصار نادرًا في بيتنا، فبعد عدة محاولات فاشلة من ابنتي للقيام بهذه المسؤولية أتلفت خلالها عددًا من ملابسنا العزيزة، ولونت عددًا آخر بألوان زهرية أو زرقاء، لم نعرف ما

مصدرها، منعتها من الاقتراب من الغسالة، وصرت أغسل بنفسي عندما يتناهى إلى سمعي أنه لم يعد لدى أحد في المنزل قطعة يلبسها. أما بالنسبة للكي فهذا ما فعلته بإتقان بشهادة الجميع، وذلك إذا تسنى لي الوقت، وإلا فقد كنا نحاول أن نلبس القطع التي لا تحتاج إلى الكي. ومع الزمن صارت معظم ثيابنا لا تحتاج إليه فعلاً.

أحيانًا أسأل نفسي: هل أخطأت فيما فعلته؟

لقد حاولت أن أعيدها عدة مرات، عندما كان الأولاد يكتئبون بعد عودتهم من عندها. في أول مرة بذلت جهدًا لأقنع نفسي بأن عودتها ضرورية، ثم بعد أن رفضت وبشكل قطعي بدأت أشعر بثقل الوضع الجديد أكثر، والآن وبعد مرور ستة أشهر وبضعة أيام صار لزامًا عليَّ أن أضع خطة لأصطادها من جديد.

إنني أحن إلى رائحة الطبخ في البيت، وأحن إلى ديوان المتنبي، وأحن إلى جلوسي مثل الملوك ساعات طوال على كنبتي المفضلة أراقب أولادي حولي. لم أعد أرى أحدًا منهم، يقضون النهار بين المدرسة وبيت أمهم، وإذا طلبت منهم يومًا البقاء في البيت، يواجهونني بنظرات غريبة فيها من الحقد والعداء أكثر ما فيها من اللوم وإلقاء الذنوب على كتفي. لقد وضعت نفسي في موقف الدفاع عن النفس أربعًا وعشرين ساعة في اليوم. لذا فقد امتنعت عن الاعتراض على أي شيء، وهذا ما قرب

وجهات النظر بيننا، وهذا الكلام ينطبق فقط على الصغير وأخته، أما الكبير فيبدو أنه فارق هذا البيت إلى الأبد، وعرفت أنه يسكن مع أمه تقريبًا.

ترى هل أخطأت حقًّا؟ لقد فعلت ما فعلته ليعلموا من هو رجل هذا البيت، وليتربوا على القيم الصحيحة مهما كانت الظروف.

ترى هل استوعبوا من هو رجل هذا البيت؟

شعور مسبق

أتوجه إلى المطعم المتواضع الذي دعاني إليه، وأحاول أن أكون سعيدة. لقد مر على طلاقي أشهر لا أعرف كيف أحصيها، وهو الآن يريد أن يراني، أليس هناك ما يدعو إلى السعادة؟ أنا في حقيقة الأمر منقبضة وأشعر بثقل كبير يشدني بعكس اتجاه سيري. استعدت كلمات ابنتي لأهدأ قليلاً، وحاولت استحضار وجه الصغير وهو يرجوني أن أعود إلى البيت.

لقد بدأ صبر الأولاد ينفد، وتعبوا من الاعتماد على أنفسهم، وأقدرُ أن هذا الدافع لا يستهان به لكي يستبسلوا في محاولات إعادة الأمور إلى نصابها بيني وبينه.

لا أتمنى رؤيته، ويصعب علي الاعتراف بأنني مرتاحة في ظرفي الحالي. أكره أن أمارس أنانية ما بحق أولادي، ولكنها الحقيقة، لقد أصبحت حرة، وهذا شعور لا يماثله شعور خبرته في حياتي السابقة. إنني أفكر بكل ما عليّ فعله وأنا متحمسة، وأنجز ما علي إنجازه وأنا سعيدة، وأنام كل ليلة وأنا راضية تمام الرضا عن نفسي.

أقترب من الحارة التي تضم المطعم المتواضع ويزداد نفوري. أميز قامته المحنية من بعيد وهو يتمشى أمام مدخل المطعم المتواضع، وينظر إلى موطئ أقدامه. لقد ازداد نحوله وقصرت قامته عن عهدي به.

هل ينتظرني في الخارج متشوقًا؟ أرجح أنه لم يتجرّأ على الدخول وحده، كان الطقس خريفيًا دافئًا، ومع ذلك فقد كان يضع عليه معظم ملابسه. ميزت إحدى كنزاته الصوفية، ولكنها بدت بلون باهت عن عهدي بها، أما البنطال فهو جديد، لا، إنه يلبسه للمرة الأولى، وكذلك الحذاء، أنا متأكدة أن الصغير هو الذي انتقاه له، فلونه برتقالي تقريبًا.

- مرحبًا.. هل تأخرت عليك؟

لا أصدق أنه ارتعب عند سماع صوتي، التفت إلي مبهورًا، ونظر في عيني وقال:

- لا أبدًا.. لم تتأخري. وحتى لو تأخرت كنت أنتظرك.

أدخلني أمامه بعد أن أشرع لي الباب، واكتشفت أن المطعم لم يكن متواضعًا كما تخيلته، بل أقرب إلى الحقير إذا كان هذا تصنيفًا يليق بالمطاعم. كانت الطاولات تالفة من أركانها، والجدران عليها طباعات وعبارات تعود إلى احتفالات رأس السنة الماضية، وكان فارغا تمامًا، وثمة رائحة قلي نافذة لدرجة توحي بأن الزيت قد عشعش في طبقة الجو الدنيا.

أجلسني في أحد الأركان، وصفق ليطلب النادل كما كان يفعل أبي من أربعين سنة، ولا أدري لماذا كانت لصفقته صدى مدويًّا وكأننا في غرفة فارغة. بعدها ابتدر بالحديث عن الطقس وانتقل إلى الشأن العام، وانتحى إلى أخبار الساعة السياسية، وبعد أكثر من نصف ساعة لم يكن النادل قد حضر بعد، وشعرت أنه بدأ يقلق قليلاً ويتلفت حوله.

ولدهشتي العظيمة، انتفض وقام من كرسيه واتجه وهو يزمجر إلى الباب المفتوح في أقصى الصالة، والذي يبدو أن رائحة الزيت النافذة تصدر عنه، هكذا وبدون مقدمات واضحة يغضب زوجي ويقرر أن يتصرف بلؤم.

وأظن أن لؤمه جاء في وقته المناسب، لقد قتلني لطفه قتلاً، واكتشفت أن دمه ثقيل جدًّا عندما يكون مهذبًا. عاد بعد قليل وهو محمر الوجه يتصنع الاعتذار ويقول:

- المطعم مقفل، منذ أسبوعين فقط، أنا آسف، دعينا نجد مكانًا آخر. ما أكثر المطاعم في هذا البلد!

لم أتحرك من مكاني، بما أنني تعودت على رائحة الزيت، وبما أن ثيابي صارت بحاجة ماسة إلى غسيل وتعليق في مجرى هواء لأتخلص من رائحة الزيت بالطبع، فلم لا ننه ما جئنا من أجله؟

- أنا أرى - من فضلك - أن نجلس قليلاً لننهي حديثنا، فأنا في الحقيقة لا أستطيع أن أتأخر أكثر من ذلك.

- نحن لم نبدأ بعد.
- حسنًا، دعنا نبدأ.
- أنت، اسمحي لي بهذه الملاحظة، لم تتغيري كثيرًا.
- لا، يبدو أنني لم أتغير.
- أما أنا فقد تغيرت، ها أنا أجلس أمامك وأطلب منك ببساطة أن تعودي إلى البيت.
- لماذا طلقتني؟

تردد للحظات:

- أنا الآن متأكد أنني لن أفعلها ثانية.
- لم أنت متأكد؟
- لأنك بقيت وحدك مدة كافية بنظري لتراجعي نفسك.

كان هذا هو الجواب الذي توقعته بالضبط، وقد أكون قد تمنيته.

- لقد راجعت نفسي طويلاً.
- توقعت ذلك.. من الآن فصاعدًا ستعودين سيدة بيتك. لقد ظلمت الأولاد، والكبير كما كنت أردد دائمًا متعلق بك بلا سبب، إنني لم أره من أسابيع. أنا لا أتحمل هذه الفوضى. عودي والله سيهديك إلى طريقة جديدة مع أهل البيت لكي تكون حياتنا أفضل.

هكذا لم يحرمني زوجي من دعائه الطاهر، وتبين أنني أنا التي ظلمت الأولاد، وها أنا أعود إلى صوابي بعد أن كنت فاقدة له. هذه محاكمة عقلية تناسبه بشكل أسطوري.

- أنا لن أعود إلى البيت.

ضحك بصوت مرتفع، وعاد ليقول:

- أنت تمزحين الآن.

نظرت في عينيه وقلت:

- أنا لن أعود إلى البيت.

شعرت أنه خائف وهو يسأل مرة أخرى:

- هل أنت متأكدة أنك لا تمزحين؟

- أنا لن أعود، ليس عندي بيت وعائلتي تشتتت. أنا مرهقة جسديًّا وماديًّا، لكني أعرف أننا لا نصلح لنعيش تحت سقف واحد، سوف أحاول أن أكون نفسي من جديد بعيدًا عنك. قد أفشل، ولكني أريد أن أعيش حياة كريمة.

النساء ناقصات عقل

حاولت أن أكون رومانسيًا؛ فبعد أن اتخذت قرارًا بإعادتها إلى البيت لم أشأ أن أبشرها به عن طريق الأولاد، دعوتها إلى الغداء في مطعم فخم كنت قد دعيت إليه من سنتين عندما أحيل مديرنا إلى التقاعد، وقد أعجبني الديكور والأكل والخدمة. الخدمة بالذات كانت ممتازة ومميزة، أحببت أن أكرمها، وضعت في جيبي مبلغًا يكفينا حتى نهاية الشهر في البيت، ولكن المناسبة كانت خاصة جدًا، ويجب أن أغامر قليلاً في سبيل الوصول إلى الهدف بسلام. كانت مغامرة جديدة يجب خوضها، وأنا بتواضع.. أعشق المغامرات.

الحقيقة كنت في أقصى حالات الانسجام مع نفسي وأنا أتوجه إلى موعدنا، اشتريت بنطالاً وحذاءً جديدين، وكنت أمام المطعم قبل الموعد بساعة، ووقفت في الخارج أعد خطواتي وأركز فيما يجب أن يقال.

عندما وصلت كنت قد فقدت الكثير من حماستي، ولم أتمكن من مراقبتها وهي تقترب من المطعم؛ لأنها أقبلت من عكس الاتجاه الذي توقعته.

كان وجهها غريبًا، أقصد أنني قد أكون نسيت تفاصيل وجهها، بدت جميلة إلى حد بعيد ولكن.. كيف أقول ذلك؟ مهمومة، ربما متعبة، أو أكبر سنًّا مما توقعت.. إنه الفراق والتشرد. أنبني ضميري كثيرًا، لقد تسببت في هذا شخصيًّا. يجب أن أعوضها كل ما عانته في الأشهر القليلة الماضية.

كان كل شيء على ما يرام، حتى إن حقيقة كون المطعم مقفلاً لم تتسبب بأي إزعاج لنا، ولم تقبل أن نبحث عن غيره حرصًا منها على مشاعري، وعندما سألتني لم طلقتها كنت سأضعف وأعترف بأنها كانت غلطة وحمقًا، ولكني لم أقلها، فما كل شيء يجب أن يصرح به إلى النساء.

وعندما طلبت منها ببساطة لا تخلو من الدهاء أن تعود إلى البيت، تغيرت الأجواء فجأة وأحسست أنها مازالت كما عرفتها.. لئيمة.

والآن بعد أن أيقنت أنها النهاية فعلاً يعتريني خوف شديد لم أشعر به قبل ذلك، وضياع من النوع الذي يشعرك بالدوار وأنت جالس على مقعدك المفضل. لقد بقيت مسمرًا في كرسيي في المطعم المشؤوم لساعات، ولأول مرة في حياتي نسيت الغداء ولم أشعر بالجوع حتى حل موعد العشاء.

وجدت نفسي في البيت ولم أعد أذكر كيف وصلت إلى هناك. وجدت ابنتي تنتظرني وشعرت أنها عرفت نتيجة لقائي وأمها من بؤس نظراتي.

شاركت الأولاد العشاء وأنا أستعيد قابليتي للطعام، وكان الصمت ثقيلاً لدرجة أن الصغير تفرج على قناة الأطفال لمدة ساعة كاملة دون اعتراض من أحد.